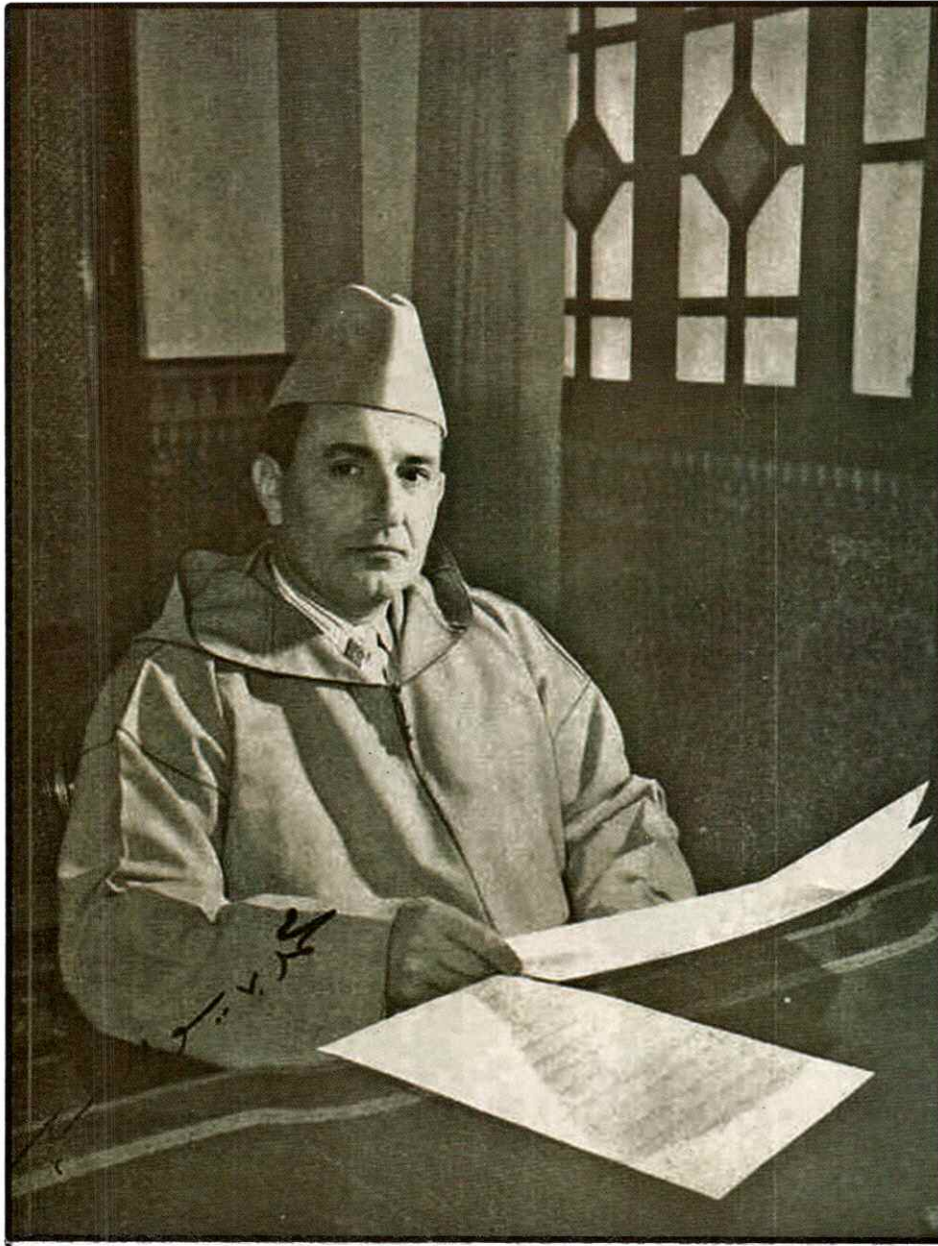


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية



عدد خاص بذكرى ثورة الملك والشعب



السنة التاسعة والخمسون - العدد 419 ذو القعدة 1437 هـ / غشت 2016 م

419

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة التاسعة والخمسون - العدد 419 ذو القعدة 1437 هـ / غشت 2016 م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ/1957م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا دُعالة العكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الدينية
التي تأسست في 1376هـ/1957م

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mbai.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

يحتفل الشعب المغربي هذه السنة بالذكرى الثالثة والستين لثورة الملك والشعب. وهي مناسبة نستلهم منها روح التضحية الصافية التي جسدها جيل التحرير من مختلف المناهج المغربية، ونستشرف من خلالها بناء دولة حديثة شعارها خدمة المواطن وحسن كرامته وضمان حقوقه والدفاع عن مبادئه. وهذا ما سعى إليه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس أعز الله أمره، فالجعله الله:

”إنما كنا نعتبر خدمة المواطن هي الغاية من كل السياسات الوطنية، فإننا نضع ضمان أمنه وسلامته في صدارة انشغالاتنا“

وقد تم ذلك من خلال المبادرات الملكية للتنمية البشرية، وتوسيع صلاحية المنتخبين بإحداث مشروع الجهوية.

لذا استدعى التفوق بتلك الخدمة مواكبة السياسة الداخلية للمعاهدات الدولية، إذ بفضل جهود أمير المؤمنين نصره الله تبوأ المغرب صدارة الريادة في المجال الدولية بانخراطه في معالجة مفهوم المجتمع الدولي، وإسقامه في إيجاد الحلول العملية لقضايا السلم العالمي وحقوق الإنسان ومناقضة التصرف والتصرف العنيف.

إن ما حققه المغرب من إنجازات، وما رفعه من تحديات يعتبر امتدادا لمجموعة من الثورات في مختلف الفصاعات.

هكذا ومن موجبات إخلاصنا لما نهض به أسلافنا من تضحيات ضرورة مواصلة حمل مشعل تلك الثورات من أجل مغرب الوحدة والتضامن والإصلاحات.

وفي ذلك خير ولاء لأرواح أبطال هذه الأمة وفي مفاصلهم جلالته المغفور له محمد الخامس صاحب الله ثراه، وجلالة المشمول بعفو الله الحسن الثاني أكرم الله مثواه، وكافة شهداء الوطن الأبرار، تغمدهم الله جميعا بواسع رحمته آمين.

رئيس التحرير.

مفالات العلم

"أحداث شارع الرباط" بمدينة سيدي قاسم (غشت 1954) نموذج بارز من ثورة الملك والشعب

ذ. عبد العزيز بلبكري
باحث في التاريخ، سيدي قاسم

ظل المغاربة على امتداد ماضيهم العريق مرتبطين بوطنهم، محترمين لركائزه الحضارية المادية والمعنوية، متعلقين برموز سيادته، مما جعلهم يحظون باحترام وتقدير كبيرين من طرف مختلف الشعوب؛ فرغم خضوع البلاد لعدة حضارات متوسطة، عملت على استغلال قدراته بأشكال متفاوتة في الزمن والحجم، فإن المغاربة دافعوا عن تراثهم وبذلوا الغالي والنفيس في التمتع باستقلالهم والحفاظ عليه في إطار من التعايش والانفتاح الإيجابيين.

غير أن القرن العشرين قد وسم هذا التاريخ بمظهر متميز، وبسمة وسمت البلاد والعباد بخصلة قل نظيرها، وبطبع جليل ندر وجوده، وهو التحام القيادة والقاعدة بهدف حماية الأرض والساكنة، وتلك بغية لا تتأني إلا لمن كان له حظ وافر من السكينة القلبية الإيمانية والروح الوطنية، تجسدت فيه بحق حديث حب الأوطان من الإيمان.

1- ثورة الملك والشعب: تأصيل تاريخي

يعتبر يوم 20 غشت 1953م عند المغاربة يوما تاريخيا لا ينسى إذ تعرض السلطان سيدي محمد بن يوسف، رمز البلاد وحاميها، لموقف خطير بالقصر الملكي بالرباط حيث خير بين الوطن أو النفي، فكان الاختيار الذي لا يمكن النقاش فيه أو التردد لحظة بخصوصه لقناعة أصيلة وهي الالتزام بشروط البيعة الشرعية التي تقوم على حماية (دار الإسلام) ومن خلالها الحفاظ على الدين والمسلمين.

لقد أثار هذا الموقف التاريخي السلطة الفرنسية فسارعت إلى نفي السلطان محمد بن يوسف إلى جزيرتي كرسিকা¹ ثم مدغشقر² مما فجر الشعور الوطني عند المغاربة بعد المساس بمقدساتها، فانطلقت في مختلف جهاته حركات فدائية شملت الحاضرة والبادية، ووحدت عمل المرأة والرجل، ومنتت وحدة الشمال بالجنوب والشرق بالغرب، وعززت فعالية رجالات التنظيمات السياسية والفدائية

وإذا كانت بعض المدن والمناطق المغربية قد استأثرت بنصيب مهم من العمل الفدائي³ لاعتبارات موضوعية وذاتية، فإن حواضر أخرى قد ساهمت بنصيب واضح في "ثورة الملك والشعب" استجابة للوازع الديني والأخلاقي والوطني ومنها ساكنة مدينة سيدي قاسم الفتية.

2- "أحداث شارع الرباط" بمدينة سيدي قاسم (غشت 1954) نموذج بارز من ثورة الملك والشعب

أ- التعريف بمدينة سيدي قاسم (بوتي جون)⁴

لم تكن مدينة سيدي قاسم عام 1954م قد تحولت إلى مدينة كبيرة بل ظلت حتى العقد الرابع من القرن العشرين مركزا حضريا بسيطا يتكون من عدة أحياء كان أساسها حي "الزاوية"⁵ الذي يلامس ضريح سيدي قاسم بوعسرية السفيناني (ت 1699م)، وحي "صحراوة"⁶ على مشارف المدينة العصرية التي شملت "الحي الأوربي" ثم "الحي المغربي" المسمى "حي كبار" أو "مدينة كبار"،

1 - جزيرة تابعة لفرنسا بالبحر الأبيض المتوسط، غير بعيدة عن الساحل الفرنسي.

2 - مستعمرة فرنسية واقعة جنوب شرق قارة إفريقيا.

3 - نذكر هنا الشهيد علال بن عبد الله بالرباط، ومحمد الزرقطوني بالدار البيضاء، وحماد الفطواكي بمراكش وغيرهم من الفدائيين الوطنيين.

4 - ضابط فرنسي ضمن الجيش الفرنسي الذي نظم حملته على منطقة الغرب عام 1911م بقيادة الجنرال موانبي، وقد قتل الضابط (Petit Jean) قرب قرية لالة يطو بين مدينتي أحد كرت وسيدي سليمان في شهر ماي 1911م، ستحمل مدينة سيدي قاسم اسمه على عهد الحماية الفرنسية، وينطقها السكان المحليون (بيتيجا) بالتعبير الشعبي.

5 - التجمع الأصلي للمدينة، أقيمت بجوارها ثكنة عسكرية على عهد السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف (1082هـ/1672م - 1139هـ/1727م) على وادي الردم.

6 - تذهب الرواية الشفوية إلى تأكيد نقل عائلات كثيرة من منطقة وادي فركلة بتنجداد من شرق تافيلالت، إلى ضواحي ضريح سيدي قاسم بوعسرية خلال القرن 18م، وهو الحي الذي مازال يعرف حتى الآن بـ"صحراوة".

وأخيرا "حي المرس"، فضلا عن بعض المرافق الإدارية المفتحة على قلب المدينة بـ "ساحة فرنسا"⁷ وشارعها الرئيسي "شارع اليوطي" المسمى اليوم: شارع محمد الخامس، والصناعية والتعليمية⁸ والخدمات من خلال معمل تكرير البترول ومحطة القطار.....

وارتباطا بذلك، شملت المدينة ساكنة مختلفة أغلبها أوريون فرنسيون، ومغاربة مثل اليهود منهم أكثر من 85 عائلة في المناطق التجارية المهمة، ومنها ما عرف باسم "شارع الرباط"، أما باقي السكان فقد قدموا من جهات مختلفة من الضواحي، ومن منطقة تافيلالت ومكناس وفاس... فاندمجوا فيما بينهم، وشكلوا ساكنة توحدت في الإحساس بالانتماء للمدينة، والهوية المغربية بما يستوجب ذلك من ضرورة الدفاع عنها وعن رموز سيادتها.

لم تكن مدينة سيدي قاسم، رغم حداثة تأسيسها في سياق الظاهرة الحضرية الكولونيالية عام 1916م، بمعزل عن وقائع الأحداث لـ "ثورة الملك والشعب" بل انخرطت فيها، وساهمت في تطوراتها، وعكست وطنية جل ساكنتها المغربية من (الأهالي) وهو ما سيتجسد في "أحداث شارع الرباط" في غشت 1954م.

ب- كرونولوجيا "أحداث شارع الرباط"

إن إعادة بناء "أحداث شارع الرباط" بمدينة سيدي قاسم بشكل زمني متواصل دقيق أمر صعب حتى الآن، فلا الرواية الشفهية ولا المصدر المكتوب يساعدان على ذلك، لكن هناك مصدرا من نوع خاص أصبح البحث التاريخي يفتح عليه أكثر بشكل تأويلي وتحليلي وهو "الكتابة الصحفية"، وهو المصدر الذي سنعتمده في محاولة بناء بعض هذه الأحداث من خلال جريدة "السعادة"⁹.

7 - هي الساحة التي أقيمت فيها ابتداء من عام 1963م مقرات عمالة سيدي قاسم والبلدية الساحة التي بينهما الآن.
8 - بموازة التعليم الفرنسي بالمدينة، تأسست بعض المدارس الخاصة بالتعليم الإسلامي المغربي، وأخرى مدارس خاصة منها مدرسة بالواد عام 1935م والمدرسة الحسنية الحرة عام 1946م، من طرف الفقيه علال بن الهاشمي، وقد حضر تدشينها الأمير مولاي الحسن آنذاك...

9 - هي جريدة ناطقة باسم الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب رغم مظهرها غير الرسمي، صدرت أولا في طنجة في أكتوبر 1904م، ثم تحول مقرها إلى مدينة الرباط بعد معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب، تولى الإشراف على تحريرها صحفيون ذوو ميولات سياسية فرنسية خالصة منهم إدريس الخبزاوي خلال الستين الأولى، ثم السيد وديع كرم الصحفي الشامي ... كما صدرت الجريدة في فترات مختلفة فقد كانت شهرية فأسبوعية ثم يومية، يرجع إلى: مصطفى الرايس، مقاومة شيوخ الزوايا للوجود الاستعماري الفرنسي بالمغرب من خلال جريدة السعادة 1907-1920، دار أبي رقراق الرباط المغرب، ط1/ 2015م، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

لقد اندلعت "أحداث شارع الرباط" بمدينة سيدي قاسم في شهر غشت عام 1954م استجابة للتطور العام لنضال الشعب المغربي وقد مرت على نفى السلطان الشرعي محمد بن يوسف حوالي سنة كاملة، وليس من غريب (الصدفة) أن تنفجر هذه الأحداث في مدينة تقع في منطقة غير بعيدة عن مراكز الوطنية المغربية: فاس ومكناس من جهة الجنوب والشرق، والرباط والدار البيضاء والقنيطرة من ناحية الغرب، خاصة في ظل شبكة المواصلات السككية والطرقية الجديدة... فما هي تطورات "أحداث شارع الرباط" بسيدي قاسم؟ وما هي تجليات ثورة الملك الشعب فيها؟

سننطلق من بعض النصوص الناطقة والمسيرة لتطورات الأحداث اعتمادا على جريدة "السعادة" وفق ما يلي:

- جريدة "السعادة" عدد 9130 / 08/04/ 1954 م¹⁰:

«في صباح يوم الثلاثاء قامت حوادث خطيرة في سيدي قاسم بعد اصطدام سبعمائة إلى ثمانمائة متظاهر مغربي يحملون صور السلطان السابق¹¹ برجال الأمن وهاجموهم بالحجارة، وأثناء هذه الحادثة الأولى اضطر رجال الأمن لإطلاق النار على المتظاهرين مما تسبب في بعض الجرحى... ولكن المظاهرات ما لبثت أن تفاقمت، وأشعل المتظاهرون النار في مخازن... الشؤون الأهلية فأرسلت قوات شرطية من سيدي سليمان وميناء ليوطي¹² وتدخلت... ويستحيل علينا في الساعة الراهنة تأكيد عدد القتلى، وهذه الحوادث يؤسف عليها. وقد وصل [عدد من الجنود] في نهاية الصباح لسيدي قاسم».

- جريدة "السعادة" عدد 9131 / 05 / 08 / 1954 م:

«ابتدأت حوادث على الساعة الخامسة والنصف صباحا إذ اجتمع مغاربة يتراوح عددهم بين سبعمائة وثمانمائة نسمة في ساحة السوق¹³ حيث يوجد فندق مهم. وفي أثناء القليل قدم مهيجون من فاس في متن سيارات فوزعوا مناشير لإثارة ثائرة السكان المغاربة. وخطب أحد قادتهم وسط جمهور من الناس وكان رافعا بيده صورة السلطان السابق سيدي محمد بن يوسف ... ويحث الناس على أن يصيحوا بأعلى أصواتهم بهذه العبارة "يحيا الملك".

10 - كانت الجريدة متابعة لتطورات الأحداث بمدينة سيدي قاسم (بوتي جون) من خلال تقارير مراسليها وتشر غالبا في اليوم الموالي.

11 - إشارة إلى السلطان الشرعي محمد بن يوسف الذي نفته حكومة الحماية وعوضته بالسلطان المزعوم محمد بن عرفة.

12 - مدينة (Port Iyautey) ميناء ليوطي هو الاسم الذي أطلق على مدينة القنيطرة منذ تأسيسها عام 1913م على مصب وادي سبو في المحيط الأطلسي.

13 - يقصد بها ساحة "سوق الخضر" التي بنى مكانها الآن مسجد شارع الرباط.

كان المتظاهرون ينادون "يحيا الملك" ويهرعون نحو المستودعات ...، وتوجه المتظاهرون الذين كان عددهم يتزايد بلا انقطاع إلى سوق الخضرة. وتجمعوا ... مسيرهم على حانوت ملك الم¹⁴ جودة صباح وحيث إن الم بوسيدا... والسكن في مكناس وجده هناك ... ينتظر صاحب الحانوت فإن المتظاهرين هجموا عليه ضربا بقضبان الحديد ...

وبعد هذه، اقتربوا¹⁵ من الحي الأوربي¹⁶ فقاموا بحركة لطريق مستودعات الحبوب... ولقد أحرقوا سيارة كميون ملك الم شالوم... ثم اقتحم الجمهور مستودع شالوم المذكور البالغ عمره 53 عاما ففعلوا به تمثيلا ... هو ونجله البالغ من العمر 23 عاما. وفي الحين لقيا حتفهما لكثرة عدد المهاجمين الذين التفوا عليهما ضربا بالآجور وهما بباب منزلهما.

إحراق حبوب قيمتها عشرون مليون فرنك وبعد ذلك عمد المحرقون إلى إضرام النار في مستودعين للحبوب يحتويان على كمية من البضائع تقدر قيمتها بنحو عشرين مليون فرنك ...

ولقد اتصل لعلم البوليس المحلي المؤلف من ثلاثة مفتشين بقيادة الم هومبيرك كلود في المدينة ولم يتمكن من التدخل بصورة مجدية إلا في الساعة الواحدة والنصف.

وما لبث أن تساقط سحاب من الأحجار على البوليس القليل العدد فلم يسعهم إلا التراجع وأصيب الم هومبير كلود بجروح في رأسه، وحينما نقلته سيارة الإسعاف إلى المستوصف، وبمجرد تضميد جراحه عاد إلى مركزه لاستئناف عمله.

وحضر المراقبي المدني¹⁷ الم هوسون رئيس المقاطعة مرفوقا بالم كنين كاهية¹⁸ المراقب، رئيس الدائرة بالنيابة، وستة مخازنية وثلاثة جنود من سيدي قاسم وستة شرطين من سيدي سليمان وستة آخرون من القنيطرة، وتألفت جماعة قوامها 35 رجلا معها من الأسلحة الأتوماتيكية وكانت الساعة إذ ذاك العاشرة والنصف والجمهور لا ينقطع عن الصراخ.

14 - المسيو.

15 - لم يكن مسموحا لأي مغربي الاقتراب والدخول إلى "الحي الأوربي" باستثناء الحمالين وماسحي الأحذية وبإذن (laisser passer).

16 - وهو الواقع بين شارع ليوطي (محمد الخامس الآن) وشارع الكنيسة وطريق فاس ومعمل البترول في شكل مستطيل.

17 - هو قمة الهرم الإداري للحماية الفرنسية في التنظيم المحلي.

18 - نائب، هي من الكلمات التركية التي دخلت القاموس الإداري المغربي من (الجزائر الفرنسية).

وأعطي رجال الأمن أوامر لتفريق شمل المتظاهرين ولكن هؤلاء لم يزدحم ذلك إلا حماسا، حينئذ أطلق رجال الأمن عدة طلقات في الفضاء فأخذ المتظاهرون يرشقونهم بالحجارة وعند ذلك صدر الأمر بإطلاق النار، فمات أربعة من المتظاهرين حالا وأصيب خامس بجروح قاتلة إذ ما لبث أن لفظ نفسه الأخير، وأصيب نحو ثلاثين شخصا بجروح وتم نقلهم على الفور إلى مستشفيات القنيطرة والرباط، وفي الحين تشتت شمل المتظاهرين وذهب كل إلى حال سبيله».

- جريدة "السعادة" عدد 9135 / 10 / 08 / 1954م:

« بعد الحوادث الدامية التي وقعت يوم الثلاثاء الأخير عاد فخيم الهدوء والطمأنينة من جديد على ربوع هذه المدينة وأحوازاها، ورجعت الأشياء لمجاريها وفتحت الدكاكين ومخازن التجارة على اختلاف أنواعها. وشاهدنا¹⁹ في عشية ذلك اليوم القائد السيد عبد الرحمن بن زروال²⁰، وبرفقته جناب كاهية المراقب المدني رئيس الدائرة بالنيابة المسيو كليز، يتجولان على متن سيارتهما بشوارع المدينة، يسكنان روعة الخلائق من الفرع، ويصرخان للناس بأن الواجب الإنساني والمحافظة على النظام المدني بقضيان بالتباعد عن الفتنة والغوغاء».

- جريدة "السعادة" عدد 9136 / 12 / 08 / 1954م:

«ضحى يوم الاثنين، ... حل بهذه المدينة مجادة المقيم العام²¹ لمشاركة كافة السكان في الفاجعة التي تصم لسماعها الآذان، فدخل أولا مكتب المراقبة المدنية حيث قابل بها كاهية المراقب المدني الرئيس بالنيابة الم كليز، وعامل كافة قبائل الشارقة الحازم السيد عبد الرحمن بن زروال، وهيأة رجال الأمن المحليين، ثم ولى وجهته صحبة هؤلاء لنيابة المحكمة الجديدة المخزنية، وبها قدم لمجادته، جناب القائد، أعيان القبيلة والشخصيات البارزة من شرفاء ووجهاء وموظفين وكبار المعمرين، وبردهة غرفة الأحكام الفسيحة جلس الجميع ... وكان من بين الحضور السيد بوشتي بن القائد المذكور ... وأعرب لمجادته عن استنكار أفراد قبيلته للحوادث المفجعة الواقعة أخيرا بهذه المدينة، ملفتا نظره إلى أن القائمين بها ليسوا من عناصر سكان هذه البلدة بل أفراد أجانب عنها، وأن

19 - المقصود: القاسمي، مراسل جريدة السعادة الذي كان شاهد عيان للأحداث.

20 - عبد الرحمن بن زروال الدليمي، تولى قيادة قبيلة الشارقة ومدينة سيدي قاسم بعد القايد إدريس بن عبد الرحمن الحافظ الدليمي الشرادي...

21 - هو: فرانسيس لاكوست، الذي تولى الإقامة العامة بالمغرب بين 1954/05/22م حتى 1955/06/17م.

أفراد قبيلته وعامتهم يتبرأون من هذه الأعمال الوحشية. ولقد أجابه مجادة المقيم العام بأنه متأسف جدا من وقوع هذه الحوادث، وهو يستنكرها غاية الإستنكار. ثم أكد السيد بوشتي قوله بأن قبيلته لا زالت²² معروفة بالتمسك بأواصر المودة والولاء للدولة الحامية والمخزن الشريف».

بغض النظر عن الموقف المهادن والعاكس لمواقف الحماية الفرنسية بالمغرب والمدينة على وجه التخصيص، فإن هذه النصوص قد جاءت على لسان منبر إعلامي كولونيالي النبوة، حاول أن يبرر تصرفات المغاربة بالهمجية والمجانبة للمهانة والمساكنة لسلطات الحماية بالمدينة، وهو ما لا يسع المرء إلا رفضه والتنصل منه، فهل كان رفع أصوات ساكنة مدينة سيدي قاسم بشعار "يحيا الملك" إلا تعبيرا عن تلك الروح الوطنية الجارحة التي شحنت شعورهم؟ وهل كانت الاستجابة للأوامر القادمة من مدينة فاس، كما في النص السابق، إلا تجسيدا لمظاهر التواصل بين زعماء وقيادات وقواعد الحركة الفدائية المنظمة وفروعها وخلاياها المنتشرة في مختلف المدن والتجمعات البشرية ذات الحضور الفرنسي المهم؟ ومتى كان الخصم يعترف بجهود خصمه ويشير إلى أحقيته في التعبير (بالصياح) ورفع الشعارات العاكسة للرفض الأكيد للوضع القائم الذي هو حالة نفي السلطان الشرعي محمد بن يوسف؟ ...

لقد كانت "أحداث شارع الرباط" بسيدي قاسم بحق ملحمة وطنية، رواها أبناء²³ المدينة بدمائهم الغالية الزكية الطاهرة، فحق لهذه الحاضرة أن تفتخر بـ "شهداء ملحمة شارع الرباط" التي ستظل خالدة في الذاكرة المحلية والجهوية والوطنية، وتستوجب اهتماما أكثر بالتوثيق والتأريخ من الزاوية الوطنية شفهوية المصدر كانت أو مكتوبة على ندرتها، إن هؤلاء الشهداء هم الحقيقيون بلقب "أبطال بلا بذلة"²⁴ كما كتب المؤلف جورج أندرو بجدارية واستحقاق.

22 - الثابت أن فرنسا تمكنت من اصطناع مجموعة من القياد لتمير سياستها، مقابل عدة امتيازات، مستدركة بذلك لأخطائها في الجزائر التي اتبعت فيها سياسة الإستعمار المباشر.

23 - وفي بعض الأحيان تكون مناسبة لاغتناء بعض العناصر الانتهازية التي تستفيد من حالة (الاضطراب) فتقوم بعمليات النهب واللصوصية كما تشير الرواية الشفهوية إلى مثيلة لها في "أحداث شارع الرباط".

24 - "Heros sans uniforme" Georges Andraud .

صفحات خالدة في تشبث الجهة الشرقية بالمملك الشرعي للبلاد سيدي محمد بن يوسف - أحداث 16 و 17 غشت 1953م -

ذ. محمد حرفي
باحث في التاريخ، وجدة

لكل أمة حضارتها، وهي مجموع ما تحتزله ذاكرتها من قيم مادية وفكرية وثقافية، وما يسجل بها من محطات ومواقف مشهودة، هي من صنع شعوبها وأمجادها عبر مسلسل حلقات من التضحية والعطاء ومن التشييد والبناء.

والمغرب، بصرف النظر عن وضعيته الراهنة من حيث الرتبة الممنوحة له دوليا، يأتي ضمن البلدان القليلة التي تمتلك ذاكرة زاخرة بالمواقف والأمجاد، خاصة تلك التي تستحضر مراحل تعرضت فيها البلاد للغزو الأجنبي وللسيطرة الاستعمارية.

وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى أن عددا من المؤلفات - كتب ومقالات - صدرت لنشر هذه الذاكرة سواء على المستوى الوطني أو الجهوي، وبما أن هذا الأخير - أي المستوى الجهوي - هو الذي يعنينا في هذه المحاولة فسيتم التركيز على أحداث 16 و 17 غشت 1953م في الجهة الشرقية للمملكة المغربية وبالتحديد في وجدة وبركان، لأن ما حدث في هذين اليومين يندرج في النسق العام لما جرى في المملكة المغربية من أحداث، ولأن الكتابة عنه مشوبة بنفس ما شاب غيرها من الكتابات، وتبعاً لذلك فإن الحديث عنه كالحديث عن المقاومة المغربية، يشكل موضوعاً تضاربت بشأنه مناهج البحوث، وتباينت بصده الآراء والأحكام، واختلفت في تضمين حملته التعاريف والمصطلحات، كما تعددت بخصوصه أنواع المسارات، مما أفضى غالباً إلى غياب حقائق وضياع معلومات وإقحام أو إقصاء وقائع أو فاعلين، ضمن محاولات لم تعد أن تكون كتابات لسير ذاتية أكثر منها مؤلفات حول تاريخ المقاومة في إطار المؤسسات (الحركات أو المنظمات).

ولعل هذا المنحى رغم ما فيه من إيجابيات، هو الذي أدى إلى انزلاقات - عن قصد أو عن غير قصد - أضرت بحركة المقاومة أكثر مما أفادتها، بسبب ما نجم عن الروايات التي سيطر عليها الجانب الذاتي على حساب ما يتطلبه البحث العلمي من موضوعية وأمانة علمية. ولعل هذا أيضا ما انتاب الباحثين والقراء لهذه المذكرات من حيرة واستغراب لكثرة ما اعترى هذا النوع من المؤلفات من تضارب في المعلومات، وتباين في الروايات حول عمليات فدائية لم تسلم منه حتى التي جرت في مدينة واحدة وفي لحظة واحدة وضد مستهدف واحد...

فباستقراء ما كتب في موضوع ما حدث في 16 و 17 غشت 1953م، على قلته لحد الآن يلاحظ وجود خلافات تضارب حول الكثير من الجوانب، طالت حتى المصطلح الذي نعت به هذا الحدث، ففي حين يسميه البعض "ثورة 16 غشت" نجد من يدعوه "انتفاضة" ومن ينعته "مظاهرة" كما طالت طبيعته وجانبه التنظيمي، حيث اعتبره فريق حركة عفوية بينما اعتبره فريق آخر عملا منظما، لم يكن ليجري في المستوى التنظيمي الذي عرفه لولا وجود تخطيط وراءه حزب قوي مؤهل للإعداد والإنجاز، وحتى بعض من يرى هذا، يعتبر أن ما جرى في اليومين المذكورين مجرد مبادرة محلية وليس بأمر من اللجنة التنفيذية المؤقتة لحزب الاستقلال، وهذا ما فنده أعضاء من فرع الحزب بوجدة. وفي هذه النقطة تضاربت الروايات حول الجهات التي تم الاتصال بها في طور الإعداد للحدث كما سيتضح لاحقا، وأخيرا هناك من تجرأ وذهب بعيدا فصرح بأن ما حدث في 16 و 17 غشت 1953م خطأ "تكتيكي" رغم ما فيه من إيجابيات من الناحية السياسية.

كما سبق الإشارة إليه، يتضح أن ما ألف لحد اليوم في موضوع المقاومة المغربية عامة، و 16-17 غشت 1953م خاصة، لا يخلو من إيجابيات وهي كثيرة، لأنها محاولات تصلح لتكون بداية لمن أراد تكميلا، ومنطلقا لمن أراد تفصيلا.

وإذا كان لأصحابها فضل السابق، فليكن فضل المواصلة للاحق، وفي هذا الإطار تدخل هذه المحاولة مستعينة بمصدرين: 1- بعض ما كتب في الموضوع (الذاكرة المسجلة) 2- الاتصال المباشر بمن لا يزالون على قيد الحياة ممن عاصروا الحدث (الذاكرة الحية)، على أن يتم ذلك كله عبر ثلاثة محاور يخصص أولها للإيقاع التنظيمي لأحداث 16 غشت بوجدة، ويعالج في الثاني: الإيقاع التنظيمي في 17 غشت بأبركان ونواحيها، أما الثالث فيتناول الانعكاسات والتداعيات الناجمة عن الأحداث.

المحور الأول : الإيقاع التنظيمي لأحداث 16 غشت بوجدة

ما أن شاع نبأ إقدام الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب على التخطيط للقيام بالاعتداء على رمز السيادة الوطنية الملك سيدي محمد بن يوسف، عن طريق وسائل الإعلام وأجهزة حزب الاستقلال التي لم تتمكن سلطات الحماية من اكتشاف أفرادها، حتى دبت حركة غير عادية من التعبئة والإعداد للمواجهة في صفوف الوطنيين المغاربة بسائر أنحاء المملكة خاصة المدن التي كان للحزب فروع بها. ولم تتخلف مدينة وجدة عن الركب بل كانت سباقة إلى تفعيل كل أجهزة الحزب، بما في ذلك المنظمات الجماهيرية كجمعية الطالب الاستقلالي والشبيبة الاستقلالية والحركة الكشفية.

ومن المعروف أن وجدة كان بها تنظيم حزبي مميز، فبالإضافة إلى فرع حزب الاستقلال كان بها فرع لحزب الشورى والاستقلال وآخر للحزب الشيوعي المغربي، وكلها كانت تمارس نشاطها في سرية تامة. وبما أن الأمر يخص أحداث 16 غشت 1953م التي هي كما هو معلوم مرتبطة بحزب الاستقلال، فمن المفيد الإشارة إلى أن هذا الحزب كان التنظيم الأوسع شعبية والأكثر حضورا على صعيد التنظيم، حيث كان يتوفر على مكتب للفرع (11 عضوا) ومجلس للمراقبين (14 عضوا)¹. وخلايا منبثة في غالب الأحيان (عددها 150 خلية وكل خلية من 10 إلى 15 فردا) منتظمة الاجتماع يسيرها "مشغل" مزود بنشرات حزبية يقرأها على المجتمعين، وغالبا ما كان المشغل من معلمي الكتاتيب القرآنية، يساعده أحيانا تلميذ من المدارس الحرة أو من ثانوية عبد المومن أو من lycée de garçons الثانويتين الوحيدتين بوجدة، وفي العطل الدراسية، خاصة عطلة الصيف، تدعم الخلايا بطلاب جامعة القرويين المنضوين تحت لواء جمعية الطالب الوجداني الاستقلالي، وبالإضافة إلى هذه الأجهزة كان لفرع وجدة عدة لجان، ومنها لجنة للدعاية والاستخبارات، وأخرى للاتصال. علاوة على خلايا سرية مسلحة تشكلت خارج التنظيم الحزبي، وهذا ما ذكره أحد المسؤولين في فرع الحزب آنذاك، أن "حركة حزب الاستقلال وشرق المغرب لا تضاهيها حركة الحزب في المغرب كله" وحين أكد بأن أعضاء من اللجنة التنفيذية، حسب روايته صرحوا بـ "أن سكان الجهة الشرقية كونوا أنفسهم ... وقوا حركتهم ونظموا صفوفهم بدون حضور أي عضو من الرباط"².

1 - عبد الصادق القادري بوتشيش "أضواء على حركة المقاومة المسلحة بالمنطقة الشرقية المغربية ص 37 الجزء الأول" مؤسسة جليل للطباعة والنشر 2000م وجدة.

2 - نشرة صادرة عن منظمة 16 غشت 1953م بمناسبة الذكرى 18 ص 8.

إن هذا المستوى من الحضور والتنظيم الذي بلغه حزب الإستقلال بالجهة الشرقية، هو الذي أهله للقيام بتعبئة جميع أجهزته لمواجهة الطوارئ التي بدت آنذاك على وشك الحلول، وفي إطار هذه التعبئة دعيت جميع الأجهزة لعقد اجتماعات طارئة لدراسة الوضع، حيث انعقدت عدة لقاءات سواء على مستوى مكتب الفرع ومجلس المراقبين، أو على مستوى خلايا الأحياء واللجان المختصة. وكانت هذه الاجتماعات لدراسة وتلقي التعليمات حول تطور الوضع في انتظار القرار النهائي الذي يقتضيه الموقف. وموازة مع هذه الاجتماعات واللقاءات، كانت نخبة من الطلبة منكبة على نسخ المناشير وتوزيعها، ومما جاء فيها "أيها الشعب الوجدي لا تتأخر في إراقة دمك لحماية ملكك ووطنك"³.

و في غمار هذه الإجراءات تجندت كل فروع الجهة لحث المواطنين على تقديم الاحتجاجات والاستنكارات، وتوجيه البرقيات والعرائض وقراءة اللطيف في المساجد وتوزيع المناشير وإصاقها على الجدران، ودعوة المواطنين إلى الحذر واليقظة والاستعداد للتضحية وبذل كل غال ونفيس فداء للملك⁴...

وضمن هذه التعبئة تشكلت جماعة من أفراد الحزب وأعدت خطة هجومية وعملية فدائية لنسف الاجتماع الذي كان مقررا عقده في منزل أحد أعوان الحماية. والقيام باغتيال الكلاوي وجماعته، إلا أن الحراسة المشددة حالت دون تنفيذ هذه العملية⁵... وحسب رواية أخرى فالذي حال دون تنفيذ العملية هو تغيير في زيارة الكلاوي لوجدة حيث ورد في مؤلف آخر ما يلي: "كان اليوم المحدد الذي عين لنا من الرباط تلفونيا هو يوم الثلاثاء 11 غشت 1953م غير أننا فوجئنا بالباشا الكلاوي يصل إلى مدينة وجدة يوم الاثنين 10 غشت"⁶.

وموازة للحركة الدائبة الرامية إلى التعبئة والإعداد، كان أعضاء من مكتب فرع الحزب يجرون اتصالات بمسؤولي الحزب مركزيا، وحول هذه المسألة تعددت الروايات، فقد ورد في أحد المؤلفات ما يلي: "في أعقاب زيارة الباشا الكلاوي إلى مدينة وجدة بعثنا أحمد بن عمرو الكعواشي البختاوي -

3 - نشرة صادرة عن منظمة 16 غشت 1953م.

4 - نفس المطبوع.

5 - عبد الصادق القادري ص. 39 (مرجع سابق).

6 - المرجع نفسه ص 39 و 40.

عضو المكتب - إلى الرباط لتقصي الأخبار، وقام العضو بالاتصال مع عبد المومن الغول الذي ذهب إلى منزل عبد الرحمان بادو عضو اللجنة التنفيذية المؤقتة، حيث طلب هذا الأخير من الكعواشي العودة إلى وجدة مؤكدا له بأنه في حالة حدوث ما يمس الملك، فإن الحزب سيعمل على الاتصال بالمكتب وإبلاغ ما يجب إبلاغه".⁷

وفي نفس المهمة يروي غيره ما يلي "... واتصل فرع الحزب بوجدة بفرع الحزب بفاس، وعلى رأسه الأخ محمد بن شقرون، وهناك تلقى الأخ عبد الرحمان حجيبة تعليقات الحزب، إذ أكد له ابن شقرون أن حزب الاستقلال قرر لا مركزية العمل وأنه إذا مس محمد الخامس فعليكم بالثورة بكل الوسائل من الخنجر إلى البندقية، إنكم من الآن لن تنتظروا الأوامر لقد أصبح لكم حق القرار الذي ترونه صالحا للعمل... أثيروا في الشعب روح الثورة، علموه كيف يصبح كل عضو فيه عضوا في فرقة فدائية...".⁸

وهذا نفس ما وقع بالنسبة لكلمة السر فبينما يقول غلاب: "إنها باسم الله"⁹. يقول عبد الصادق القادري إن كلمة السر هي "المريض لأبأس به"¹⁰. أما بالنسبة لحسني محمد بلعيد فيقول: إن كلمة السر هي "هنا وجدة- باسم الله"، ويضيف "إنه وزجلي عبد الله هما الوحيدان اللذان كانا يطلعان على هذا السر". وموازية مع التعبئة والإعداد كان مناضلو الحزب وأطره مشدودين إلى إذاعة لندن التي كانت تتابع تطور الوضع بالمغرب، والتي أعلنت عن قيام تظاهرة بمراكش، ومحاولة اغتيال ابن عرفة يوم الجمعة 14 غشت، ثم قيام مظاهرتين سلميتين في كل من الرباط والبيضاء يوم 15 غشت.

وكان آخر الترتيبات المتخذة هو الذي تم في اجتماعات الخلايا بإشراف المشغلين، يوم الجمعة 14 و 15 غشت ليلا، حيث اطلع الأعضاء على المخطط المقرر تنفيذه للمواجهة وما يستلزم ذلك من إجراءات نظامية ولوجستيكية وإسعافية وغير ذلك مما قد يقتضيه تطور الأحداث، على أن الأمر الذي لم يحسم في الاجتماعات هو نوع المواجهة الذي سيبت في شأنها من لدن مكتب الفرع لاحقا وقبل انفضاض الاجتماع أخبر المشغلون بموعد اللقاء ومكانه (وهو يوم الأحد 16 غشت على الساعة 11 زوالا)، وذلك لتبليغهم القرار النهائي.

7 - عبد الكريم غلاب: "تاريخ الحركة الوطنية" الجزء الثاني ص 605 مطبعة الرسالة 1987م.

8 - نفس المرجع ص 605.

9 - عبد الصادق القادري ص 40 و 44.

10 - نفس المرجع.

وفي غمرة انتشار خبر عزل محمد الخامس وتنصيب ابن عرفة، وقيام المظاهرات في مراكش والرباط والبيضاء، أصبح الوضع بمدينة وجدة منذرا بالانفجار لولا توجيهات الحزب، وانضباط المناضلين، خاصة وأن بعض المسؤولين في الحزب تم اعتقالهم قبل 15 غشت.

وفي صبيحة 16 غشت دعي أعضاء مكتب فرع الحزب للاجتماع الذي غاب عنه من اعتقل قبل 15 غشت، ولما أخبر الحاضرون بأن المكالمة الهاتفية من الرباط تفيد بأن " المريض في خطر"، وتطلب اتحاد ما يلزم لمواجهة هذا الخطر، وهنا "تضاربت الأفكار والآراء حول نوعية العمل الذي يتعين القيام به، فإما اختيار عناصر ليقوموا بعمليات فدائية- وقد رفض هذا الاقتراح، أو فتح المجال للجماهير الغاضبة وترك العمل لها من أجل إراقة الدماء، وقد حاز رضى الحاضرين"¹¹.

وفي هذا الاجتماع تقرر أن يكون موعد تنفيذ الخطة هو الساعة السادسة مساء، وانفض الاجتماع وبلغ القرار إلى المراقبين والمشغلين ومنسقي اللجان الذين نفذوا التعليمات بأسرع ما يمكن. وعلى الساعة السادسة انطلقت أفواج المواطنين من كل أطراف المدينة مهللة مكبرة، فبعضها انطلق من ساحة سيدي عبد الوهاب "الجوطية" ليتفرع جزء منه نحو طريق مولاي الحسن وآخر نحو شارع المغرب العربي، وثالث إلى طريق سوق الخضر المؤدي إلى ساحة المغرب (place de maroc) لينساب طرف منه نحو طريق فاس، والثاني نحو شارع مراكش، ولم تمض ساعة إلا وجميع الأفواج قد التحمت في مظاهرة حاشدة عمت جميع الأحياء والشوارع والساحات، كانت سلمية في بدايتها ثم تحولت إلى مصادمات عنيفة عندما شرعت القوات الاستعمارية في إطلاق النار بطريقة عشوائية، ورغم لجوء القوات إلى مdahمة المتظاهرين بالمدركات والمصفحات، فإنها لم تستطع أن تسيطر على الموقف إلا بعد مرور أكثر من ست ساعات على اندلاع المظاهرات خسر فيها الجانب الفرنسي 29 قتيلًا و 49 جريحًا حسب رواية عبد الكريم غلاب¹² بينما استشهد أكثر من 1000 متظاهر حسب بعض الروايات¹³.

أما المعتقلون فبلغ عددهم 788 مثلوا أمام محكمة الباشا فأصدرت في حق 75 أحكامًا مختلفة بالسجن¹⁴، فيما مثل 96 وطنيا أمام المحكمة العسكرية التي حكمت على 8 بالإعدام حضوريا وعلى 11 بالإعدام غيابيا¹⁵.

11 - عبد الكريم غلاب، ص 606 (مرجع سابق).

12 - عبد الله راشد: "كفاح المغاربة في سبيل الاستقلال والديمقراطية" ص 51، الدار البيضاء 2004 م.

13 - Jean Charles le grand «justice partie de l'homme» page 266.

14 - عبد الله راشد ص 51 (مرجع سابق).

15 - نفس المرجع ص 51 وهذا ما ذكره Jean Charles le grand في كتابه ص 266.

ذلك ما جرى بالنسبة لأحداث 16 غشت 1953م بوجدة، فماذا عن أحداث 17 غشت ببركان؟
ذلك ما سيتم تناوله في الفقرات التالية:

المحور الثاني : الإيقاع التنظيمي لأحداث 17 غشت 1953م بأبركان ونواحيها

إذا كانت أحداث 16 غشت 1953م إحدى المعالم التي تذكر بما جرى في مدينة وجدة، فإن 17 منه يعتبر من الوقفات البطولية لسكان مدينة أبركان ونواحيها.

كانت أبركان آنذاك من المناطق المغربية التي انحدر منها وطنيون أفذاذ تربوا في حركة وطنية متميزة بمواقفها الشجاعة وتنظيمها المتناسك ما أهلها لتكون في مستوى ما تطلبه الطوارئ من مبادرة ومواجهة، وهكذا فما إن انكشفت مؤامرة خلع الملك الشرعي محمد بن يوسف طيب الله تراه حتى كان وطينو أبركان على استعداد لكل احتمال، وحسب رواية أحد الوطنيين البركانيين فإن "عضوين من المكتب المركزي لفرع الحزب بوجدة انتقلا إلى أبركان واجتمعا مع عضوين من المكتب المركزي لفرع الحزب في دار أحد الوطنيين كانت تدعى "دار الأرقم" حيث تمت بحضور أعضاء من مكتب الفرع بإبلاغ هذه التعاليم إلى كل فروع الحزب بالناحية (الركادة، مداغ، تافوغالت، وأحفير)". ومما جاء فيها "تجديد اليمين لجميع أفراد الجماعات الحزبية للتضحية والفداء والعمل على حل الجماعات الحزبية وتعويضها بخلايا سرية مكونة من 5 أفراد فقط، وألا يتعارف أفراد هذه الخلايا بعضهم على بعض، وفي حالة خلع جلالة الملك يجب القيام بالفوضى والثورة المسلحة وعدم انتظار الأوامر من أية جهة"¹⁶... وحسب نفس الرواية "فقد شنت الشرطة حملة اعتقالات في صفوف الوطنيين في المنطقة بسبب ضبط نسخة من هذه التعاليم كانت موجهة إلى فرع أبركان¹⁷، إلا أن هذا لم يمنع من توزيع مناشير تحذر بأن الملك في خطر، وتدعو إلى الحذر والتضحية بالدم من أجل الحرية والاستقلال، كما بادر أعضاء المكتب إلى تكوين عدة جماعات وخلايا صغيرة للعمل المسلح"¹⁸. وموازية مع هذا الإعداد قرر الاستقاليون قراءة اللطيف في المساجد بعد ظهر الجمعة 14 غشت، وهذا ما أثار حفيظة السلطة الاستعمارية فأقدمت على اعتقال مجموعة من أهم العناصر النشيطة في الحزب سواء داخل أبركان أو نواحيها فحشدت الجميع في ثكنة عسكرية.

16 - محمد الصفراوي - معي - حوار مباشر معه علاوة على مطبوع له حول أحداث 16 و 17 غشت 1953م غير مرقم الصفحات.

17 - نفس المرجع (بتصرف).

18 - نفس المرجع (بتصرف).

وهكذا إلى أن حل يوم 16 غشت لينتقل عضو من مكتب فرع أبركان إلى وجدة قصد الاطلاع على ما جد على الساحة والتشاور حول ما يمكن الإقدام عليه، فأبلغ " بأن مكتب فرع وجدة قد اتخذ قرارا منذ لحظات يقضي بتنظيم مظاهرة دامية ثورية مسلحة مساء يوم الأحد 16 غشت في الساعة السادسة، وقد فوجئ موفد أبركان بانفراد وجدة بهذا القرار لأنه كان من المتفق عليه سابقا أن يكون القرار موحدا وبحضور ممثلي فروع كل الجهات. وأمام الأمر الواقع لم يسع الموفد إلا الرجوع إلى أبركان وإبلاغ القرار لأعضاء المكتب الذين قرروا وتحت إكراهات الوقت والمسافة التي تفصل أبركان عن الفروع، "أن يكون التنسيق ما بين مكاتب الفروع كلها لتنظيم "مظاهرة ثورية" صباح يوم الاثنين 17 غشت 1953م في أبركان يشارك فيها جميع الوطنيين الاستقلاليين من داخل بركان وقرية تافوغالت ومن تريفة ومداغ وقبائل بني يزناسن ومن بني وريمش ومن بني موسى ومن بني عتيق وبني منقوش"¹⁹. كل ذلك تم حسب خطة مدروسة موقوتة التنفيذ، إذ ما إن طلعت شمس 17 غشت حتى غدت مدينة أبركان غاصة بالجماهير الشعبية التي حجت إليها من مختلف النواحي معلنة الثورة المسلحة، متحدية آليات القمع ومعرضة لسير العشرات من الدبابات والمصفحات التي غزت المدينة وانتشرت في شوارعها وأزقتها وفي سائر النقط الحساسة. كل هذا لم يزد " غضب المتظاهرين والثائرين " إلا تأججا وحدة واقتحاما لمواقع القوات الفرنسية رغم بساطة الأدوات التي كانوا يتوفرون عليها (عصي، هراوات، حجارة...) وحسب ما رواه أحد المشاركين في التظاهرة²⁰ فإن القوات لم تحرك ساكنا، إذ اكتفت بتهدئة المتظاهرين حيث تدخل كل من المراقب الفرنسي المدعو "بووير" الذي قال عليه الراوي بأنه من الفرنسيين الأحرار، وكان بصحبه القايد الحاج محمد المنصوري المعروف بوطنيته... وأخبر المتظاهرين أنها ضد خلع الملك، وأنها مع محمد بن يوسف الملك الشرعي الذي سيظل هو ملك البلاد، ولا بديل عنه... وما كان للمتظاهرين أمام هذا إلا الانصراف وبقاؤهم على الاستعداد لمواصلة العمل الفدائي والمقاومة المسلحة فيما إذا مس ملك البلاد²¹.

لكن ما لبثت القوات الفرنسية أن تلقت الأوامر بتطويق المدينة " ووضع حزام مانع يحول لجوء السكان إلى الغابات المجاورة، وأصبحت مدينة بركان خاضعة لحالة الطوارئ مورست في

19 - محمد الصفراوي - معي - حوار مباشر معه علاوة على مطبوع له حول أحداث 16 و 17 غشت 1953م غير مرقم الصفحات.

20 - نفس المرجع (بتصرف).

21 - نفس المرجع (بتصرف).

ظلها اعتقالات واسعة عشوائية استهدفت بالخصوص أطر فروع الحزب والمئات من المنتمين لحزب الاستقلال الذين ذاقوا أنواعا وأشكالا من التعذيب والتنكيل ما يعجز المرء عن وصفه، وبعدها أحيلوا على محاكم صورية حكمت على الأغلبية منهم بستين سجنا نافذة و 5 أعوام نفيًا وبغرامة مالية²². أما الوطنيون الذين نجوا من الاعتقال فمنهم من اضطر للعيش في سرية، وبعضهم فضل اللجوء إلى المنطقة الخليفية (الشمال المغربي)، حتى إذا حانت فرصة المقاومة المسلحة انخرطوا فيها، فبرز منهم قادة لخلايا المقاومة ولفرق جيش التحرير، عند تأسيسه في 02 أكتوبر 1954م، وحسب ما ذكر لحد الآن مشافهة أو كتابة، فإن أحداث 17 غشت لم تخلف قتلى لا في صفوف المواطنين ولا في صفوف القوات الأجنبية، ولعل هذا يعود إلى حكمة المسيرين الحزبيين الذين فضلوا أن تكون المظاهرة سلمية وموقوتة أي لها بداية ولها نهاية حسب ما رواه أحد المسيرين²³. ومن جهة أخرى إلى استفادة البركانيين من الأداء الوجداني لنفس الأحداث في 16 غشت والعامل من يتعظ.

ولابد من الإشارة في الأخير إلى أن يومي 16 و 17 غشت 1953م كانا يومين مشهودين في تاريخ المنطقة الشرقية حيث برهن فيها سكانها عن وطنيتهم وإخلاصهم لملك البلاد، وأظهروا للجميع مدى التضحية التي تبذل عندما يكون الأمر متعلقا بسيادة الوطن وكرامته - رحم الله الشهداء -

المحور الثالث : انعكاسات أحداث غشت 1953م وتداعياتها

بصرف النظر عن الاختلاف بشأن مجريات أحداث 16 غشت 1953م بوجدة بما في ذلك الأسماء التي أطلقت عليها، فإن الذي خلص إليه المتحدثون عنها - شفويا أو كتابة - هو أن إجماعهم على اعتبارها إحدى المفاخر التي يعتز بها ليس أهل وجدة وحدهم، بل وسكان الجهة الشرقية ومجموع الشعب المغربي، بل وكل المكافحين من أجل الاستقلال والتحرر، رغم ما نجم عنها من تداعيات.

- الانعكاسات:

تأتي أهمية أحداث غشت 1953م، وطنيا من أنها مناسبة برهنت على جدية وطنيي الجهة الشرقية واستعدادهم للوقوف ضد كل من يمس كرامتهم ورموزهم الوطنية. ودوليا من أنها بقدر ما خلدت بطولات مناضلي الحركة الوطنية وإقدامهم على الاستشهاد في سبيل الحرية والكرامة،

22 - محمد الصفراوي - معي - حوار مباشر معه علاوة على مطبوع له حول أحداث 16 و 17 غشت 1953م غير مرقم الصفحات.

23 - نفس المرجع (بتصرف).

بقدر ما فضحت أمام الرأي العام الخارجي ممارسات فرنسا غير القانونية وغير الإنسانية من خلال ما نتج عن التدخل الوحشي لقواتها من قتلى وجرحى، وما أعقب ذلك من قمع واعتقالات طالت حتى بعضا ممن لا علاقة لهم بـ "السياسة" كما يقال. ونضاليا: أن 16 غشت محطة أخرى رجحت رؤية دعاة الكفاح المسلح، وعززت شعار "لا يفل الحديد إلا الحديد" أو ما صار يعرف بشعار "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة". ودلالة: فقد عبرت أحداث غشت 1953 م عن مواجهة بين قيمتين غير متكافئتين من حيث العتاد، ولا من حيث الحمولة -الطوعية- لكل منهما، فبينما تمثلت الأولى في التضحية حتى الاستشهاد تجلت الثانية في غريزة الهيمنة والاستماتة للمحافظة عليها ولو باللجوء إلى استعمال آليات القهر والتدمير وما إلى ذلك من الأساليب والتدابير الخرقاء التي تجرمها المواثيق المقررة دوليا.

إن هذه المواجهة رغم نتائجها المؤسفة، أفرزت مجموعات من المواطنين الذين شهدوها ممن لم يطلهم ما طال كثيرا من الوطنيين، من استشهاد أو اعتقال، متأثرين بما عاينوه أو سمعوا عنه من بسالة المتظاهرين رجالا ونساء ورأوا كيف كان هؤلاء يتحدون ما يواجهون به من متاريس ورصاص وما كانوا يتعرضون له من بطش وضرب بأعقاب البندقيات والرشاشات، ويدهمون به من دبابات ومزنجرات. وكيف استمروا في المواجهة مخترقين الحواجز المبوثة في مداخل الأزقة والشوارع ومخارجها، ولولا الليل بظلامه، ولولا لجوء السلطة المحلية إلى إطفاء الإنارة العمومية، تاركة المدينة غارقة في الظلام، لما تمكنت القوات الفرنسية من تفريقهم ولما انسحبوا. وقد لاحظ هؤلاء ما تخلل المواجهة وما وقع بعدها مباشرة من إجراءات قمعية، ومن انتهاكات طالت وطنيين وعائلاتهم وجيرانهم، بل وما عاشته المدينة وضواحيها من حالة حصار وتعسف ومضايقات واعتقالات لم يسلم من أذاها حتى أشخاص لا ذنب لهم إلا أنهم يرتدون "أقمصة ذات لون أصفر" وهو اللون الذي أشارت تقارير رجال الأمن والاستخبارات إلى أن بعض المتظاهرين كانوا يرتدونها. أعود فأقول إن هؤلاء الذين لم تكتب لهم الشهادة في هذا اليوم، ونجوا من الاعتقال، لم يرضوا لأنفسهم أن يضعفوا أو يستكينوا بل رأوا من الوفاء لأرواح الشهداء ولإخوانهم المكдسين في زنازين السجون، أن يواصلوا أداء الرسالة التي ضحى من أجلها هؤلاء ومن سبقهم من رواد الكفاح ضد الغزاة والمحتلين الأجانب، لكن هذه المرة ليس بالمواجهات الاحتجاجية السلمية بل بما هو أجدى وأنجع، أي بالمقاومة المسلحة فكان من بين هؤلاء فدائيون بارزون، منهم من انخرط في جماعات مسلحة بشرق المغرب وفي وجدة بالخصوص، ومنهم من شارك في خلايا للمقاومة قامت

بأعمال فدائية في مدن مغربية أخرى كفاس والبيضاء، بل إن ضمنهم من كان له شرف وضع اللبنات الأولى لتأسيس جيش التحرير المغربي، وكم منهم من تعززت به الثورة الجزائرية، أو استمر مجاهدا من أجل تحرير الصحراء المغربية بعد الاستقلال.

وإذا كان لكل مواجهة - صغرت أو عظمت - تداعيات، فإن لمواجهة 16 و17 غشت 1953م تداعيات، وقد انعكست آثارها على مسار الحركة الوطنية عضويا وتنظيميا ونضاليا أيضا، ورغم ذلك، فإنها فندت زيف الأطروحة الفرنسية الاستعمارية، إذ كشفت مرة أخرى عن انتهاكاتها السافرة لكل القوانين سواء في مواجهتها الوحشية للتظاهرات السلمية، أو في مقاضاتها للمواطنين بعد ذلك، وإذا كان تقادم المواجهة، وندرة ما دون بشأن مجرياتها-ميدانيا- لم يسعفاني في الإلمام بملاساتها السياسية والقضائية، فإني وجدت ضالتي في مؤلف قيم لأحد الفرنسيين الأحرار Jean Charles Legrand بعنوان "Justice, patrie de l'homme" "العدالة، وطن الإنسان"، ففيه ستكشف عورات القضاء الاستعماري الفرنسي، من خلال الانتهاكات التي فضحها الماثلون أمام المحكمة، وكذا مرافعات الدفاع، ولكن قبل هذا أذكر ببعض ما جرى في هذا اليوم المشهود الذي كانت وقائعه مثار جدال بين الادعاء والدفاع. فقد بدأت المواجهة من المتظاهرين سلمية منضبطة اكتفى المشاركون فيها بترديد شعارات معادية للاستعمار وأعوانه، ومنذدة بعزم الحكومة الفرنسية على خلع السلطان محمد بن يوسف، ومعبرة عن مطالبه باستقلال الوطن، ورحيل المحتل الأجنبي، وقد تولى تأطيرها في البداية مناضلون من أطر فرع الحزب ممن دربوا على تنظيم وضبط الحركات الاحتجاجية، وكان أغلبهم من المسيرين، والشبان النشطين في منظماته الموازية، لاسيما في الحركات الكشفية. وكغيرها من التظاهرات الاحتجاجية، ما إن قطعت شوطا حتى انضم إليها "المتفرون" فرادى وزرافات ممن لم يكونوا منتظمين في صفوف الحركة الوطنية، وضمنهم عناصر استغلت هذه المناسبة لممارسة أعمال الشغب أو النهب والتخريب، صادرة من منحرفين ذوي النزعات المنحرفة، اعتقدوا أن هذه السلوكات تدخل في نطاق إحداث خلل في النظام العام يؤثر على السلطات القائمة. وبصرف النظر عن الدوافع، فإن قوات الأمن كعادتها استغلتها فرصة لتصعيد المواجهة، والقيام بردود أفعال شرسة انتقامية، فانفلت زمام المواجهة من سيطرة المحتج والمتصدي معا... المحتج الذي ليس لديه من وسائل الاحتجاج إلا الشعارات والهتافات والتفاف الجماهير حوله، والمتصدي الذي تسنده قوات مدربة على استعمال آليات الفتك والردع، ومعبأة نفسيا بشحنات فائقة من الكراهية والحقد العنصريين ضد الوطنيين المناهضين للوجود الأجنبي في بلادهم... وإذا أضيف إلى هذه

العوامل الدور الذي قام به من كان يطلق عليهم إذاك "شبكة الوجود الفرنسي" أو "اليد الحمراء"، وهم من عتاة المستوطنين الفرنسيين المالكين للضيعات والمؤسسات التجارية والصناعية والمالية الكبرى، لتبدي لنا لماذا تحول هذا العمل الاحتجاجي السلمي إلى "مذبحة" نجم عنها قتلى وجرحى فاق عددهم كل المتوقع، وكذا الأمر بالنسبة للاعتقالات المركزة والعشوائية. وإذا تعذر حصر عدد هؤلاء ومعرفة هوية الكثير منهم، وما ساد مدينة وجدة ونواحيها والمغرب عامة، من إجراءات قمعية فاقت ضراوتها كل تصور، فإن الذي لم تستطع الإدارة الاستعمارية حجبها عن الرأي العام، هو ما كان المعتقلون المحالون على المحاكم يصرحون به أمام القضاة، وما كانت هيئة المحكمة تسجله خلال استماعها لمرافعات الدفاع وشهادات الشهود.

حقا لقد استشهد أكثر من ألف متظاهر واختنق 14 معتقل في زنزانة مركز الشرطة وحوكم أكثر من هذا العدد حيث تراوحت الأحكام بين ستة أشهر وعامين من طرف السلطات المدنية في كل من وجدة وبركان، أما الذين أحيوا على المحكمة العسكرية فبلغوا 96 وطنيا صدرت في حقهم أحكام قاسية منهم ثمانية بالإعدام حضوريا، و 11 بالإعدام غيابيا، كما سبق ذكره، ولكن هذه التداعيات لم تؤثر على إيقاع المواجهة المسجلة بل ازدادت تحديا واستمرت المواجهة إلى أن عاد الملك الشرعي محمد بن يوسف إلى وطنه معززا مظفرا مرددا للآية الكريمة ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ صدق الله العظيم.

العلماء والملكية جدلية بناء المغرب المقاوم

ذ. سمير بوزويطة
أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية سايس - فاس

إن مهر الحرية غال وثمانين، وإن طريقها شاق وطويل، ولكنها أمنية كل شعب ورجاء كل أمة. وما من شعب نال حريته على طريق مفروشة بالورود، وكانت رحلته إليها نزهة يروح بها عن النفس، وإنما نالها على طريق وعرة محفوفة بالمخاطر والأشواك تجعل رحلته عليها مشاقا ومتاعب وجهادا. والشعب المغربي استطاع أن ينتزع حريته بالكفاح المرير، والنضال القاسي، خاض فيها بحارا من الدم، وقدم على مذبحها العديد من الشهداء، وكان في كفاحه صلب العود، شديد المراس، قوي الشكيمة حتى استطاع أن ينتزعها من أيدي عدو غاشم وخصم عنيد. وكان على رأس هذا الكفاح الملك محمد الخامس، وكان طرازا للملوك فريدا، وكان رمزا للكفاح ورمزا للتحرير ورمزا للوحدة. لقد أبى إلا أن يكون على ذروة النضال وقمة التضحية حتى ضحى بالعرش، واستعذب النفي، ولم يقصد به عن مناصرة شعبه ومؤازرة مواطنيه جاها ولا سلطانا. لقد كان محمد الخامس بطلا في حرب التحرير، قاوم السياسة الاستعمارية التي كانت تهدف إلى تشطير الشعب المغربي إلى بربر وعرب، وأضفى على المجاهدين ظل حمايته وتأييده على الرغم من أن الاستعمار الفرنسي حاول مرارا أن يصرفه عن تأييد الحركة الوطنية ومقاومة الحماية¹.

ولن تغفل ذاكرة التاريخ عن حدث 20 غشت 1953م، حين نفي الملك محمد الخامس إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر.

أجل إن ثورة الشعب المغربي أثبت أن تضع سلاحها المشروع وأن تحط رحال جهادها حتى تزول دولة الخونة والعملاء، وحتى يرجع محمد الخامس إلى عرش حمته جموع الشعب بالسلاح

1 - مصطفى فؤاد، محمد الخامس وكفاح المغرب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1960م. ص. 3.

وروته بالدماء. فعاد محمد الخامس ليقود شعبه في معركة البناء، كما قاده في معركة الاستقلال وحقق له السلم وخاض من أجله الحرب².

تركز هذه المقالة على المجهودات الكبرى التي بذلها المغرب شعبا وملكاً على امتداد عقود من الزمن، ليستعيد دولته ويشيد ذاته وهويته في عالم اشتدت فيه الصراعات، وطغت فيه علاقات القوى بين حضارات غير متكافئة على مستوى القدرات والإمكانات.

وقد ارتبطت هذه المجهودات في نظرنا بمحطات أساسية اتخذ المغرب في كل منها وجهاً متميزاً من دون أن يخل بثوابته الراسخة وقيمه الأصيلة. ونركز في هذه المقالة على محطة تمتد طيلة زمن الاحتلال (1912م-1956م)، وهي محطة إثبات الذات، حيث تموقع العلماء والملكية في خندق المقاومة، فكانت بحق مرحلة بناء المغرب المقاوم. لذلك نسعى إلى تقديم فهم للعلاقة الجدلية التي ربطت العلماء والملكية، من جهة ودورهما في صناعة تاريخ المقاومة والحركة الوطنية من جهة أخرى.

ساهم الاستعمار بشكل مباشر في الملمة التوجهات الكبرى للنخب التي ستخوض غمار تأطير المجتمع المغربي وتوجيهه في اتجاه معارك موازية للمعارك المباشرة، والتي لا تقل أهمية عن الثانية وقد تمثلت في:

- دحض الطروحات الفكرية التي روج لها المستعمر في ميادين التاريخ والأثروبولوجيا والإثنولوجيا لتبرير هيمنته وسيطرته، مدعياً عدم كفاءة المغربي على الخلق والإبداع والسمو إلى مرتبة الأمم المالكة لسبل ووسائل التحديث التقني والصناعي. ويمكن أن نقف على ذلك من خلال ما كان يكتب في مجلات رائدة مثل "مجلة المغرب".

- بلورة مفاهيم وقيم أعطت المناعة، في إطار ما سمي بالسلفية القومية، لتلاحم الشعب المغربي حول مشروع حضاري قوامه الحفاظ على دعائم الهوية الوطنية، واستيعاب مكتسبات التقدم الذي حققته مختلف الشعوب خلال القرنين الماضيين.

- بناء هياكل وتنظيمات سياسية وطنية قادرة على تحقيق هذه الأهداف وترجمتها إلى واقع ملموس يتجلى في التثبيت بالمؤسسات العريقة والارتقاء بالمجتمع المغربي إلى مكانة تؤهله للدفاع عن حقوقه في المنتظم الدولي بكل فعالية ومصداقية.

2 - مصطفى فؤاد، محمد الخامس... م. س، ص. 4.

وقد ترتب عن هذه المرحلة التي تداخل فيها عامل المقاومة وعنصر الالتزام الفكري وإرادة المبادرة السياسية، بروز وعي ملتهب بمغريبتنا وما تحظى به من خاصية متفردة.

وهكذا يمكن أن ننعت هذه المرحلة بمرحلة انبثاق الوعي بأهمية إثبات الهوية والذات. وخير دليل على ذلك ما نجده في كثير من الأدبيات التي صاغها المفكرون والعلماء المغاربة في تلك الفترة، والتي لا تركز فقط على مكونات الذات المغربية وما لها من خصوصية، وإنما أيضا على ضرورة التنصل من السلبات والمفاهيم الجامدة التي قد تسيء إلى الهوية في إطار نقد ذاتي كما هو الحال مثلا عند التهامي الوزاني (الزاوية) وعلال الفاسي (النقد الذاتي) ويحيى بن سليمان (نحن المغاربة) وعبد الله كنون (النبوغ المغربي)...³.

ولا ينسى العروي أن يلح على سنوات الضياع التي خسرها المغرب في مقاومة الاستعمار وفرص الرقي التي أهدرت زمن الدفاع عن الذات ومقاومة الاحتلال "أينما حل الاستعمار واستولى بكيفية أو بأخرى على مقاليد الحكم غير وجوده الجو الثقافي والنفساني المحيط بظهور أي مشروع إصلاحية نهضوي"⁴.

لقد أوقف الاستعمار المسيرة التاريخية للشعب المغربي وجعله عاجزا عن بناء ذاته وتأسيس قاعدة صلبة للتحرك إلى الأمام⁵.

وجد المجتمع المغربي نفسه وهو يواجه الاستعمار أمام أمرين: اللوذ بالتراث أو الانفتاح على الآخر المهيمن. وهنا يجد كل مثقف نفسه أمام مفترق الطرق: إما الذهاب في اتجاه الغرب الذي يمتلك الحداثة هو ذاته ذلك الغرب الاستعماري الإمبريالي، أو التثبت بالثقافة العربية. فأيهما أفضل: الاعتداب أو الاغتراب؟⁶

لا تقف المقالة عند حد سرد مواقف علماء فاس في ترسيخ مبدأ الدولة المغربية أولا، وقراءة فكر الممثلين لهذه الثقافة العالمية (الفقيه والداعية والعالم الليبرالي/ الأوروبياني) ثانيا، وإنما طرح سؤال:

3 - طنكول عبد الرحمن، ثقافة المواطنة والحكامة الجديدة بالمغرب، ندوة علمية، مغرب العهد الجديد، من قيم المقاومة إلى الحكامة الجديدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق، الرباط، 2009م. ص. 21.

4 - العروي عبد الله، "إرث النهضة وأزمة الراهن"، ضمن ندوة: عصر النهضة، مقدمات ليبرالية للحداثة، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2000م، ص. 280.

5 - الحراط محمد، تأويل التاريخ العربي عند بعض المفكرين المغاربة المعاصرين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2013م. ص. 241.

6 - الحراط محمد، تأويل التاريخ... م س، ص. 322.

العلاقة بين العلماء والملكية في إطار جدلية بناء المغرب المقاوم، وتقديم محاولة في فهم خصوصية المقاومة المغربية

نروم أكثر إلى إبراز عمق السؤال - عندنا - والمتمثل في بعض مظاهر ذلك الاختلاف في النتائج التي توصل إليها العروي في تأريخه للمغرب. ففي إثارته لموضوع علاقة الحاكم بالمحكوم، أكد العروي القطيعة الجلية بين السلطة والمجتمع في كتابه: تاريخ المغرب: محاولة تأليفية. ولكنه في كتابه: الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية، قدم صورة عن المجتمع المغربي في شكل نظام متناغم أساسه الجهاز المخزني. ولم تحصل القطيعة بين المخزن والأطراف - فيما ذكر - إلا بالتدخل الأجنبي حين كسر هذا الجهاز وقضى على ذلك التناغم⁷.

تحاول المقالة تقديم تصور يذهب في اتجاه التأكيد على استمرارية نظام التناغم بين السلطة والمجتمع، وعلماء فاس مثل باقي علماء المغرب الذين سهروا على ترسيخ الثواب المغربية ومن ضمنها التشبث بالأسرة العلوية الحاكمة والالتفاف حولها ولو حتى في أحلك اللحظات.

ألا يكفي الحديث عن دور العلماء في الحركة الوطنية لتجسيد حفاظ المجتمع المغربي على الثوابت الثلاث التالية: الدين والدولة والملك. وفي سياق هذا التصور نقارب جدلية بناء العلماء والملكية للمغرب المقاوم انطلاقاً من تفكيك طبيعة هذه الجدلية وتقديمها في إطار محاولة فهم خصوصية المقاومة المغربية:

• علماء فاس وجدلية الوعي بالذات وبالأخر

لم يحظ علماء ودعاة وفقهاء مدينة فاس بدورهم في الحركة الوطنية، إلا بالنزر القليل من الدراسة، وذلك على اعتبار أن الاهتمام الكبير انصب على التأريخ للمقاومة المسلحة (1912م-1934م) والحركة الوطنية (1934م-1956م). وفي السياق ذاته، وارتباطاً بموضوع المقالة، فإن الدراسات التي رصدت أصول الحركة الوطنية وامتداداتها، ركزت بالأساس على موقف نخب المدن من الحماية الفرنسية والإسبانية، وتصوراتها للإصلاح والتجديد. ولم تقف كثيراً على دور العلماء والخطباء والفقهاء في الحركة الوطنية واستمرار تشبثهم بموقف الممانعة منذ أن عبرت عن موقفها من صك الحماية إلى غاية نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف.

7 - الخراط محمد، تأويل التاريخ ... م س، ص. 326.

إذا كان قد طغى امتطاء الثورة اليائسة أو الاستسلام للقدر على مواقف أغلبية المغاربة من الحماية الفرنسية والإسبانية. ومن بين الاستثناءات التي حصلت في صفوف بعض نخب المدن وعي شريحة من تلك النخب بخصوصية المرحلة، وتشبثها بمبدأ "الإصلاح" طريقا لانتشال البلاد من وهبتها. وإذا كانت أهم المدن التي أفرزت هذه الشريحة هي تطوان وفاس والرباط وسلا⁸.

وإذا كانت هذه الشريحة من النخب قد شعرت بأن الحكم الوطني قد انهار وأن المستقبل مع السلطة الحامية، فإن بعضها قد احتفظت بمنصبها في ظل الوضع الجديد، فالتاريخ يعيد نفسه، بحيث إن النموذج الذي تقدمه لنا أحداث 1953م إنما هو صورة لنموذج 1912م⁹.

لقد تحدت معالم وعي علماء فاس بالذات وبالأحر، انطلاقا من التجليات التالية:

أ- تمثل علماء فاس للحماية الفرنسية

تصاعدت صلابة مواقف العلماء مع تصاعد حدة أطماع الأوربيين في المغرب لتصل مع مطلع القرن العشرين إلى الوضوح شبه التام، خصوصا ضد التدخل الفرنسي، فبرزوا كمدافعين عن البلاد، موضحين الأخطار التي تحدق بها، بحيث واجهوا على سبيل المثال مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، ودعوا علانية للجهاد، ومواجهة الاحتلال في أكثر من مناسبة¹⁰.

ولقد كان هناك تصور فقهي في نازلة الحماية استند أصحابه إلى استحضر كبير للمقاصد الشرعية، فلم تنسحب المقاصد الشرعية من تقديراتهم لميزان المصالح والمفاسد في المغرب، فبعدها أصبحت السيطرة الفرنسية أمرا واقعا، اختلفت مواقف العلماء والنخب المثقفة منها، فمنهم من رفض الحماية لأنها احتلال لأرض المغرب واغتصاب لسيادة السلطان، ومن ثم فهي استعباد للمغربي، يجب عليه المقاومة حتى يسترد حقه، ومنهم من اختار التعامل معها لأنها من الضرورات التي تغير الأحكام الشرعية فتنتقلها من العزائم الأصلية إلى الرخص الاستثنائية¹¹.

8 - الدفالي معروف محمد، أصول الحركة الوطنية بين السلفية الجديدة والسلفية الجديدة، منشورات أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، الطبعة الأولى 2014م. ص. 315.

9 - غلاب عبد الكريم، قصة المواجهة بين المغرب والغرب، دار الغرب الإسلامي، 2003م. صص. 228 - 229.

10 - معروف الدفالي، محمد، "القرويين والصراعات السياسية في المغرب الحماية"، أعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، تنسيق وتقديم محمد العيادي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1996م، ص. 92.

11 - كنون، عبد الله، معارك، مطبعة ديسبريس، تطوان، بدون تاريخ، ص. 22.

وقد عبر أحد العلماء في حوار له مع مراسل جريدة المانشستر كارديان، أن المغاربة بأجمعهم يرفضون الحماية رفضا باتا حيث إنهم "كلهم تقريبا يقولون نحن لا نريد حمايتكم لنا"¹²، وقال عالم آخر في جريدة الحق: "أما من جهة رأينا فإننا نعتبر معاهدة الحماية ملغاة لا عمل لها وذلك لكونها مخالفة لقواعد الحكومات الإسلامية من جهة، ولكونها لا تتفق مع ما أمرنا به الله في القرآن... يقولون الحماية؟ نرجو أن يخبرونا من أي شيء يريدون أن يحموننا؟ إن متاعبنا القليلة مع إسبانيا قد انتهت بسهولة سواء كان بالحرب أو بالطرق السلمية، وألمانيا في موقف الصفاء معنا وكذلك انكلترا، فالأمة الوحيدة التي نحن في حاجة إلى الاحتماء منها هي فرنسا. أما تلك المعاهدة التي أبرمت فإنها باطلة شرعا وإذا كان الله تعالى يريد أن يعاقبنا على خطايانا بأن نتخير إحدى اثنتين: أن نكون مستعمرة فرنسية أو أن يذهب ريحنا من الوجود فإن أكثرنا يفضل الأخرى، نفضل اللجنة على جهنم"¹³.

انخرطت جماعة العلماء بقوة في المشهد السياسي في بداية مغرب الحماية، وتطورت مواقفها بالتدرج من سلطات الحماية إلى أن وصلت إلى حد الإعلان عن انطلاق طور المواجهة، فكانت حقيقة أياما دامية كما نعتها الفرنسيون.

ب- علماء فاس في مواجهة سياسة التشطير، والوعي الشعبي

فجر ظهير 16 ماي 1930م شرارة احتجاجات شباب علماء القرويين ضد السياسة البربرية من زوايا جامعة القرويين، وبذلك تعرض "علماء الشباب" للحرمان من اعتلاء الكراسي العلمية لسنة 1932م¹⁴. لقد وجدت جماعة العلماء نفسها تلقائيا تركز على دور منابر المساجد باعتبارها أمكنة اللقاء اليومي وفضاء مناسباً للأخبار وترويجها.

هكذا شكل المسجد الإطار المرجعي لكل تحرك في غياب النوادي الشعبية. والدور التي لم تكن تسمح باستيعاب تجمع جماهيري بالشكل الذي يستطيعه المسجد. فأصبح المسجد وفق ذلك الفضاء الشعبي المفضل للعلماء من أجل تحريك الهمم وتقوية الممانعة، فرفع شعار اللطيف باعتباره إيذانا لتوحيد الصفوف وترصيصها، وتبشيرا بفشل سياسة التجزير الفرنسية¹⁵.

12 - "الشعب المستमित محال أن يموت، عالم مراكشي يقرر سلطة المراكشين"، جريدة الحق، عدد 10، 15 شتنبر 1912م.

13 - "الشعب المستमित محال أن يموت..."، جريدة الحق، ع 10، 15 شتنبر 1912م.

14 - الجندي أنور، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص. 141.

15 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء، ج الأول، مطبعة الرسالة، الرباط 1987م، ص. 61.

وكان أول من افتتح اللطيف الحاج "العربي بوعياذ" بمسجد القرويين في الرابع من يوليوز 1930م¹⁶، واستمرت التجمعات متوالية بالجامع. اشتد الحماس بالناس وبلغ أوجه، بعد أن خطب بجامع القرويين تحت الثريا الكبرى "عبد السلام بن إبراهيم الوزاني"¹⁷ خطبة بين فيها بعض مخاطر السياسة البربرية، داعيا الحاضرين إلى الدفاع عن الدين والشرعية، والتصريح برفض الظهير البربري عن طريق الانتقال إلى مواقف عملية والخروج جماعة من القرويين عبر سوق الشاعين نحو الضريح الإدريسي للتوسل وطلب اللطيف¹⁸.

وبالضريح الإدريسي خطب السيد محمد بن فاتح الصفرى، وما أن انتهت خطبته حتى خرج المتظاهرون منه إلى مسجد الرصيف¹⁹. وتوجهوا إلى منزل ابن الجيلالي بالدوح، بوصفه رئيسا للمجلس العلمي²⁰، للاحتجاج عليه وعلى موقف العلماء الصامتين إزاء هذا الحدث ومنه إلى المدرسة البوعنانية فدار الباشا ابن البغدادي.

وكانت طائفة من المتظاهرين قد ذهبت إلى دار الجنرال الفرنسي حاكم الناحية لإنزال الراية الفرنسية من الدار التي كانت ترفرف فيها، بل أرادت طائفة أخرى أن تغتال بعض الرهبان في مكان لهم قرب البطحاء، فكان دخول الناس إلى مسجد أبي عنان وأداء صلاة العصر به مهدئا للأعصاب مسترجعا للوعي والإدراك للذين فقدوا أعصابهم تحت تأثير الحماس²¹.

تمكن البغدادي باشا مدينة فاس من التحايل على المتظاهرين، وجمعهم داخل محكمة "دار بو علي"، وجلدهم وكان من بين الذين جلدهم محمد بن الحسن الوزاني، والحاج عبد الرحمن بن عبد الله، والسيد الهاشمي الفيلاي²².

16 - الحاج بو عياد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، لون آخر من نشاط الحركة الوطنية في الخارج، الطبعة الأولى 1979م، دار الطباعة الحديثة، ص. 14.

17 - نفسه، ص. 14.

18 - الدفالي محمد معروف، القرويين والصراعات السياسية في مغرب الحماية، محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، أعمال مجموعة من الأبحاث في التاريخ الديني، جامعة الحسن الثاني، عين الشق الدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، مطبعة فضالة المحمدية، ص. 105.

19 - الحاج بو عياد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، م، س، ص. 14.

20 - الحاج بو عياد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، م، س، ص. 14.

21 - العمراني عبد الحفي حسن، أبطال الوطنية عن حياة محمد بن حسن الوزاني، وتاريخ الحركة الوطنية، الكتاب الأول، الطبعة الأولى، 1996م، ص. 28.

22 - الحاج بو عياد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، م، س، صص. 14-15.

حاولت سلطات الحماية بشتى ما أوتيت من قوة إيقاف دور المساجد التحريضي والتعبوي والتأطيري، فبادرت إلى إغلاق بعض المساجد، وتطويق بعضها الآخر بفرقة الليفف الأجنبي²³، وبعد تأسيسها من إيقاف حركة اللطيف بفاس، قام الباشا البغدادي باستدعاء العلماء والأعيان وطلب منهم انتخاب وفد ليقدم المطالب للسلطان²⁴ واتفق الرأي على صياغة المطالب باسم المجتمعين في القرويين نيابة عن الشعب²⁵ وتكوين وفد في 23 من غشت 1930م على رأسه العالم عبد الرحمان بن القرشي الإمامي، توجه الوفد للرباط في 26 من غشت 1930م، فكان مكونا من العلامة عبد الواحد الفاسي، والعلامة عبد الرحمان بن القرشي، والسيد إدريس بن محمد الوزاني، والسيد الهادي بن المواز، والسيد محمد بن جلون، والسيد علال الفاسي، والسيد محمد بن الحسن الوزاني، والحاج عمر بن عبد الجليل، والسيد محمد الديوري²⁶، سافر الوفد إلى الرباط باستثناء السيد علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، بعد ما رفضت إدارة الشؤون الأهلية بفاس السماح لهما بالسفر مع الوفد بالرغم من أنهم من أعضائه المنتخبين²⁷ بدعوى مشاركتهما في المظاهرات التي اندلعت بفاس، بعد صدور ظهير 16 ماي 1930م. وقد تضامن معها الحاج عمر بن عبد الجليل²⁸. ولما حل الوفد بالرباط استقبله الناس بحفاوة، وأنزلوه في بيت خاص. حيث توافد عليه السكان للتهنئة وإعلان التضامن، ثم كان اللقاء مع السلطان في 27 غشت 1930م، بعدما استقبل سلفا من طرف الصدر الأعظم، فتحدث ابن القرشي للسلطان في موضوع السياسة البربرية التي عرفها لما كان وزيرا للعدل على عهد المولى يوسف، وكيف عارضها السلطان وحكومته، وكيف استقال من منصبه حتى لا يتحمل أوزارها كمسلم وعالم، ثم شرح مطالب فاس التي هي مطالب الأمة جمعاء²⁹، وتشدد المطالب في

23 - بوطالب عبد الهادي، ذكريات، شهادات ووجوه، م. س، ج الأول، منشورات الشركة السعودية للأبحاث والنشر. ص. 181.

24 - محمد عمراني، جامعة القرويين فيما بين 1914م-1934م، رسالة جامعية غير منشورة، كلية الآداب، الرباط، 1988م. ص. 312.

25 - الفلاحي عبد الكريم، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، الجزء الثامن، شركة ناس للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى. 2006. ص. 394.

26 - الحاج بو عياد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، م. س، ص. 20.

27 - الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الطبعة الخامسة مصححة 1993م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 167.

28 - البوزيد أحمد، "الجزور التاريخية لثورة الملك والشعب من خلال رحلتي فاس 1934م، وطنجة 1947م"، مجلة دعوة الحق، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد 390، غشت 2008م، ص. 45.

29 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد، م. س، الجزء الثالث، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، بيروت 1984م، ص. 99.

محملها على: نفوذ جلاله السلطان، وتثبيت سلطته الدينية والدينية، وخضوع المجتمع المغربي لقوانينه الإسلامية³⁰، وإطلاق سراح المعتقلين³¹.

لقد كانت جماعة العلماء واعية بأهمية التفاهة حول السلطان سيدي محمد بن يوسف باعتباره سيشكل ضمانه حقيقية لإنجاح مسيرة النضال والكفاح، وكان لقاء الرباط بداية تخندق السلطان في خندق المقاومة والحركة الوطنية. فما كان من السلطان إلا أن تجاوب مع الآمال التي جاء بها وفد أهل فاس³². وقد كتبت جريدة (Le cris marocain) مقالا جاء فيه، "كان لقاء الوفد المغربي بالسلطان بقاعة العرش بالرباط يكتسي مظهر جلال وروعة، قدم خلاله للسلطان رئيس الوفد ابن القرشي عرضا عن نوايا الحماية في موضوع السياسة البربرية التي كان يعرفها حق المعرفة عندما كان وزير العدل في حكومة والده المولى يوسف، حكومة المخزن احتجاجا عليها وتهربا من مسؤوليتها. تكلم الشيخ الوقور المهيب بما يفتت القلوب ألما، ولم يملك السلطان أن يجبس دموعه تأثرا بحديث الشيخ"³³.

بعد عودة الوفد إلى فاس في 30 من غشت 1930م استدعي العشرون شخصا المنتخبون ونقل لهم جواب الحضرة العالية، وهو الآتي "حيث قدمتم أصلحكم الله. سننظر في مطالبكم ولا يكون إلا الخير"³⁴.

تأكد العلماء أن سلطات الحماية تحول بينهم وبين السلطان، لذلك واصلوا حركة اللطيف³⁵. فتم على إثر ذلك اعتقال مجموعة من الوطنيين (علال الفاسي وعبد العزيز بو طالب ومحمد الدراوي³⁶ وعبد الرحمان بن القرشي ومحمد بن عبد السلام لخلو)³⁷.

30 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية من نهاية الحرب الريفية إلى إعلان الاستقلال، م. س، ج 1، ص. 75.

31 - محمد العمراني، جامعة القرويين فيما بين 1914م-1934م، رسالة جامعية غير منشورة، م. س، ص. 313.

32 - البوزيدي أحمد، "الجدور التاريخية لثورة الملك والشعب من خلال رحلتي فاس 1934، وطنجة 1947"، مجلة دعوة الحق، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد 390، غشت 2008م. ص. 46.

33 - بو طالب عبد الهادي، ذكريات، شهادات ووجوه، م. س، ج الأول، صص. 183-184.

34 - بوعباد الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، م. س، ص. 21.

35 - عمراني محمد، جامعة القرويين فيما بين 1914م-1934م. م. س، ص. 313.

36 - الدفالي معروف محمد، "القرويين والصراعات السياسية في المغرب الحماية"، م. س، ص. 110.

37 - بو طالب عبد الهادي، ذكريات، شهادات ووجوه، م. س، ج الأول، ص. 184.

وقد واجهت سلطات الحماية استراتيجية تحويل المساجد إلى منابر للوطنية، بالبحث عن البدائل القوية والمقنعة في مواجهة قوى المعارضة، فلجأت إلى الدسائس³⁸. وبالرغم من هذه الإجراءات، استمرت ونشطت حركة اللطيف باعتبارها أحد أشكال المقاومة السلمية التي نهجتها جماعة العلماء³⁹.

• علماء فاس وتأطير المقاومة

استغلت جماعة العلماء زيارة السلطان محمد بن يوسف لفاس في 8 ماي 1934م، لتهيئ المفاجأة لسلطات الحماية، إذ ستعتبر الزيارة انطلاقة للتعبير عن قدسية العلاقة بين القصر والشعب، فما إن ظهر السلطان حتى تعالت صيحات الجماهير هاتفة "عاش السلطان، عاش سيدي محمد، عاش المغرب، عاش الإسلام، ولتسقط فرنسا، فليحررنا الله، وليساعدنا السلطان"⁴⁰ وازدانت شوارع المدينة، ورفعت الأعلام الوطنية فوق أقواس النصر في طول المدينة وعرضها⁴¹. وتفاعلا مع الحدث بادر طلبة القرويين وعلماءها إلى استغلال الحدث، مناسبة وطنية يلتف حولها كافة أطراف الشعب المغربي، ويجعل منها الوطنيون منطلقا قويا للتعبير عن متانة الارتباط بالعرش العلوي⁴². ومنذئذ فرض على سلطات الحماية الاعتراف رسميا باحتفال عيد العرش. ولم تقف نضالات العلماء عند هذا الحد بل خططت ودبرت احتجاجات خارج أسوار مدينة فاس، ومنها احتجاجات مدينة الخميسات في شهر أكتوبر 1937م، أو ما عرف بثورة مدينة الخميسات:

أ- انتفاضة مدينة الخميسات (أكتوبر 1937م)

شهدت مدينة الخميسات في 22 أكتوبر 1937م، موجة من الاحتجاجات على سلطات الحماية، بعد مجيء أربعة طلاب شبان من القرويين خطبوا بمسجدها، محرضين المسلمين على مواجهة السياسة البربرية⁴³.

38- بوعياذ الحسن، الحركة الوطنية والظهير البربري، م. س، ص 489.

39 - هوينسطن وليام، الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول، تحت قيادة الجنرال نويس (1936م-1943م)، تعريب، بوطالب أبراهيم، منشورات كلية الآداب الرباط، 2002م. ص. 62.

40 - J. Ladreit de la charrière, «Les événements de Fès», *Revue l'Afrique française* ; année Mai 1934, N° 5, P. 267.

41 - بن سلامة عبد الرحيم، كفاح المغاربة من أجل الحرية والديمقراطية، مكتبة السلام، الرباط، الطبعة الأولى 2006م، ص. 153.

42 - Jalabert Louis, «Le nationalisme marocain» *Revue Etudes*, 87ème année, Tome 220, juillet - out-Septembre 1934, imprimerie j. Dumoulin, Paris 1934, P. 435.

43 - جوليان شارل أندري، إفريقيا الشمالية تسير، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة، سليم المنجي، المهيري الطيب، المقدم الصادق، زهير فتحي، الدار التونسية للنشر، 1976م، تونس. ص. 192.

وقد تم التعرف على مدبري الاحتجاجات، وتم نشر أسمائهم بجريدة (Le Courrier du Maroc) وهم: الطالب حمدون بن أحمد، طالب بمدرسة باب الكيسة، الطلبة أحمد بن الجيلالي الدكالي، ومحمد بنعمر، وهم من أصل زموري، وعقا بن شيان⁴⁴.

نجح مدبرو الاحتجاجات في حشد ثلاثمائة من المتظاهرين، حملوا علما أحمر كتب عليه بالخبر الأسود، "تحية الحرية، تحية الشريعة، يسقط العرف، يحيا السلطان"⁴⁵. وتوجهوا نحو مصلحة المراقبة المدنية، وفي طريقهم كانت جموع المتظاهرين تزداد كثافة بانضمام الشبان إليهم، وحينما تم إيقاف المتظاهرين خطب أحمد بن الجيلاني الدكالي في الجمع محرضا على رفض مخططات التشطير التي تستهدف الشعب المغربي قاطبة. واندلعت المواجهات مع فرقة الكوم ورجال الدرك، حيث بدأ المتظاهرون يرشقون القوات العسكرية بالحجارة وكان الرد عليهم بإطلاق الرصاص من أجل تفريقهم⁴⁶.

انتهت المواجهات باعتقال مجموعة من المتظاهرين⁴⁷، وجرح أربعة من المتظاهرين وسبعة من قوات الاحتلال، وطعن ضابط بطعنات خنجر، وتم اعتقال سبعة من المتظاهرين من بينهم الطلبة الأربعة⁴⁸، والذين انتزعت منهم الشرطة اعترافا مفاده أنهم قاموا بعملهم ذلك بأمر من علال الفاسي، وعمر بن عبد الجليل وأحمد مكوار ومحمد اليزيدي، الذين كانوا يعتبرون أهم قادة الحركة الوطنية⁴⁹، ثم سيق المتهمون في المساء إلى المحكمة التي أصدرت في حقهم أحكاما تراوحت ما بين 10 أيام و7 أشهر سجنًا، في حين حكم على الطلبة الأربعة بسنة، وتم نقل الجميع بعد إصدار الحكم إلى الرباط، تحت حراسة مشددة⁵⁰.

ب- علماء فاس وردود الفعل عن أحداث 1937م

كان نصيب علماء فاس من حملات التصفية والاعتقالات والتهجير والنفي كبيرا، حيث تعرضت هذه الجماعة على إثر إسهامها في تدبير أحداث الخميسات وتضامنها مع أحداث وادي

44 - «La gendarmerie de Fès arrête des étudiants instigateur de l'émeute de khémisset» ; *le courrier du Maroc* (Fès) ; N° 192, 14 Nov. 1937.

45 - Julien, Charles André, *Le Maroc le Maroc face aux impérialismes* (1415- 1956), Paris 1978. op. cit, P. 186.

46 - «Echo des événements de khmeissat dans la presse française» ; *le courrier du Maroc*, N° 3170, 24 octobre 1937, P. 1.

47 - «Les événements des Villes marocaines» *Le courrier du Maroc*, N° 3169, 23 oct. 1937, p. 1.

48 - جوليان شارل أندري، إفريقيا الشمالية تسير، م. س، ص. 193.

49 - العلمي محمد، علال الفاسي رائد الحركة الوطنية المغربية، مطبعة الرسالة، الرباط 1980م، ص. 78.

50 - «Les événements des Villes marocaines» *Le courrier du Maroc*, N° 3169, 23 oct. 1937, p 1.

بوفكران ومراكش، إلى شتى أنواع البطش والتعذيب... وعلى إثر ذلك أقيمت صلاة الغائب على أرواح الشهداء بمكناس وبني يازغة وغيرها⁵¹، وقد اجتمع الآلاف للصلاة على أرواح الشهداء في مسجد الرصيف والحرم الإدريسي، وقد كان سيل الوافدين، على مسجد الرصيف مدهشا فقد امتلأ المسجد ثلاث مرات بالناس اضطروا معها إلى تعدد الصلاة لكل قسم على حدة⁵²، وشهد مسجد القرويين صلوات احتجاج، بالخصوص عند الصلاة التي جمعت حوالي 20 ألفا من المصلين. وبعد هذه التظاهرة الدينية الضخمة وقع عدد من المصلين على عرائض تطالب بإطلاق سراح المعتقلين ومعاقبة المسؤولين على أحداث بوفكران وإجراء تحقيق في الموضوع⁵³.

انتهت أحداث شهر أكتوبر الدامية لسنة 1937م، باعتقال زعماء الحركة الوطنية وكثير من طلبة القرويين وعلمائها، وقد أصدرت محكمة برج النور برئاسة الباشا محمد التازي⁵⁴، أحكاما تراوحت بين ستة أشهر وستين سجنا، فالمحكومون بستين سجنا نافذة، وهم الهاشمي الفيلاي، عبد العزيز ابن إدريس، محمد القري، إدريس العلمي، المكي بن إدريس العمراني، إضافة إلى أربعة كانوا قد ألقوا خطبا في المساجد وهم بلهاشمي العلوي ومولاي علي الإدريسي ومحمد البلغيتي ومحمد البلغمي⁵⁵. وقد رحل المعتقلون بعد الحكم إلى سجن كلميمة (العالم القري)⁵⁶ و(حسن بوعباد) نفي إلى مصر، و(محمد بن الحسن الوزاني) نفي إلى الصحراء، و(علال الفاسي) نفي إلى الغابون⁵⁷.

لم يهدأ بال جماعة العلماء في تأطير السكان على اختلاف أطياهم، وركزوا كثيرا على استمرار حركات اللطيف في مساجد المدينة وكان لها دور كبير في تدبير مرحلة المطالبة بالاستقلال سنة

51 - «L'émeute sanglante de Meknès» L'écho du Maroc, N° 5383, 4/ 09/ 1937, P. 1-2./ «Les échos à Fès des événements de Meknès», Le Courrier du Maroc N° 3120, 4/09/1937, P. 7.

52 - الوزاني محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد، م.س، ج 5، ص 113؛ علال الفاسي، "الحركات الاستقلالية..." م.س، ص. 214.

53 - مخلف محمد، "انعكاسات أحداث بوفكران بمكناس على مدينة فاس ثاني شتنبر 1937م"، ندوة تاريخ المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى الجنوبية، 1908م-1955م، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1997، ص. 136.

54 - «Après mes incidents d'octobre, à Fez», Le petit marocain, 17 Novembre 1937, P.2.

55 - «Le jugement des animateurs des troubles de la semaine dernière», le courrier du Maroc, N 3183 du 6 novembre 1937, pp 1-4.

56 - «La vie à la Médina : La mort d'un des déportés des Troubles d'octobre», Le courrier du Maroc, N° 3222, du 15 décembre, 1937, p 4.

انظر كذلك، غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية... م.س، ص 219.

57 - بنيس عبد الحي، أقوى الأحداث التي طبعت تاريخ المغرب من 1900م إلى 2010م، دار الأمان، الرباط، ص 153. انظر العلمي محمد، علال الفاسي رائد الحركة الوطنية، ص. 78-79.

1944م، وفي هذا الصدد، نورد الأسماء التالية: عبد الرحمان ربيحة ومحمد الإدريسي، وعبد الوهاب الفاسي، ومحمد السعداني، وغيرهم⁵⁸.

تجدر الإشارة إلى أن أواخر الأربعينيات عرفت انتقال العمل السياسي إلى مدن وجهات مغربية أخرى، وهنا يطرح سؤال استمرار جماعة العلماء في المقاومة والحركة الوطنية، وبالتحديد نثير موقف هذه الجماعة من نفي السلطان محمد بن يوسف، واستبداله بابن عرفة.

ت- موقف علماء فاس من نفي السلطان محمد يوسف

نشدد في سياق مواقف جماعة العلماء من نفي السلطان محمد بن يوسف على جبهة من العلماء التي أبت إلا أن تواصل المقاومة حتى عودة بطل تحريرها السلطان المنفي، ونذكر أن الجماعة تعرضت قبل النفي إلى المضايقات والحبس والنفي، ففي سنة 1951م، أقدمت سلطات الحماية بفاس على توقيف خمسة من علماء القرويين بأمر من الجنرال جوان وهم:

أحمد الجايي وعبد الله الجاي ومحمد المستاري وإبراهيم ابن الحاج وعبد الكريم التواتي، وحبس العالم عبيد الفيلاي بتهمة تحريض التجار على إغلاق دكاكينهم يوم الجمعة، وفي الوقت ذاته تم اعتقال العالمين الفقيه العروسي والحسن العلوي، وحكم عليهما في المحكمة الباشاوية بخمسة عشر يوما بتهمة التعاطف مع القطر الليبي الذي كان قد حصل لتوه على الاستقلال⁵⁹. وتكررت الاعتقالات في صفوف العلماء، حيث اعتقل الخطيبان علال الجامعي خطيب مسجد فاس الجديد، وعبد الرحمان ربيحة، ووجهت لهما تهمة التحريض⁶⁰.

بادر الجنرال (لابارا) حاكم ناحية فاس إلى التوسط بين جماعة العلماء وسلطات الحماية من أجل حلحلة الوضع وطرح خارطة طريق، فدعا إلى عقد اجتماع بينه وبين المجلس العلمي بجامعة القرويين، بحضور باشا المدينة الفاطمي بن سليمان، يوم السبت 26 يناير 1952م لدراسة ملف اعتقالات:

58 - السلوي أبو عزام محمد، المقاومة والوجدان عن الشعب والذات، الطبعة الأولى، 1990م. صص. 31-32-33.
59 - "سلطات الحماية ما تفتأ تتدخل في شؤون الدين وتمتهن رجله" جريدة العلم، العدد 1670 بتاريخ 4 يناير 1952م، ص1. / "الدعوة لليبيا تستحق السجن"، جريدة العلم، عدد 1676، بتاريخ الخميس 10 يناير 1952م، ص1.
60 - "محكمة الاستئناف تقرر إطلاق سراح العالمين الأستاذين علال الجامعي وعبد الرحمن ربيحة"، جريدة العلم، عدد 1713 بتاريخ 16 فبراير 1952م، صص 1-4.

العلامة السيد عبد الواحد بن عبد الله وتوقيف علماء موظفين بجامعة القرويين، حيث التمس العلامة عضو المجلس العلمي الحاج العربي الحريشي من الجنرال لبارا التدخل لإرجاع هؤلاء المدرسين إلى رحاب الجامعة التي عرفت فراغا كبيرا⁶¹.

لم تغلح تلبية مطالب: إطلاق سراح المعتقلين (عبد الرحمان ربيحة، وعلال الجامعي)⁶²، وإرجاع الموقوفين إلى عملهم، في تلطيف الأجواء وإبعاد جماعة العلماء عن معترك الحركة الوطنية والمقاومة، كما أن حدث اغتيال النقابي التونسي فرحات حشاد على سبيل المثال لا الحصر، كان فرصة متجددة لتنشيط منابر المساجد⁶³. ومقابل هذه التحركات، عقدت سلطات الحماية " مؤتمر اتحاد الزوايا" بمدينة فاس سنة 1953م، تحت شعار محاربة الإلحاد والزندقة والأحزاب السياسية، والذي ترأسه العالم عبد الحفي الكتاني. وأصدر المؤتمر عريضة تندد بالحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال، وتشيد بسلطات الحماية التي اعتبرت حامية الإسلام⁶⁴. وكان الهدف من انعقاد هذا المؤتمر هو جمع أكبر عدد للتوقيع على عريضة خلع السلطان محمد بن يوسف⁶⁵ وهي العريضة المعروفة تاريخيا باسم عريضة 270، التي رفعها بعض الأعيان والباشاوات والقواد بزعامة الباشا التهامي الكلاوي إلى الإقامة العامة.

جاء رد علماء القرويين سريعا، حيث أصدروا فتوى شرعية ضد هذه العريضة، واعتبرت هذه الفتوى موقعي العريضة عصاة متمردين مفرقين لوحدة المسلمين وخائنين لعهد الله⁶⁶، كما رفعوا بركات إلى السلطان محمد بن يوسف يستنكرون فيها ما ورد في هذه العريضة ويعبرون عن تشبثهم بأواصر البيعة والولاء، معتبرين مؤامرة الكلاوي خيانة للوطن وارتدادا عن الإسلام⁶⁷، كما رفعوا نازلة هذه العريضة إلى علماء الأزهر الشريف الذين اجتمعوا مساء يوم الخميس 13 غشت 1953م في المسجد الكبير لجامعة الأزهر وأصدروا قرار التنديد الذي نشر في مختلف الجرائد المصرية⁶⁸.

61 - "حديث هيئة المجلس العلمي بجامعة القرويين مع الجنرال لبارا"، جريدة العلم، عدد 1695، بتاريخ 29 يناير 1952م. صص 1-4.

62 - "ابتهاج فاس بمقدم العالمين الجليلين علال الجامعي وعبد الرحمان ربيحة"، جريدة العلم، عدد 1720 بتاريخ 23 فبراير 1952م، ص. 4.

63 - «Journée calme à Fès» *Le courrier du Maroc*, N° 5251 du 13 décembre 1952, p. 1.

64 - رشيد عبد الله، كفاح المغاربة في سبيل الاستقلال والديمقراطية 1953م-1973م، الشركة الجديدة للمطابع المتحدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2004م، ص. 165.

65 - عسة أحمد، المعجزة المغربية، الطبعة الأولى 1974م، دار القلم للطباعة، ص. 271.

66 - عسة أحمد، المعجزة المغربية، م. س، ص. 271.

67 - العمراني عبد الحفي حسن، أبطال الحركة الوطنية، عن حياة محمد بن الحسن الوزاني وتاريخ الحركة الوطنية، الطبعة الأولى 1996م، ص. 235.

68 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب... الجزء الثاني، ص. 553.

كما عبر علماء فاس في برقية مماثلة لرئيس الجمهورية الفرنسية ولرئيس حكومتها ووزير خارجيتها عن غضب الشعب المغربي على الموقعين على العريضة طالبين اتخاذ تدابير إدارية ضد هؤلاء - الجبهة الأميون - الذين تأمروا على السلطان محمد بن يوسف، واقترح العلماء معاقبة جميع الذين نظموا وشجعوا أو مولوا هذه المؤامرة ضد سلامة المغرب⁶⁹.

وفي 21 غشت وبعد نفي السلطان بيوم واحد، سيق مجموعة من العلماء تحت التهديد بالسلاح في مدينة فاس للتوقيع على عقد بيعة محمد بن مولاي عرفة. وتم نفي علماء آخرين امتنعوا عن التوقيع أمثال شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي الذي رحل إلى تنزيت بتهمة تعلقه بحزب الاستقلال وبرفضه التوقيع على بيعة السلطان الجديد وبتهجماته العنيفة ضد الاستعمار الفرنسي بمساجد فاس، في أيام شهر رمضان⁷⁰.

شهد شهر نونبر من سنة 1953م انفجار ثورة عارمة همت جميع ربوع المملكة المغربية، وكان نصيب فاس منها كبيرا، حيث عاد العلماء إلى تأطير حركة اللطيف، وأقدم المقاومون في هذا اليوم على اغتيال إمام متعاون مع سلطات الحماية هو إدريس بن سودة إمام مسجد الرصيف⁷¹. لم تقف جماعة العلماء عند حد صلاة اللطيف بل عبرت عن مواقفها عبر الأشكال التالية:

• أشكال مواجهة علماء فاس نفي السلطان محمد بن يوسف

انتهج علماء فاس استراتيجية المواجهة السلمية، ولم يدخروا جهدا في جعل المساجد منابر للتأطير والتعبئة الشعبية، وقد وظفوا في سياق ذلك كل إمكانياتهم، سواء من جهة حلقات الدروس، أو من جهة نهج أسلوب العرائض.

أ- المواجهة السلمية (العرائض)

استغل العلماء الأحداث المروعة التي خلفتها مجموعة من المنظمات الفدائية بفاس⁷²، فطالب (أربعون عالما) برجوع العاهل الشرعي "محمد بن يوسف" إلى عرشه وقد وجهوا في هذا الشأن رسالة طويلة إلى المقيم العام، يصفون فيها الحالة الخطيرة التي يعيشها سكان المغرب منذ يوم 20 غشت 1953م، ويعبرون عن مخاوفهم تجاه هذه الحالة التي تزداد تازما يوما بعد يوم، واصفين الحالة

69 - «Les Ulémas d'el Azhar contre le Glaoui», *La dépêche marocaine*, N° 16796, de 15 aout 1953.

70 - الوردغي عبد الرحيم، المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية 1952م-1956م، الجزء الأول، المطبعة الجديدة- الرباط، الطبعة الثانية 1982، ص. 52.

71 - الوردغي عبد الرحيم، المقاومة المغربية... م. س، صص. 71-72.

72 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب... م. س، ج 2، ص. 457.

الدينية بالمغرب بعد المساس الذي أصاب العرش المغربي في شخص السلطان الشرعي محمد بن يوسف بالمزورية، خاصة بعد امتناع المغاربة عن تأدية صلواتهم يوم الجمعة في المساجد وأثناء الأعياد الدينية وكذلك التوجه إلى الديار المقدسة لتأدية فرائض الحج⁷³ ومن قولهم: "إن المسلمين المغاربة قد فقدوا كل الثقة في كل مسلم لم يعد يخلص لصاحب الجلالة" محمد بن يوسف "الذي اختاره الشعب بكامل الحرية". وفي ختام رسالتهم طلب العلماء من المقيم العام فرانسيس لاكوسط أن يبذل ما في وسعه لحل الأزمة المغربية الفرنسية في إطار الصداقة الحقيقية بين فرنسا والمغرب لضمان الأمن والاستقرار بهذا البلد⁷⁴.

وكان على رأس هذه التوقيعات أسماء علماء بارزين أمثال "عبد الله الداودي" و"أحمد العراقي" و"أحمد العمراني"، وهم أساتذة للأقسام العليا بجامعة القرويين⁷⁵.

وقد خلفت هذه العريضة ارتياحا قويا لدى المغاربة قاطبة وسكان فاس على وجه التحديد، إذ عبرت بقوة عن الروح الوطنية الصادقة، في حين استنكرتها سلطات الحماية واعتبرتها تمردا عليها⁷⁶. وكرد فعل على تقديم العريضة أمر بن عرفة باستدعاء بعض العلماء الموقعين للرسالة الموجهة إلى الإقامة العامة، والحضور إلى القصر السلطاني بالرباط، يوم 31 يوليوز 1954م، وكان من بين المدعوين، "ابن العباس جسوس" و"ابن العباس بناني" من فاس و"المحاجي" من وجدة، فأكد جميعهم أمام الصدر الأعظم الحاج "محمد المقرئ" ما ورد في رسالتهم بالموافقة على محتواها⁷⁷.

ومع اشتداد الخناق على علماء القرويين، لجأ الأربعون عالما عشية يوم الخميس 12 غشت 1954م إلى الاعتصام بالحرم الإدريسي⁷⁸.

ب- المواجهة السلمية (الاعتصام بالضريح الإدريسي)

"وبعد أداء صلاة الظهر، أقام المتظاهرون تجمعا ضم ما بين 200 إلى 300 شخص قرب ضريح مولاي إدريس، حيث أقيمت عدة خطب وتم رفع الأعلام المغربية وصور السلطان سيدي محمد بن

73 - الوردغي عبد الرحيم، المقاومة المغربية... م. س، ص. 101.

74 - نفسه، ص. 101.

75 - العلوي مصطفى، محمد الخامس، المناورات الأجنبية ضد السيادة المغربية، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، 1997م، ج5، ص. 457.

76 - "علماء الدين مترددون بين المطرقة والسندان"، جريدة القيامة العدد 101، صص. 1-5.

77 - "Les trois oulémas de l'université Karaouiyyne ont été reçus par S.E le grand Vizir" Maroc- presse, N 13844, 1er aout 1954. P.3.

78 - جبرو عبد اللطيف، إيكس لبيان ملفات وحقائق، مطابع إكسيل برنت، طبعة بدون تاريخ، ص. 24..

يوسف. وقد تفرق هذا الحشد بعد لحظات من تلقاء نفسه دون تدخل من الشرطة. كما قامت قوات الأمن خلال هذا اليوم باعتقال شخصين كانا يأمران التجار بإغلاق الدكاكين، وتم توقيف المدعو أحمد بن عبد العزيز برادة أثناء قيامه بجمع النقود من التجار لفائدة المحتاجين من المتظاهرين، وقد تمت العملية بدرب سيدي أحمد الشاوي. وفي السياق نفسه، أطلقت السلطات حملة للبحث عن عالمين من الموقعين على عريضة العلماء التي تطالب بإرجاع السلطان السابق. وقد تم نقلهم إلى الرباط من أجل مقابلة السلطان. ونتيجة انتشار خبر ذلك بالمدينة القديمة لجأ العديد من العلماء إلى الحرم الإدريسي لكي لا يتم اعتقالهم⁷⁹.

وبعد اتخاذ جميع الاحتياطات وتوزيع المهام، تم تنفيذ عملية اقتحام المدينة القديمة. فعلى الساعة الرابعة صباحا، دخلت كتائب الليفف الأجنبي الأربع عبر الأبواب الثمانية للمدينة القديمة وفق مخطط محكم ومسار حدد سلفا بواسطة علامات تم رسمها على الجدران بألوان مختلفة (أحمر، أخضر، أبيض)، تبعا للتنظيم التالي:

- الكتيبة الأولى ولجت عبر باب بوجلود وتوجهت إلى وسط المدينة القديمة عبر الطالعة الصغيرة
- الكتيبة الثانية دخلت المدينة عبر باب الكيسة وباب الجامعي
- الكتيبة الثالثة دخلت عبر باب الخوخة وباب الفتوح
- في حين دخلت الكتيبة الرابعة عبر باب الجديد وباب الباشا

وكانت كل كتيبة مرفقة بضابط للشؤون الأهلية ومراقب مدني. وأثناء تقدمها بالداخل كانت القوات المتدخلة تترك فرقا منها بمختلف النقاط الحساسة والإستراتيجية وملتقيات الأزقة والشوارع لمنع أي تحرك. وموازة مع هذا التقدم، تم تكليف الحرس الحضري ومقدمي الحارات بدعوة السكان بواسطة مكبري الصوت إلى الهدوء وعدم الخروج من منازلهم والتأكيد على سلامتهم إن هم التزموا بالتعليمات.

وفي اليوم التالي، بدأ الحديث عن نجاح عملية القبة البيضاء وتمكنها من تحقيق هدفها الأول المتمثل في احتلال المدينة عسكريا دون إطلاق أية رصاصة أو تسجيل أي اشتباك⁸⁰.

79 - "Le calme a régné hier à Fès, Deux Oulémas convoqués par S.M. Le Sultan", *Maroc-Presse*, 13856 du Vendredi 13août 1954, p.2.

80 - "Vaste opération de contrôle en Médina de Fès", *Maroc-presse*, n° 13859 du 16 août 1954, p. 2.

استيقظت المدينة القديمة في مناخ من المفاجأة المدهشة، حيث عاشت خلال المساء حادثة غير متوقعة. إن العلماء الذين اعتصموا بداخل الحرم الإدريسي وهم ينتظرون قرارات الحكومة الفرنسية، فوجئوا بمجيء فرقتين مسلمتين من الحرس الأسود للسلطان محمد بن عرفة. كلفت الفرقتين بنقل العلماء المعتصمين إلى القصر السلطاني. فتم نقلهم بواسطة حافلات في اتجاه الرباط، باستثناء ثلاثة تم نقلهم إلى المستشفى نظرا لكبر سنهم ولتدهور حالتهم الصحية. وعمل الفريق الثاني من الحرس الأسود على إخراج باقي المعتصمين من الحرم الإدريسي وتقديمهم لمحكمة الباشا، وقد تسرب خبر محاكمة اثنين، أحدهما حكم بستين نافذتين، والآخر بثلاثة أشهر.

إن ثمانية وستين عالما الذين أُلقي عليهم القبض، نقلوا إلى الرباط في اتجاه القصر على متن حافلات تحت حراسة الحرس الأسود، ووصلوا إلى الرباط على الساعة العاشرة صباحا، وتم إسكانهم بمدرسة للاعاشة التي توجد داخل القصر، وعلى الساعة الحادية عشرة والنصف تكلفت فرقة الحرس الشريف بإعاشتهم وبعد ذلك استقبلهم السيد الكرودوي الكاتب الخاص للسلطان. وذلك في انتظار استقبالهم من طرف السلطان أو الصدر الأعظم يوم السبت 21 غشت⁸¹.

وبعد أيام بادر العلماء المعتصمون بتوجيه بلاغ إلى الصحافة والإذاعةذكروا فيه أنهم لم يكرهوا على رفع عريضة 25 يوليوز 1954م ولم يتعرضوا لأية ضغوطات من أية جهة كانت، وإنما قاموا بذلك في إطار المهمة الملقاة على عاتقهم والتمثلة في تبليغ رغبات الناس والإفصاح عنها لدى الدوائر المختصة، مؤكداً أنهم سيظلون داخل الحرم إلى حين الاستجابة لمطالبهم⁸².

ولمواجهة الموقف، وجهت سلطات الحماية جيشا لمحاصرة الضريح الإدريسي وقطعت عنهم الطعام⁸³. فلم تكن تسمح لهم إلا بكأس من الحليب لكل واحد منهم، كل ذلك لإجبارهم على التراجع عن العريضة التي أصدروها والمطالبة بعودة السلطان الشرعي محمد بن يوسف، والاستقلال. وقد امتد الحصار إلى المدينة بأكملها، فعزلت المدينة القديمة عن المدينة الجديدة، مخافة أن تسرب إليها المظاهرات، وقد اعتقل في وقت الحصار هذا نحو ألفي مواطن لاتهامهم بالعمل الوطني⁸⁴.

81 - "Les Ouléma réfugiés dans le Horm de Moulay Idriss sont transférés à Rabat", *Maroc-presse*, n° 13862 du 19 août 1954, pp.1-2.

82 - الفرخ جواد، فاس في مواجهة الاستعمار الفرنسي (1953م-1955م)، دراسة في التنظيمات الفدائية وأشكال المقاومة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2012م، ص 248.

83 - العمراني عبد الحي حسن، المغرب السياسي، جائزة المغرب لسنة 1968م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2005م، ص 348.

84 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، ج 2، م. س، ص. 624.

وفي اليوم الرابع للاعتصام والذي صادف يوم الأربعاء 18 غشت، سيتم انتهاك حرمة ضريح مولاي إدريس على الساعة الثالثة صباحا، بعدما لم يجد الحصار شيئا، حيث دخلت الجيوش بحضور خليفة باشا فاس بو بكر التازي ومقدم الحرم، وألقت القبض على جميع المعتصمين الذين كانوا بداخل الضريح الإدريسي بمن فيهم الأربعين عالما، وبذلك تم فض اعتصام العلماء دون تسجيل أية حادثة⁸⁵.

وقد سيق هؤلاء إلى مفوضية الشرطة بالنجارين بفاس، وأخذ كل جندي يقبض على كل واحد بخصوصه لينقلوهم جميعا إلى باب عجيسة، حيث أعدت سيارات كبيرة لنقلهم إلى مكان لم يكن معروفا لأحد وقتئذ، ولكنه تبين بعد ذلك أن سلطات الحماية غيرت رأيها وقررت نقلهم إلى العاصمة الرباط⁸⁶. وفي تغطيتها للحدث أشارت جريدة ماروك بريس Maroc Presse إلى أن العلماء الذين أخرجوا من الحرم الإدريسي وصلوا إلى العاصمة الإدارية الرباط على الساعة العاشرة صباحا، وثم إسكانهم بمدرسة للاعائشة في انتظار استقبالهم من طرف محمد بن عرفة أو الصدر الأعظم يوم السبت 21 غشت⁸⁷.

حظي موضوع اعتقال العلماء وإخراجهم بقوة السلاح من الحرم الإدريسي باهتمام الأوساط الفرنسية، فقد انضمت على إثر هذا الحادث أصوات من داخل فرنسا إلى بعض الأوساط المغربية المنددة بانتهاك حرمة الضريح الإدريسي واعتقال العلماء المعتصمين به، من مثل اللجنة المسيحية للوفاق الفرنسي الإسلامي التي حثت في بلاغ لها موقف العلماء، وقع من طرف لويس ماسينيون Louis Massignon وجون سيل Jean scelles وهو الموقف ذاته الذي سارت عليه لجنة فرنسا المغرب العربي التي أشارت إلى الخطورة الكبيرة لاختطاف الأربعين عالما الذين عبروا عن موقف شجاع يستحق الاحترام لصالح السلطان الشرعي محمد بن يوسف مؤكدة أن عملية الاختطاف التي تمت باتفاق مع السلطات الفرنسية، تعد تصرفا غير مقبول وانتهاكا خطيرا للتقاليد الدينية⁸⁸.

على إثر موجات الانتقادات سواء داخل المغرب أو خارجه والموجهة ضد سلطات الحماية، عقب إقدامها على انتهاك حرمت المساجد والتضييق على العلماء، تقرر إطلاق سراح بقية العلماء

85 - Houilliom Christian , «40 oulémas de Fès sont conduits à Rabat», *le courrier du Maroc*, N 6062 du 16 aout 1954, pp.1-4 ; «De nouvelles arrestations à Fès», *Maroc presse*, N° 2014, 17 aout 1954, pp. 1-2.

86 - العمراني عبد الحي بنيس، المغرب السياسي...، م. س، ص. 348.

87 - «Les oulémas réfugiés dans le de Moulay Idriss sont transférés à Rabat» *Maroc presse*, N° 2016, 19 aout 1954, pp. 1-2.

88 - DE PERTTI André , L'indépendance du Maroc et la France 1946- 1956, mémoires et témoignages Edité par le haut commissariat de libération Royaume du Maroc, imprimerie des éditions KaWatar, 2006, p. 403.

الذين لم يوقعوا على رسالة الاعتذار لابن عرفة وذلك في يوم 18 شتنبر من سنة 1954م حيث أرجعوا إلى فاس، وبعد ما تم سماع إفادتهم من جديد بالمحكمة أطلق سراحهم⁸⁹.

لقد تبين من قضية العلماء هذه أن البيعة التي أكره بعض العلماء على إمضائها لابن عرفة باطلة، وأن علماء فاس كانوا في مقدمة المناضلين من أجل الاستقلال⁹⁰.

ورغم التنكيل والتهجير والترحيل والقتل، استمر علماء فاس في تأطير وتوجيه العمل الوطني خلال سنة 1955م، خاصة مع بداية تفكير الحكومة الفرنسية ومعها سلطات الإقامة العامة في إرجاع محمد بن يوسف إلى المغرب. وفي هذا السياق بادر المقيم العام جليبير كرانفال Gilbert Grandval يوم 17 غشت 1955م إلى استدعاء تسعة علماء من مدينة فاس (عبد الرحمان العراقي، عبد العزيز بلخياط، جواد الصقلي، العربي الشامي، محمد بن الحسن لمrani الزرهوني إضافة إلى هؤلاء العلماء أساتذة السلك الثانوي العالي للقرويين وهم: حماد العراقي، عبد الوهاب الوافي مفتش جامعة القرويين الحاج محمد بن عثمان الشامي، وكاتب المجلس العلمي لجامعة القرويين عبد القادر بن شقرون) للتداول في شأن الوضع المغربي ومستجداته، وقد عبر العلماء للمقيم العام أن استمرار الوضع كما هو لمن شأنه أن يزيد من حدة العنف، مشددين على ضرورة تسريع عملية تسوية مشكل العرش واشتراك الممثلين الحقيقيين للشعب المغربي في النقاش الدائر حول القضية المغربية والحفاظ على أواصر الصداقة الفرنسية مع مملكة المغرب⁹¹.

لقد شكل نفي محمد الخامس بداية الطريق لاستقلال المغرب، وبالفعل انتهت قصة ملك ضحى بالتاج... فعاد إلى وطنه على عرش القلوب... وعاد من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وفي الإطار نفسه تشدد هذه المقالة على بعث الذاكرة الوطنية ومحاولة التأكيد على استمرارية الوعي بقيمتها، في تصحيح مسيرة الحاضر وبناء المستقبل على أساس وعي وطني، وإضاءة طريق المستقبل بأنوار الفترة المشرقة من الماضي، حتى لا تبقى الفترات الكالحة من الماضي هي التي تتحكم في الحاضر وترسم طريق المستقبل، لعل النابيين والمفكرين سياسيا واجتماعيا وديمقراطيا يلحظون ذلك ويعتبرون⁹².

89 - الجارري عبد الله، بطل التحرير محمد الخامس، م س ص. 347.

90 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية...، ج2، م. س، ص. 624. / التازي عبد الهادي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها، المعماري والفكري، المجلد الثالث، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة أولى 1972م، ص. 772.

91 - «Oulémas de Fès ont été reçus par M. Grandval», le courrier du Maroc, N° 6427 du 18 aout 1955.pp 1-2.

92 - غلاب عبد الكريم، قصة المواجهة... م س، ص. 231.

ردود فعل المغاربة على إبعاد السلطان ابن يوسف والسير نحو إنهاء نظام الحماية بالمغرب

ذ. محمد نعيم
أستاذ باحث، الجديدة

أقدمت فرنسا على إحكام قبضتها على المغرب منذ سنة 1331هـ/1912م مستعينة ببعض الرموز الدينية والقوى السياسية التقليدية من باشوات وقواد. ومنذ ذلك الحين أضحت بمثابة الحاكم الفعلي للبلاد وبدأت تتصرف بشكل أحادي وتتخذ قرارات انفرادية، اعتبرتها نافعة للإيالة المغربية. غير أن هذا الشكل من الإدارة المباشرة أحدث توترات وأزمات بين سلطات الإقامة العامة ذات النزعة الاستعمارية وبين سلطان البلاد الرفض بشكل مطلق وتلقائي لهذا الأسلوب من الإدارة. وقد تبلور هذا الرفض في عدة مناسبات، تزامن ذلك، وبشكل جلي، إبان الخمسينات بفعل توحيد الجهد والتنسيق الواضح بين تيار الحركة الوطنية وأنشطة السلطان محمد بن يوسف، مما جعل الإقامة العامة تتخذ عدة إجراءات انتهت بخلع السلطان عن عرشه، مما فجر غضب المجتمع المغربي، على الصعيد الشعبي والسياسي، الأمر الذي انعكس على الوجود الفرنسي بالمغرب، مما أدى إلى الدخول في مفاوضات تمخض عنها عودة السلطان إلى عرشه واعتراف فرنسا باستقلال المغرب.

1- عوامل إقدام فرنسا على نفي السلطان محمد بن يوسف:

منذ خطاب طنجة 1367هـ/1947م وتكسير السلطان للحدود الوهمية التي صنعتها معاهدة الحماية لسنة 1912م مستغلا الظرفية الدولية بانشغال فرنسا بنتائج الحرب العالمية الثانية، تبين لهذه الأخيرة أن محمد بن يوسف أضحى يشكل خطرا على سياستها، وأنه لا ينظر بعين الرضا لمجرى العلاقات المغربية الفرنسية، ويصمم على مقاومة الاستعمار بشتى الوسائل والسبل لضمان احترام سيادة البلاد ووحدة ترابها. في غضون ذلك عزلت فرنسا مقيمها العام بالمغرب إيريك لابون (Erick Labonne) (مارس 1946م - ماي 1947م) وعينت مكانه في شهر ماي من السنة نفسها مقيما عسكريا هو الجنرال ألفونز جوان (Alphonse Juin) (ماي 1947م - شتنبر 1951م) الذي كان مزودا بتعليمات

من طرف حكومته مفادها حماية الوجود الاستعماري في المغرب وإجبار السلطان على اتباع مخططات سلطات الحماية والقضاء على الحركة الوطنية. وأمام تزايد الضغوط وتوالي التهديدات الفرنسية قام السلطان برحلة إلى باريس في أكتوبر سنة 1950م قدم خلالها مذكرة لحكومة فرنسا أدان فيها الإدارة المباشرة وألح على مطلب تحقيق الاستقلال والتحرر السياسي وإقامة تعاون بين المغرب وفرنسا على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

ويبدو أن خطاب العرش المؤرخ ب 18 نونبر 1952م، جعل الإقامة العامة تستوعب التقدم الواضح في لهجة السلطان التصاعدية تجاه فرنسا خاصة عندما شبه الحماية بقميص قصير جعل لصبي شب وترعرع، ولم يعد القميص صالحا له، أي أن نظام الحماية لم يعد يستجيب لرغبات المجتمع المغربي الذي يسعى إلى التحرر السياسي، وتزامن هذا الخطاب وذلك التشبيه مع رفض السلطان مشروع الإصلاحات الفرنسية الهادفة إلى التقليل من سيادة المغرب وصلاحيات سلطانه، وتوقيع الظهائر التي تتنافى مع نصوص الحماية واتهامه ب "العجز عن القيام بالمصالح" ومسايرة رجال الحركة الوطنية والعطف عليهم، و "السير في طريق مخالف للقواعد الدينية بانتمائه للأحزاب المتطرفة غير المعترف بها، وتطبيق مبادئها في البلاد".¹

ويظهر، أن صمود السلطان جعل ممثلي فرنسا في المغرب، يفكرون في خطة لمجابهة قرارات السلطان الجريئة والوضع الذي أوشك على الانفلات منهم، وقد تلخصت هذه الخطة في التفكير في عزل السلطان ونفيه، فعولت في هذا الشأن على عبد الحفي الكتاني بصفته ممثلا للطرق الصوفية والباشا التهامي الكلاوي بصفته ممثلا للسلطة السياسية، فجمعا يوم 18 مارس 1953م توقعات 20 قائدا، حينها اقتنعت الإقامة العامة بأن مؤامرة العزل أصبحت مهيأة، فباشرت تحركاتها لتسريع وتيرة هذا القرار. وفي 21 ماي من السنة نفسها أعد الرجلين ومن وافقهما في مسعاهما عريضة جديدة ضد السلطان، عليها 287 إمضاء، أطلق أصحابها على أنفسهم "رجال حركة المعارضة والإصلاح" اتهموا فيها السلطان بالخروج "عن جميع العهود الدينية، والمواثيق الإسلامية المحمولة معها، وبالسير في طريق مخالف للقواعد الدينية"². وفي شهر يوليوز 1953م رفع السلطان مذكرة احتجاجية إلى

1 - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، ج.3، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، بيروت، 1984م، ص 343.
- Jean GANIAGE, Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours, Librairie Arthème Fayard, France, 1994, P.542.

2 - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، ج.3، ص 343.
- جريدة السعادة، ليوم 1953/8/21م. ويومي 23- 1953/8/24م.

الحكومة الفرنسية دان من خلالها تورط الإقامة العامة وعملائها في التآمر على العرش، وأبدى رغبته في الوصول إلى اتفاق مع فرنسا في مختلف المشاكل التي يفرضها تطور المغاربة، والحرص على حفظ السيادة المغربية، مؤكداً أن ذلك لا يمكن أن ينجز في جو تشوبه الدسائس والأهواء الطاغية³، لكن الإقامة العامة لم تبال بمضامين المذكرة فتم تبليغ السلطان بواسطة المقيم العام الجنرال كيوم يوم 18 غشت 1953م أنه "صدر في شأنه تدبير يقضي بإبعاده، وقد اتخذ هذا التدبير باتفاق مع الحكومة الفرنسية لحماية العرش من العواقب الخطيرة الناجمة عن حركة المعارضة المتزايدة القوة ضد شخصية جلالته"⁴، بل إن أحد قياد تارودانت ويدعى مالك بن الحسن سجد أمام الشيخ عبد الحي الكتاني ونطق ببيعته وخلع بيعة محمد بن يوسف⁵.

أما في المنطقة الخليفية فقد جدد رجالها من الوطنيين البيعة للسلطان في أبريل سنة 1953م كرد فعل على عرائض وملتمسات العملاء من طرقيين وباشوات وقواد المتعاونين مع سلطات الحماية في المنطقة الإسبانية، وفي هذا الشأن وقع 156 فرداً من أعيان وشرفاء ومثقفين ومناضلي ورموز المنطقة وثيقة تجديد البيعة. ويروى أن محمد بن العربي العلوي، أحد رموز السلفية الوطنية في المنطقة السلطانية، رفض التوقيع على خلع محمد بن يوسف معللاً رفضه بما يلي: "أحب إلي أن تقطع هذه اليد من أن أوقع على بيعة رجل نصبه الاستعمار، وأخلع رجلاً أحبه الشعب لأنه أحب الشعب..."⁶، وأفتى بقتل ابن عرفة شرعاً⁷. مستدلاً بحديث شريف يقول "إذا بويع أمير ثم خرج

3 - عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج. 11، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2002م، ص 260، 262.

4 - جريدة السعادة، العدد 8843، ليوم 24 غشت 1953م. وإليك نص البلاغ:

"إن حركة المعارضة التي عبرت في الأسابيع الأخيرة عن رأي الباشوات والقواد والرؤساء الدينيين وأعيان المملكة الشريفة قد أبانت عن خلافات عميقة بين السلطان والأمة المغربية عن الجهود التي بذلتها الحكومة الفرنسية تطميناً للأفكار وقصد الوصول إلى الحصول على اتفاق، فإن توتر الحالة بين ممثلي سكان البلاد وبين الملك الجالس على العرش بلغت أقصى درجة في الخطورة. وظهر حينئذ أن إبعاد سيدي محمد بن يوسف هو الوسيلة الوحيدة التي تساعد لصون البلاد من خطر الشقاق واسترجاع النفوذ التقليدي للسلطان وذلك بإعادة الهدوء والطمأنينة للنفوس.

وقد اجتمع المخزن الشريف يومه تحت رئاستي وتبين له أن سيدي محمد بن يوسف أصبح لا يستطيع القيام بواجبات الملك المسندة إليه، فقرر الاعتراف بتوافق مع الحكومة الفرنسية بسيدي محمد بن عرفة سلطاناً وحيداً شرعياً على المملكة المغربية الشريفة لوقوع اختيار الأمة المغربية عليه.

نرجو الله أن يؤيد جلاله سيدنا أعزه الله وأن يوفقه لما فيه صلاح الدين وسعادة البلاد، ونطلب من سكان المغرب أن ينظروا إلى المستقبل بكل ثقة ورجاء بفضل ما تتصف به جلالته من السامية والأخلاق العالية".

5 - جريدة الوداد، العدد 305، ليوم 19 غشت 1953م.

6 - عبد الكريم غلاب، الماهدون.. الخالدون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991م، ص 17.

7 - عبد القادر الصحراري، شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت.، ص 73.

عليه أمير، فاقطعوا رأس الذي خرج، ومن بايع الثاني فقد كفر"، وكان مصيره وثمان صراحتة أن نفي إلى تزنيت عام 1953م.

وإلى ذلك، أقدم خليفة الجنرال جوان، المقيم العام الجنرال أوغستان كيوم (Augustin Guillaume) (شتبر 1951م - ماي 1954م)، بمباركة زعيم الطرق الصوفية عبد الحي الكتاني⁸ وباشا مراكش التهامي الكلاوي⁹ على خلع السلطان ظهر يوم 20 غشت 1953م. وورد على لسان بعض الفرنسيين في تقاريرهم السرية للحكومة الفرنسية "إن إبعاد السلطان محمد الخامس سيتيح لفرنسا 50 عاما من الهدوء والسلام في المغرب، تستطيع أثناءها أن تفعل ما تشاء دون أن تخشى خطرا"¹⁰ بينما اعتبرت حركة المعارضة والإصلاح هذا العزل تتويجا للجهود التي بذلها زعماءها في سبيل ذلك. ومن ثم بدأت تفكر في خطوات التنسيق بينها وبين الإقامة العامة، وأضحى لحدث النفي حضور قوي في محطات كثيرة من محطات الخصومة بينهم وبين رجال الحركة الوطنية.

وبالفعل فقد تم نفي السلطان وتم تنصيب ابن عمه محمد بن عرفة (1886م-1976م) الذي وجدته فرنسا أداة طيعة في يدها فبدأت تستصدر منه الرسائل والظواهر التي رفض توقيعها محمد بن يوسف من قبل¹¹، كما تدخلت لدى الدول الأخرى الممثلة في طنجة للاعتراف بسلطانه على المغرب. وقد فضحت هذه المؤامرة النوايا الحقيقية للسياسة الاستعمارية والتي تجاوزت الاحتلال العسكري والإداري والاستغلال الاقتصادي، إلى الاستغلال السياسي وتمزيق وحدة البلاد والمس برأس هرم البلاد، ظنا منهم، حسب المنطق الفرنسي أنها السبيل الأقرب لقهر الحركة الوطنية واستسلام المقاومة

8 - قام عبد الحي الكتاني بدور ملحوظ ومؤثر في استمالة المغاربة إلى صفه، وكانت سلطات الإقامة العامة تعول عليه في كثير من المهام مثل تنفيذ الأوامر، واستخلاص الضرائب والفروض، والاستخبار عن أحوال القبائل والبلاد، وتحرك الوطنيين المغاربة، وقاد حركة خفية ضد السلطان محمد بن يوسف منذ سنة 1948م، بتوزيع نشرات سرية بمعية الكولونيل لوكونت من موظفي دار الاعتماد.

9 - ذكر روم لاندو أن هذين الرجلين كانا منبوذين من قبل المخزن، وإذا ما استطاعا اختيار السلطان فقد يصبحان القوة الرئيسية القائمة خلف العرش، وكانا يعرفان أنه في حالة استبدال السلطان فإنهما لن يخسرا شيئا، وقد يربحان كل شيء. ومن ثم اقتسما مجالات النشاط تبعاً لمجال نفوذهما في حياة البلاد: فبينما كان على الكتاني أن يعبئ الطرق الدينية، كان على الكلاوي أن يقوم بحملته بين قواد القبائل والعناصر الثائرة التي كانت من قبل نواة بلاد السبية.

- روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1963م، ص 376، 380.

10 - دعوة الحق، العدد 4، السنة 1975م، ص 124.

11 - بلغ عدد الظواهر التي وقع عليها محمد بن عرفة في الفترة ما بين شتبر ودجنبر 1953م خمسة وثلاثون ظهيرا.

- "حقائق حول مال ومآل بن عرفة"، جريدة الأيام، عدد 260، أيام 23-26 دجنبر 2006، ص 7.

نفسيا ومعنويا واستتباب الأمن وصنع مغرب جديد. لكن السلطان، وهو في منفاه في مدغشقر أو كورسيكا، ظل يحث الوطنيين على الصمود أمام المناورات الفرنسية، وحسبنا علما النداء الذي أذيع من صوت العرب بالقاهرة يوم 18 نونبر 1953م والذي تضمن تحريضه للمجتمع المغربي قاطبة على الصمود في وجه العدو، ومما جاء في هذا النداء "... وبمناسبة الذكرى السعيدة لجلوسنا على عرش أسلافنا، هذه الذكرى التي لا تماطل أبدا بالإعراب عن ولائك وإخلاصك ومحبتك لنا. نوجه إليك نداءنا لنطالبك بمتابعة الكفاح ومضاعفة الجهود والوفاء لله والعمل على تحقيق جميع آمالك ألا وهي الحرية والكرامة والمجد. وهذا ما يدفعنا للصبر والثبات في نفينا خارج الوطن في بلد أجنبي وجزيرة نائية مبعدين عنك ومجبرين على عدم الاشتراك معك في تحرير البلاد..."¹².

ولا شك أن هذا النداء أسهم في إذكاء حماس المغاربة الذين ظلوا يعتبرون محمد بن يوسف "رمزا لمطامحهم المشروعة في الحرية والاستقلال، وإلغاء عقد الحماية المشؤوم الذي هو أصل كل بلاء"¹³، أما عبد الحى الكتاني فقد صرح بعد خلع السلطان مباشرة "شكرا للنصر الذي أحرزناه مؤخرا، إذ ستجني البلاد بسببه ثمار السلم والهدوء والسعادة"¹⁴. لكن تلك المؤامرة، أي عزل السلطان ونفيه وتثاقل الإدارة في الاستجابة لنداءات عودة السلطان، أبانت عن تلاحم كبير بين المغاربة بالتصدي لها بأشكال مختلفة من المقاومة والنضال.

2- من أشكال ردود فعل المغاربة إزاء إبعاد السلطان الشرعي للمغرب:

1-2- تضامن المجتمع والحركة الوطنية مع السلطان المنفي:

اعتبر محمد بن العربي العلوي أن نفي جلالة السلطان "عجل بإيقاظ الوعي السياسي في الشعب المغربي بشكل لم يكن ليصل إليه إلا بعد عشرين سنة"¹⁵. ذلك أن ردود الفعل للمغاربة تجاه هذا الإجراء لم تتأخر، إذ فجر هذا الحادث غضب المجتمع المغربي وتجلّى ذلك في انطلاق العمليات

12 - عبد الرحيم الوردغي، المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية: 1952م-1956م، ط. 2، الرباط، 1982م، ص 73.

13 - القيادة العليا لحركة المقاومة السرية بالمغرب، "بيان حركة المقاومة السرية بالمغرب"، جريدة الأمة، عدد 186، ليوم 1 أبريل 1954م، ص 1.

14 - روم لاندو، تاريخ المغرب، ص 416.

15 - السي ابن سلام، "ولاذ الفدائي بالفرار"، الشهاب، عدد 302، ليوم 10 أبريل 1955م، ص 2.

الفدائية، السرية والعلنية¹⁶، سواء ضد الأشخاص أم ضد الممتلكات، حيث تعرض قصر الكلاوي بمراكش لمحاولة إحراق¹⁷، وتعرض ابن عرفة لمحاولات الاغتيال والتصفية منذ الأيام الأولى بعد النفي، في 21 غشت بالرباط و28 غشت بمكناس و4 شتنبر بفاس¹⁸، ولعل أشهر تلك المحاولات وأبرزها على الإطلاق هي التي كانت يوم 11 شتنبر 1953م، حينما داهم علال بن عبد الله موكب ابن عرفة وحاول طعنه، لكن طلقات نارية من الفرنسيين أردته قتيلا، وفي هذا الصدد أنشد عبد الملك البلغيثي ما يلي:

ما كان لي قبل (عالل) الفتى أمل	✽	في الشعب حتى حسبت الكل نسانا
لكنه عندما دوى بخنجره	✽	يوم العروبة حتى هز أركاننا
أيقنت أنا على أبواب معركة	✽	فيها نذك للاستعمار بنيانا
عالل من ذكر الناسين أن لنا	✽	من البطولة في تاريخنا شانا
عالل من ذكر الطاغين أن لنا	✽	من الشهامة مجدا عز سلطانا
عالل من قال للباغين أن هنا	✽	شعبا يجرع الاستعمار ذيفانا
أيقنت بعدك (يا عالل) أن لنا	✽	عزما يحرر من ذا العار أوطانا
وإن عاهلنا لا بد مرتجع	✽	بالرغم عمن طغوا في القطر طغيانا
(محمد الخامس) المنصور سيدنا	✽	من لم يجد فيه الاستعمار إذعانا
وسوف نلقى جموع الشامتين بنا	✽	يوما وقد لبسوا ذلا وخسرانا
في ذمة الله، يا عالل، أول من	✽	قد سل خنجره في وجه من خاننا ¹⁹

16 - من أشهر المنظمات الفدائية السرية: اليد السوداء، والهلال الأسود، وأنصار محمد الخامس، واليد المتوكلية على الله، وأسود التحرير وأبطال الحرية.

ومن الفرق الفدائية المسلحة ذات النشاط المحلي والإقليمي: فرقة التحرير بأكادير، وشعبة ابن يوسف بالرباط وسلا، وشعبة حومة الجزاء بالرباط، وحركة المقاومة بالخميسات، والمنظمة السرية للمقاومة بعدة مدن، ومنظمة وجدة، وفرقة المقاومة تاحناوت، وخلية محمد بن الرازي السلاوي بفاس، ومنظمة البقال بمراكش. راجع تفاصيل أكثر عن هذه المنظمات والفرق الفدائية عند:

- أحمد زيادي، الاتجاهات الوطنية في الشتر المغربي الحديث في عهد الحماية (1912م-1956م)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 475-479.

17 - زين العابدين العلوي، "المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، ج.3، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2009م، ص 310.

18 - العربي الصقلي، أحمد خشيطن، جمال الناجي، المقاومة في طور التنظيم، مذكرات من التراث المغربي، ج.7، ص 17.

19 - عبد الملك البلغيثي، ديوان راح الأرواح، مطبعة السلام، فاس، 1984م، ص 20.

وفي اليوم الرابع للاعتصام والذي صادف يوم الأربعاء 18 غشت، سيتم انتهاك حرمة ضريح مولاي إدريس على الساعة الثالثة صباحا، بعدما لم يجد الحصار شيئا، حيث دخلت الجيوش بحضور خليفة باشا فاس بو بكر التازي ومقدم الحرم، وألقت القبض على جميع المعتصمين الذين كانوا بداخل الضريح الإدريسي بمن فيهم الأربعين عالما، وبذلك تم فض اعتصام العلماء دون تسجيل أية حادثة⁸⁵.

وقد سيق هؤلاء إلى مفوضية الشرطة بالنجارين بفاس، وأخذ كل جندي يقبض على كل واحد بخصوصه لينقلوهم جميعا إلى باب عجيسة، حيث أعدت سيارات كبيرة لنقلهم إلى مكان لم يكن معروفا لأحد وقتئذ، ولكنه تبين بعد ذلك أن سلطات الحماية غيرت رأيها وقررت نقلهم إلى العاصمة الرباط⁸⁶. وفي تغطيتها للحدث أشارت جريدة ماروك بريس Maroc Presse إلى أن العلماء الذين أخرجوا من الحرم الإدريسي وصلوا إلى العاصمة الإدارية الرباط على الساعة العاشرة صباحا، وثم إسكانهم بمدرسة للاعاشة في انتظار استقبالهم من طرف محمد بن عرفة أو الصدر الأعظم يوم السبت 21 غشت⁸⁷.

حظي موضوع اعتقال العلماء وإخراجهم بقوة السلاح من الحرم الإدريسي باهتمام الأوساط الفرنسية، فقد انضمت على إثر هذا الحادث أصوات من داخل فرنسا إلى بعض الأوساط المغربية المنددة بانتهاك حرمة الضريح الإدريسي واعتقال العلماء المعتصمين به، من مثل اللجنة المسيحية للوفاق الفرنسي الإسلامي التي حيت في بلاغ لها موقف العلماء، وقع من طرف لويس ماسينيون Louis Massignon وجون سيل Jean scelles وهو الموقف ذاته الذي سارت عليه لجنة فرنسا المغرب العربي التي أشارت إلى الخطورة الكبيرة لاختطاف الأربعين عالما الذين عبروا عن موقف شجاع يستحق الاحترام لصالح السلطان الشرعي محمد بن يوسف مؤكدة أن عملية الاختطاف التي تمت باتفاق مع السلطات الفرنسية، تعد تصرفا غير مقبول وانتهاكا خطيرا للتقاليد الدينية⁸⁸.

على إثر موجات الانتقادات سواء داخل المغرب أو خارجه والموجهة ضد سلطات الحماية، عقب إقدامها على انتهاك حرمت المساجد والتضييق على العلماء، تقرر إطلاق سراح بقية العلماء

85 - Houilliom Christian , «40 oulémas de Fès sont conduits à Rabat», *le courrier du Maroc*, N 6062 du 16 aout 1954, pp.1-4 ; «De nouvelles arrestations à Fès», *Maroc presse*, N° 2014, 17 aout 1954, pp. 1-2.

86 - العمراني عبد الحي بنيس، المغرب السياسي...، م. س، ص. 348.

87 - «Les oulémas réfugiés dans le de Moulay Idriss sont transférés à Rabat» *Maroc presse*, N° 2016, 19 aout 1954, pp. 1-2.

88 - DE PERTTI André , *L'indépendance du Maroc et la France 1946- 1956, mémoires et témoignages* Edité par le haut commissariat de libération Royaume du Maroc, imprimerie des éditions KaWatar, 2006, p. 403.

الذين لم يوقعوا على رسالة الاعتذار لابن عرفة وذلك في يوم 18 شتنبر من سنة 1954م حيث أرجعوا إلى فاس، وبعد ما تم سماع إفادتهم من جديد بالمحكمة أطلق سراحهم⁸⁹.

لقد تبين من قضية العلماء هذه أن البيعة التي أكره بعض العلماء على إمضائها لابن عرفة باطلة، وأن علماء فاس كانوا في مقدمة المناضلين من أجل الاستقلال⁹⁰.

ورغم التنكيل والتهجير والترحيل والقتل، استمر علماء فاس في تأطير وتوجيه العمل الوطني خلال سنة 1955م، خاصة مع بداية تفكير الحكومة الفرنسية ومعها سلطات الإقامة العامة في إرجاع محمد بن يوسف إلى المغرب. وفي هذا السياق بادر المقيم العام جليبر كرانفال Gilbert Grandval يوم 17 غشت 1955م إلى استدعاء تسعة علماء من مدينة فاس (عبد الرحمان العراقي، عبد العزيز بلخياط، جواد الصقلي، العربي الشامي، محمد بن الحسن لمrani الزرهوني إضافة إلى هؤلاء العلماء أساتذة السلك الثانوي العالي للقرويين وهم: حماد العراقي، عبد الوهاب الوافي مفتش جامعة القرويين الحاج محمد بن عثمان الشامي، وكاتب المجلس العلمي لجامعة القرويين عبد القادر بن شقرون) للتداول في شأن الوضع المغربي ومستجداته، وقد عبر العلماء للمقيم العام أن استمرار الوضع كما هو لمن شأنه أن يزيد من حدة العنف، مشددين على ضرورة تسريع عملية تسوية مشكل العرش واشتراك الممثلين الحقيقيين للشعب المغربي في النقاش الدائر حول القضية المغربية والحفاظ على أواصر الصداقة الفرنسية مع مملكة المغرب⁹¹.

لقد شكل نفي محمد الخامس بداية الطريق لاستقلال المغرب، وبالفعل انتهت قصة ملك ضحى بالتاج... فعاد إلى وطنه على عرش القلوب... وعاد من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وفي الإطار نفسه تشدد هذه المقالة على بعث الذاكرة الوطنية ومحاولة التأكيد على استمرارية الوعي بقيمتها، في تصحيح مسيرة الحاضر وبناء المستقبل على أساس وعي وطني، وإضاءة طريق المستقبل بأنوار الفترة المشرقة من الماضي، حتى لا تبقى الفترات الكالحة من الماضي هي التي تتحكم في الحاضر وترسم طريق المستقبل، لعل النابهين والمفكرين سياسيا واجتماعيا وديمقراطيا يلحظون ذلك ويعتبرون⁹².

89 - الجارري عبد الله، بطل التحرير محمد الخامس، م س ص. 347.

90 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية...، ج2، م. س، ص. 624. / التازي عبد الهادي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها، المعماري والفكري، المجلد الثالث، دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة أولى 1972م، ص. 772.

91 - «Oulémas de Fès ont été reçus par M. Grandval», le courrier du Maroc, N° 6427 du 18 aout 1955.pp 1-2.

92 - غلاب عبد الكريم، قصة المواجهة... م س، ص. 231.

ردود فعل المغاربة على إبعاد السلطان ابن يوسف والسير نحو إنهاء نظام الحماية بالمغرب

د. محمد نعيم
أستاذ باحث، الجديدة

أقدمت فرنسا على إحكام قبضتها على المغرب منذ سنة 1331هـ/1912م مستعينة ببعض الرموز الدينية والقوى السياسية التقليدية من باشوات وقواد. ومنذ ذلك الحين أضحت بمثابة الحاكم الفعلي للبلاد وبدأت تتصرف بشكل أحادي وتتخذ قرارات انفرادية، اعتبرتها نافعة للإيالة المغربية. غير أن هذا الشكل من الإدارة المباشرة أحدث توترات وأزمات بين سلطات الإقامة العامة ذات النزعة الاستعمارية وبين سلطان البلاد الرافض بشكل مطلق وتلقائي لهذا الأسلوب من الإدارة. وقد تبلور هذا الرفض في عدة مناسبات، تزامن ذلك، وبشكل جلي، إبان الخمسينات بفعل توحيد الجهد والتنسيق الواضح بين تيار الحركة الوطنية وأنشطة السلطان محمد بن يوسف، مما جعل الإقامة العامة تتخذ عدة إجراءات انتهت بخلع السلطان عن عرشه، مما فجر غضب المجتمع المغربي، على الصعيد الشعبي والسياسي، الأمر الذي انعكس على الوجود الفرنسي بالمغرب، مما أدى إلى الدخول في مفاوضات تمخض عنها عودة السلطان إلى عرشه واعتراف فرنسا باستقلال المغرب.

1- عوامل إقدام فرنسا على نفي السلطان محمد بن يوسف:

منذ خطاب طنجة 1367هـ/1947م وتكسير السلطان للحدود الوهمية التي صنعتها معاهدة الحماية لسنة 1912م مستغلا الظرفية الدولية بانشغال فرنسا بنتائج الحرب العالمية الثانية، تبين لهذه الأخيرة أن محمد بن يوسف أصبح يشكل خطرا على سياستها، وأنه لا ينظر بعين الرضا لمجرى العلاقات المغربية الفرنسية، ويصمم على مقاومة الاستعمار بشتى الوسائل والسبل لضمان احترام سيادة البلاد ووحدة ترابها. في غضون ذلك عزلت فرنسا مقيمها العام بالمغرب إيريك لابون (Erick Labonne) (مارس 1946م - ماي 1947م) وعينت مكانه في شهر ماي من السنة نفسها مقيما عسكريا هو الجنرال ألفونز جوان (Alphonse Juin) (ماي 1947م - شتنبر 1951م) الذي كان مزودا بتعليمات

من طرف حكومته مفادها حماية الوجود الاستعماري في المغرب وإجبار السلطان على اتباع مخططات سلطات الحماية والقضاء على الحركة الوطنية. وأمام تزايد الضغوط وتوالي التهديدات الفرنسية قام السلطان برحلة إلى باريس في أكتوبر سنة 1950م قدم خلالها مذكرة لحكومة فرنسا أدان فيها الإدارة المباشرة وألح على مطلب تحقيق الاستقلال والتحرر السياسي وإقامة تعاون بين المغرب وفرنسا على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

ويبدو أن خطاب العرش المؤرخ ب 18 نونبر 1952م، جعل الإقامة العامة تستوعب التقدم الواضح في لهجة السلطان التصاعدية تجاه فرنسا خاصة عندما شبه الحماية بقميص قصير جعل لصبي شب وترعرع، ولم يعد القميص صالحا له، أي أن نظام الحماية لم يعد يستجيب لرغبات المجتمع المغربي الذي يسعى إلى التحرر السياسي، وتزامن هذا الخطاب وذلك التشبيه مع رفض السلطان مشروع الإصلاحات الفرنسية الهادفة إلى التقليل من سيادة المغرب وصلاحيات سلطانه، وتوقيع الظهائر التي تتنافى مع نصوص الحماية واتهامه ب "العجز عن القيام بالمصالح" ومسايرة رجال الحركة الوطنية والعطف عليهم، و "السير في طريق مخالف للقواعد الدينية بانتماؤه للأحزاب المتطرفة غير المعترف بها، وتطبيق مبادئها في البلاد".

ويظهر، أن صمود السلطان جعل ممثلي فرنسا في المغرب، يفكرون في خطة لمجابهة قرارات السلطان الجريئة والوضع الذي أوشك على الانفلات منهم، وقد تلخصت هذه الخطة في التفكير في عزل السلطان ونفيه، فعولت في هذا الشأن على عبد الحى الكتاني بصفته ممثلا للطرق الصوفية والباشا التهامي الكلاوي بصفته ممثلا للسلطة السياسية، فجمعا يوم 18 مارس 1953م توقيعات 20 قائدا، حينها اقتنعت الإقامة العامة بأن مؤامرة العزل أصبحت مهيأة، فباشرت تحركاتها لتسريع وتيرة هذا القرار. وفي 21 ماي من السنة نفسها أعد الرجلين ومن وافقهما في مسعاها عريضة جديدة ضد السلطان، عليها 287 إمضاء، أطلق أصحابها على أنفسهم "رجال حركة المعارضة والإصلاح" اتهموا فيها السلطان بالخروج "عن جميع العهود الدينية، والمواثيق الإسلامية المحمولة معها، وبالسير في طريق مخالف للقواعد الدينية"². وفي شهر يوليوز 1953م رفع السلطان مذكرة احتجاجية إلى

1 - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، ج.3، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، بيروت، 1984م، ص 343.
- Jean GANIAGE, Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours, Librairie Arthème Fayard, France, 1994, P.542.

2 - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، ج.3، ص 343.
- جريدة السعادة، ليوم 1953/8/21م. ويومي 23- 1953/8/24م.

الحكومة الفرنسية دان من خلالها تورط الإقامة العامة وعملائها في التآمر على العرش، وأبدى رغبته في الوصول إلى اتفاق مع فرنسا في مختلف المشاكل التي يفرضها تطور المغاربة، والحرص على حفظ السيادة المغربية، مؤكداً أن ذلك لا يمكن أن ينجز في جو تشوبه الدسائس والأهواء الطاغية³، لكن الإقامة العامة لم تبال بمضامين المذكرة فتم تبليغ السلطان بواسطة المقيم العام الجنرال كيوم يوم 18 غشت 1953م أنه "صدر في شأنه تدبير يقضي بإبعاده، وقد اتخذ هذا التدبير باتفاق مع الحكومة الفرنسية لحماية العرش من العواقب الخطيرة الناجمة عن حركة المعارضة المتزايدة القوة ضد شخصية جلالته"⁴، بل إن أحد قياد تارودانت ويدعى مالك بن لحسن سجد أمام الشيخ عبد الحفي الكتاني ونطق ببيعته وخلع بيعة محمد بن يوسف⁵.

أما في المنطقة الخليفية فقد جدد رجالها من الوطنيين البيعة للسلطان في أبريل سنة 1953م كرد فعل على عرائض وملتمسات العملاء من طرقيين وباشوات وقواد المتعاونين مع سلطات الحماية في المنطقة الإسبانية، وفي هذا الشأن وقع 156 فرداً من أعيان وشرفاء ومثقفين ومناضلي ورموز المنطقة وثيقة تجديد البيعة. ويروى أن محمد بن العربي العلوي، أحد رموز السلفية الوطنية في المنطقة السلطانية، رفض التوقيع على خلع محمد بن يوسف معللاً رفضه بما يلي: "أحب إلي أن تقطع هذه اليد من أن أوقع على بيعة رجل نصبه الاستعمار، وأخلع رجلاً أحبه الشعب لأنه أحب الشعب..."⁶، وأفتى بقتل ابن عرفة شرعاً⁷. مستدلاً بحديث شريف يقول "إذا بويع أمير ثم خرج

3 - عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج. 11، شركة ناس للطباعة، القاهرة، 2002م، ص 260، 262.

4 - جريدة السعادة، العدد 8843، ليوم 24 غشت 1953م. وإليك نص البلاغ:

"إن حركة المعارضة التي عبرت في الأسابيع الأخيرة عن رأي الباشوات والقواد والرؤساء الدينيين وأعيان المملكة الشريفة قد أبانت عن خلافات عميقة بين السلطان والأمة المغربية عن الجهود التي بذلتها الحكومة الفرنسية تطميناً للأفكار وقصد الوصول إلى الحصول على اتفاق، فإن توتر الحالة بين ممثلي سكان البلاد وبين الملك الجالس على العرش بلغت أقصى درجة في الخطورة. وظهر حينئذ أن إبعاد سيدي محمد بن يوسف هو الوسيلة الوحيدة التي تساعد لصون البلاد من خطر الشقاق واسترجاع النفوذ التقليدي للسلطان وذلك بإعادة الهدوء والطمأنينة للنفوس.

وقد اجتمع المخزن الشريف يومه تحت رئاستي وتبين له أن سيدي محمد بن يوسف أصبح لا يستطيع القيام بواجبات الملك المسندة إليه، فقرر الاعتراف بتوافق مع الحكومة الفرنسية بسيدي محمد بن عرفة سلطاناً وحيداً شرعياً على المملكة المغربية الشريفة لوقوع اختيار الأمة المغربية عليه.

نرجو الله أن يؤيد جلالته سيدنا أعزه الله وأن يوفقه لما فيه صلاح الدين وسعادة البلاد، ونطلب من سكان المغرب أن ينظروا إلى المستقبل بكل ثقة ورجاء بفضل ما تتصف به جلالته من السامية والأخلاق العالية".

5 - جريدة الوداد، العدد 305، ليوم 19 غشت 1953م.

6 - عبد الكريم غلاب، الماهدون.. الخالدون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991م، ص 17.

7 - عبد القادر الصحراوي، شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت.، ص 73.

عليه أمير، فاقطعوا رأس الذي خرج، ومن بايع الثاني فقد كفر"، وكان مصيره وثمن صراحته أن نفي إلى ترزيت عام 1953م.

وإلى ذلك، أقدم خليفة الجنرال جوان، المقيم العام الجنرال أوغستان كيوم (Augustin Guillaume) (شتبر 1951م - ماي 1954م)، بمباركة زعيم الطرق الصوفية عبد الحي الكتاني⁸ وباشا مراكش التهامي الكلاوي⁹ على خلع السلطان ظهر يوم 20 غشت 1953م. وورد على لسان بعض الفرنسيين في تقاريرهم السرية للحكومة الفرنسية "إن إبعاد السلطان محمد الخامس سيتيح لفرنسا 50 عاما من الهدوء والسلام في المغرب، تستطيع أثناءها أن تفعل ما تشاء دون أن تخشى خطرا"¹⁰ بينما اعتبرت حركة المعارضة والإصلاح هذا العزل تتويجا للجهود التي بذلها زعماءها في سبيل ذلك. ومن ثم بدأت تفكر في خطوات التنسيق بينها وبين الإقامة العامة، وأضحى لحدث النفي حضور قوي في محطات كثيرة من محطات الخصومة بينهم وبين رجال الحركة الوطنية.

وبالفعل فقد تم نفي السلطان وتم تنصيب ابن عمه محمد بن عرفة (1886م-1976م) الذي وجدته فرنسا أداة طيعة في يدها فبدأت تستصدر منه الرسائل والظواهر التي رفض توقيعها محمد بن يوسف من قبل¹¹، كما تدخلت لدى الدول الأخرى الممثلة في طنجة للاعتراف بسلطانه على المغرب. وقد فضحت هذه المؤامرة النوايا الحقيقية للسياسة الاستعمارية والتي تجاوزت الاحتلال العسكري والإداري والاستغلال الاقتصادي، إلى الاستغلال السياسي وتمزيق وحدة البلاد والمس برأس هرم البلاد، ظنا منهم، حسب المنطق الفرنسي أنها السبيل الأقرب لقهر الحركة الوطنية واستسلام المقاومة

8 - قام عبد الحي الكتاني بدور ملحوظ ومؤثر في استمالة المغاربة إلى صفه، وكانت سلطات الإقامة العامة تعول عليه في كثير من المهام مثل تنفيذ الأوامر، واستخلاص الضرائب والفروض، والاستخبار عن أحوال القبائل والبلاد، وتحرك الوطنيين المغاربة، وقاد حركة خفية ضد السلطان محمد بن يوسف منذ سنة 1948م، بتوزيع نشرات سرية بمعية الكولونيل لوكونت من موظفي دار الاعتماد.

9 - ذكر روم لاندو أن هذين الرجلين كانا منبذين من قبل المخزن، وإذا ما استطاعا اختيار السلطان فقد يصبحان القوة الرئيسية القائمة خلف العرش، وكانا يعرفان أنه في حالة استبدال السلطان فإنهما لن يخسرا شيئا، وقد يربحان كل شيء. ومن ثم اقتسما مجالات النشاط تبعاً لمجال نفوذهما في حياة البلاد: فبينما كان على الكتاني أن يعبئ الطرق الدينية، كان على الكلاوي أن يقوم بحملته بين قواد القبائل والعناصر الثائرة التي كانت من قبل نواة بلاد السبيبة.

- روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1963م، ص 376، 380.

10 - دعوة الحق، العدد 4، السنة 1975م، ص 124.

11 - بلغ عدد الظواهر التي وقع عليها محمد بن عرفة في الفترة ما بين شتبر ودجنبر 1953م خمسة وثلاثون ظهيرا.

- "حقائق حول مال ومآل بن عرفة"، جريدة الأيام، عدد 260، أيام 23-26 دجنبر 2006، ص 7.

نفسيا ومعنويا واستتباب الأمن وصنع مغرب جديد. لكن السلطان، وهو في منفاه في مدغشقر أو كورسيكا، ظل يحث الوطنيين على الصمود أمام المناورات الفرنسية، وحسبنا علما النداء الذي أذيع من صوت العرب بالقاهرة يوم 18 نونبر 1953م والذي تضمن تحريضه للمجتمع المغربي قاطبة على الصمود في وجه العدو، ومما جاء في هذا النداء "... وبمناسبة الذكرى السعيدة لجلوسنا على عرش أسلافنا، هذه الذكرى التي لا تماطل أبدا بالإعراب عن ولائك وإخلاصك ومحبتك لنا. نوجه إليك نداءنا لنطالبك بمتابعة الكفاح ومضاعفة المجهود والوفاء لله والعمل على تحقيق جميع آمالك ألا وهي الحرية والكرامة والمجد. وهذا ما يدفعنا للصبر والثبات في نفينا خارج الوطن في بلد أجنبي وجزيرة نائية مبعدين عنك ومجبرين على عدم الاشتراك معك في تحرير البلاد..."¹².

ولا شك أن هذا النداء أسهم في إذكاء حماس المغاربة الذين ظلوا يعتبرون محمد بن يوسف "رمزا لمطامحهم المشروعة في الحرية والاستقلال، وإلغاء عقد الحماية المشؤوم الذي هو أصل كل بلاء"¹³، أما عبد الحفي الكتاني فقد صرح بعد خلع السلطان مباشرة "شكرا للنصر الذي أحرزناه مؤخرا، إذ ستجني البلاد بسببه ثمار السلم والهدوء والسعادة"¹⁴. لكن تلك المؤامرة، أي عزل السلطان ونفيه وتناقل الإدارة في الاستجابة لنداءات عودة السلطان، أبانت عن تلاحم كبير بين المغاربة بالتصدي لها بأشكال مختلفة من المقاومة والنضال.

2- من أشكال ردود فعل المغاربة إزاء إبعاد السلطان الشرعي للمغرب:

1-2- تضامن المجتمع والحركة الوطنية مع السلطان المنفي:

اعتبر محمد بن العربي العلوي أن نفي جلالة السلطان "عجل بإيقاظ الوعي السياسي في الشعب المغربي بشكل لم يكن ليصل إليه إلا بعد عشرين سنة"¹⁵. ذلك أن ردود الفعل للمغاربة تجاه هذا الإجراء لم تتأخر، إذ فجر هذا الحادث غضب المجتمع المغربي وتجلي ذلك في انطلاق العمليات

12 - عبد الرحيم الوردغي، المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية: 1952م-1956م، ط. 2، الرباط، 1982م، ص 73.

13 - القيادة العليا لحركة المقاومة السرية بالمغرب، "بيان حركة المقاومة السرية بالمغرب"، جريدة الأمة، عدد 186، ليوم 1 أبريل 1954م، ص 1.

14 - روم لاندو، تاريخ المغرب، ص 416.

15 - السي ابن سلام، "ولاذ الفدائي بالفرار"، الشهاب، عدد 302، ليوم 10 أبريل 1955م، ص 2.

الفدائية، السرية والعلنية¹⁶، سواء ضد الأشخاص أم ضد الممتلكات، حيث تعرض قصر الكلاوي بمراكش لمحاولة إحراق¹⁷، وتعرض ابن عرفة لمحاولات الاغتيال والتصفية منذ الأيام الأولى بعد النفي، في 21 غشت بالرباط و28 غشت بمكناس و4 شتنبر بفاس¹⁸، ولعل أشهر تلك المحاولات وأبرزها على الإطلاق هي التي كانت يوم 11 شتنبر 1953م، حينما داهم علال بن عبد الله موكب ابن عرفة وحاول طعنه، لكن طلقات نارية من الفرنسيين أردته قتيلا، وفي هذا الصدد أنشد عبد الملك البلغيثي ما يلي:

ما كان لي قبل (عالل) الفتى أمل	✽	في الشعب حتى حسبت الكل نسانا
لكنه عندما دوى بخنجره	✽	يوم العروبة حتى هز أركانا
أيقنت أنا على أبواب معركة	✽	فيها نذك للاستعمار بنيانا
عالل من ذكر الناسين أن لنا	✽	من البطولة في تاريخنا شانا
عالل من ذكر الطاغين أن لنا	✽	من الشهامة مجدا عز سلطانا
عالل من قال للباغين أن هنا	✽	شعبا يجرع الاستعمار ذيفانا
أيقنت بعدك (يا علال) أن لنا	✽	عزما يحرر من ذا العار أوطانا
وإن عاهلنا لا بد مرتجع	✽	بالرغم عمن طغوا في القطر طغيانا
(محمد الخامس) المنصور سيدنا	✽	من لم يجد فيه الاستعمار إذعانا
وسوف نلقى جموع الشامتين بنا	✽	يوما وقد لبسوا ذلا وخسرانا
في ذمة الله، يا علال، أول من	✽	قد سل خنجره في وجه من خاننا ¹⁹

16 - من أشهر المنظمات الفدائية السرية: اليد السوداء، والهلل الأسود، وأنصار محمد الخامس، واليد المتوكل على الله، وأسود التحرير وأبطال الحرية.

ومن الفرق الفدائية المسلحة ذات النشاط المحلي والإقليمي: فرقة التحرير بأكادير، وشعبة ابن يوسف بالرباط وسلا، وشعبة حومة الجزاء بالرباط، وحركة المقاومة بالخميسات، والمنظمة السرية للمقاومة بعدة مدن، ومنظمة وجدة، وفرقة المقاومة تاحناوت، وخلية محمد بن الرازي السلاوي بفاس، ومنظمة البقال بمراكش. راجع تفاصيل أكثر عن هذه المنظمات والفرق الفدائية عند:

- أحمد زيادي، الاتجاهات الوطنية في الشر المغربي الحديث في عهد الحماية (1912م-1956م)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 475-479.

17 - زين العابدين العلوي، "المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني، ج.3، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2009م، ص 310.

18 - العربي الصقلي، أحمد خشيطن، جمال الناجي، المقاومة في طور التنظيم، مذكرات من التراث المغربي، ج.7، ص 17.

19 - عبد الملك البلغيثي، ديوان راح الأرواح، مطبعة السلام، فاس، 1984م، ص 20.

كما استهدف الفدائيون رموز الدولة الفرنسية وممثليها في المغرب، مثل محاولة اغتيال الجنرال كيوم وحاكم مدينة مراكش الجنرال دوهوثفيل De Hauteville ومدير جريدة "لافيجي ماروكان" (La Vigie Marocaine) إميل إيرو²⁰، Emile Eyraud، ورصدت شبكة الأجهزة الفرنسية، في الدار البيضاء وحدها ما بين 20 غشت و2 أكتوبر 1953م وقوع 45 عملية منها 8 اغتالات، و9 حرائق و12 عملية تخريب²¹، وقد تزايد العمل الفدائي بتزايد تعنت السلطات الفرنسية عنفا ودما، وساهمت عدة مدن مغربية في هذه الأعمال والاضطرابات، والتحققت بها عدة بوادي²².

ومن الوسائل الأخرى التي سخرها المغاربة للتصدي لهذا الحادث، بالإضافة إلى العمل الفدائي، الإضراب عن العمل ومقاطعة البضائع الفرنسية وإحراق مزارع المعمرين والمظاهرات في الشوارع والخطب في المساجد وتخريب المرافق. وأصدر 39 مفتيا مغربيا حكما بالخيانة الكبرى، والارتداد عن الإسلام في حق باشا مراكش، وأقر حكمهم 350 عالم ديني في المغرب، وصادقت عليه المحكمة الشرعية العليا²³.

بالمقابل قامت منظمات موالية لسلطات الحماية، بنهب متاجر وحوانيت المغاربة وقتل المتظاهرين، كما هددت بقتل الفرنسيين الذين طالبوا ببعض التنازلات للحركة الوطنية. وقد حصر علال الفاسي خسائر المغاربة بعد نفي السلطان في الأرقام الآتية "... منذ 20 غشت من سنة 1953م إلى 02 غشت 1954م أسفرت الحالة المؤسفة التي تبنتها السياسة الفرنسية عما يلي: 1600 قتيل، 343 جريح، 622 حادثة إتلاف بلغت الخسائر فيها 19 مليار و25 مليون من الفرنكات، كما اعتقل خلال هذه السنة من المواطنين المغاربة 65.000..."²⁴. وفي الآن نفسه سخر عبد الله كنون مما كانت تروجه الصحافة الاستعمارية عن صلاحية القواد في تولية السلطان أو عزله، فقال "وإنا لنستغرب كل الاستغراب جهالة القائمين بهذه الحملة أو وقاحتهم على الأصح، وهم بين ضابط من ضباط الاستعلامات يزعم أنه يعرف تاريخ المغرب وعوائده ونفسيات أهله، وذنب من أذناهم يدعي المعرفة مثلهم، ويقول إنه يدين بالإسلام، أو يلتزم بشرعه المطاع، ومن أوليات هذه المعرفة أن الإمامة والبيعة من شرائع الدين، وبحثهما مبسوط في كتب التوحيد والفقه لا في كتب التاريخ

20 - Charles-André JULIEN, Le Maroc face aux Impérialismes (1415-1956), Ed. J.A, Paris, 1978, P 345.

21 - Bernard STEPHANE, Le conflit franco-marocain 1945-1956, 3 volumes, Bruxelles, T.1, P 215.

22 - عبد الفتاح الزين، "خصائص وسمات العمل الفدائي: حالة منطقة الرباط"، مجلة أبحاث، العدد 34-35، ص 54.

23 - علال الفاسي، نداء القاهرة، مطبعة الرسالة، الرباط، 1981م، ص 20.

24 - المرجع نفسه، ص 61.

والمؤرخين، فكيف يصير القواد مرجعا في ولاية السلطان أو عزله، وهم ليسوا من أهل العلم والدين، اللهم إلا في عهود الفتنة والفوضى والاستبداد التي يحكي عنها بعض المؤرخين ما يحكون، ويتألمون لما يجري فيها من الفساد والظلم واتباع سبيل الشيطان؟²⁵.

وأذاع علال الفاسي من إذاعة صوت العرب بمناسبة مرور ستة أشهر على نفي السلطان، كلمة حماسية، قال في خاتمتها: "أيها المراكشيون الأحرار: اصبروا وصابروا، فالله معكم، وهو الذي يبارك أعمالكم، وإن شعوب العروبة والإسلام والعالم الحر كلها تعجب بكم، وتقدر أعمالكم، وإنه مهما يصبكم من ألم أو يضركم من أذى، فلن يضير ذلك عملكم شيئا ... لقد هاجمت بلادنا في التاريخ دول كبيرة طاغية، ولكن صبرنا وثباتنا وإيماننا بحقنا غلبنا عليها، وأعطانا النصر والفوز المبين ... أين روما؟ وهل تركت من أثر؟ وأين الوندال؟ وأين من جاء بعدهم من أوربا وغربها؟ كل أولئك انكسرت قواتهم على صخرة المقاومة الشعبية التي لا تعرف الانهزام وإن التاريخ يعيد نفسه، وإننا لم ننهزم أبدا ولن ننهزم أبدا ... ليرتكب المستعمر ما يشاء من إرهاب، وليأت ما أراد من عذاب وعقاب، فإن النتيجة الحتمية هي تحرير وطننا، وجلاء الأجنبي عنه، والقضية قضية وقت. والنصر لمن يثبت أكثر، وإننا بذلك لجديرون"²⁶.

وهذا نموذج من الشعارات التي كانت تردد أثناء المظاهرات:

ابن يوسف ملكنا	✽	والمغرب وطننا
الاتحاد والعمـل	✽	والنظام شعارنا
قد قررت أحزابنا	✽	أن يعيـش شعبنا
ابن يوسف يجي غدا	✽	الاستقلال ولا بـدا

حق الشعب نموت عليه بن يوسف إلى عرشه وبن عرفة إلى قبره

ليحيا جلالـة الملـك ✽ لتحيا الحريـة²⁷

25 - عبد الله كنون، معارك، مطبعة ديسبريس، تطوان، د.ت.، ص 29.

26 - علال الفاسي، نداء القاهرة، ص 30 - 31.

27 - مصطفى الغرباوي، مغزى الهتافات في مظاهرات الأفراح الشعبية"، جريدة الرأي العام، عدد 261، يوم 19 نونبر 1955م، ص 3.

واجهت الإقامة العامة تلك التجمعات والمظاهرات باعتقال زعماء من الحركة الوطنية وإبعاد بعضهم إلى مناطق معزولة ومحاولة تصفية البعض الآخر قصد تصفية الحركة بصفة نهائية متهمه إياها بإثارة الاضطرابات الأمنية بإيداع قياداتها في السجون والمنافي.

وزاد من حدة التحديات التي واجهها الفرنسيون، أن السلطات الإسبانية في المنطقة الخليفة ظلت تعترف بالسلطان محمد بن يوسف سلطانا شرعيا وحيدا، وظل الخليفة السلطاني ملتزما بتمثيل السلطان المنفي، وظلت تساعد الوطنيين في منطقتها على تأزيم فرنسا، انتقاما من تجاهلها لها وعدم استشارتها في أمر العزل، وقد "وجد هذا الموقف الإسباني ... تأييدا قويا من النخبة الوطنية في المنطقة الخليفة حيث قدم ما يقارب من 500 قائد وباشا في المنطقة الخليفة ملتصقا للجنرال رفائيل كارسيا فالينوا (Rafael Garcia Valino) (مارس 1951م - أبريل 1956م) المقيم العام الإسباني بالمنطقة الخليفة في 20 يناير 1954م يرفضون فيه الاعتراف بشرعية محمد بن عرفة ويطالبون بانفصال مؤقت للمنطقة الخليفة عن منطقة الحماية الفرنسية ما دامت الشرعية السياسية الحقيقية لم تعد إلى المنطقة الإسبانية²⁸، وعدم الاعتراف بسلطة محمد بن عرفة²⁹.

2-2- مواقف طرق صوفية من خلع السلطان الرسمي للبلاد:

ظلت بعض الطرق الصوفية تستغل كل مستجد على الساحة الوطنية لفائدتها، وبما يخدم استمرار وجودها ويقوي نفوذها. فبعد المؤامرة التي دبرتها السلطات الفرنسية ونفذتها في حق السلطان الشرعي للمغرب والمتعلقة بحادث نفي السلطان محمد بن يوسف، رحبت عدة طرق صوفية، لاسيما التي كان لها دور في حبك هذه المؤامرة وتحريكها، بعزل السلطان وتنصيب آخر غير شرعي، ومن علامات هذا الترحيب، حسب الوثائق التي اطلعنا عليها، قدوم مالك بن الحسن، أمين صندوق "الجمعية الطرقية بسوس" إلى فاس ومثوله أمام عبد الحي الكتاني، أحد الذين حبكوا هذه المؤامرة، مصرحا "إني جئت من سوس مصحوبا بوفد الجبهة الدينية والأعيان لمبايعة مولانا الإمام المعظم محمد بن مولانا عرفة وأن جمعية الدين تؤيد إمام المسلمين وتفديه بكل ما لدينا"³⁰،

28 - عبد الرحيم الوردغي، المقاومة المغربية، ص 75.

29 - عبد القادر البنداري، فلسفة الكفاح العربي نحو الوحدة والتحرير، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1960م، ص 121.

30 - فتى شنقيط، "الجمعية الطرقية بسوس تباع الإمام الجديد"، جريدة الوداد، العدد 305، ليوم 19 غشت 1953م، ص 1.

ومن جهة أخرى بايعت قبائل تاونات ابن عرفة وساهم في هذه البيعة الزاوية الكتانية بالمنطقة برئاسة شيخ فرع الزاوية هناك عبد الكبير الكتاني³¹.

وكانت الطرق في وقت سابق قد اتخذت من المساجد مكانا للدعاية ضد السلطان والوطنيين، فهذا الشيخ محمد بن الحبيب الدرقاوي، رئيس "جامعة الطوائف الدينية" بمكناس، قد خطب في الحاحب ضد سلطان المغرب يوم 28 يناير 1953م أمام جمع من أعيان المدينة³².

وإذا كانت بعض الطرق أصدرت فتوى تجيز خلع السلطان، فإن طرقا أخرى امتنعت عن المشاركة في فتوى المؤامرة، وحسبنا موقف الطريقة الدرقاوية الصديقية بطنجة، فمثلا كانت هذه الطريقة في مقدمة المستقبلين للسلطان محمد بن يوسف إبان سفريته لطنجة 1367هـ/1947م، اعترضت على توقيع الفتوى وعلى بيعه ابن عرفة، كما يتضح من رسالة الشيخ أحمد بن الصديق³³ إلى رئيس أول حكومة مغربية بعد الاستقلال مبارك البكاي "... عندما كانت خيوط المؤامرة تحاك في الخفاء وتدبر ضد محمد الخامس عرض علينا ونحن في السجن أن نوافق على مبايعة محمد بن عرفة في مقابل أن يطلق سراحنا قبل انقضاء مدة الحكم، فرفضنا وتحملنا من أجل جميع ذلك مخنا جديدة ومضايقات شديدة يعلمها الذين ترددوا علينا في أثناء تلك المدة...³⁴. مما يعني أن الطرق الصوفية انقسمت بشأن مسألة خلع السلطان بين وطنية وأخرى متآمرة على البلاد، كما يعني أن تلك المتآمرة "أصبحت تؤلف جماعة ضغط سياسية"³⁵ قوية ضد المخزن الحاكم في البلاد.

31 - فتى شنقيط، "قبائل تاونات تحتفل بالعهد الجديد، جريدة الوداد، العدد 350، ليوم 10 أكتوبر 1953م، ص 4.

32 - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، ج.3، ص 342.

33 - ولد أحمد بن الصديق سنة 1320هـ/1901م بقبيلة ابن سعيد ضواحي مدينة طنجة، رحل في سن التاسعة إلى الديار المقدسة صحبة والده محمد بن الصديق، درس على يد والده القرآن والحديث والتفسير والفقه والتصوف وباقي المتون العلمية، رحل إلى الأزهر للأخذ عن شيوخه ثلاث مرات، وبين هذه الرحلات كان يعود للمغرب للأخذ عن شيوخه إلى أن استقر به المقام بطنجة سنة 1354هـ/1953م، حيث سيتولى مسؤولية الزاوية الصديقية ويتابع مسيرة المقاومة ضد الاستعمار، وينكب على التأليف.

راجع ترجمته عند:

- عبد السلام بن سودة، سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1417هـ/1997م، ص 181.

- محمد المختار التمساني، "الشيخ أحمد بن الصديق (1901م-1960م)"، مجلة الطنجويون، العدد 2، ربيع 2002م، ص 7-31.

34 - محمد المختار التمساني، "الشيخ أحمد بن الصديق"، ص 13-14.

35 - عبد الهادي بوطالب، ذكريات .. شهادات .. ووجوه، ج.1، نشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، الرباط، 1992م، ص 69.

ومهما يكن من أمر، فإن الواقع المشار إليه، من مختلف أشكال ردود الفعل وتصعيد المواجهة مع الإقامة العامة، علاوة على ما يمكن أن يكون الفرنسيون قد أدخلوه في حساباتهم من تجاهل وتغاض، كان له دور أساسي في التسريع بقبول فرنسا مبدأ المفاوضات والتعجيل بعودة السلطان من المنفى.

3- عودة السلطان محمد بن يوسف واعتراف فرنسا باستقلال المغرب:

أمام تصاعد أعمال المقاومة، واتساع دائرة الأعمال التخريبية في صفوف الفرنسيين، واقترب حلول الذكرى الثالثة لنفي محمد بن يوسف في 20 غشت 1955م، وتفايدا لمزيد من الاضطرابات وأعمال العنف، قبلت فرنسا مبدأ التفاوض بشأن مستقبل المغرب في إيكس ليبان (Aix-les Bains) ممهدة له بعدة مبادرات منها:

- إطلاق سراح زعماء أحزاب وطنية والسماح بعودة المنفيين.

- السعي إلى التوفيق بين الأطراف المتفاوضة والمدعوة للاجتماع من خصوم استقلال المغرب وممثلي ابن عرفة وممثلي المخزن والحركة الوطنية.

- السعي إلى توحيد وجهات النظر الفرنسية بشأن التدابير المقترحة لحل الأزمة المغربية.

دامت المباحثات في إيكس ليبان أسبوعا كاملا ما بين 22 و28 غشت 1955م شاركت فيها 37 شخصية منهم قيادات في الأحزاب الوطنية وآخرون غير منتمين للأحزاب وزعماء "حركة المعارضة والإصلاح" مثل الباشا التهامي الكلاوي والشيخ عبد الحفي الكتاني، وكانت المباحثات انفرادية بفعل رفض ممثلي حزبي الاستقلال والشورى والاستقلال التفاوض وجها لوجه والجلوس في مائدة واحدة مع فريق المتعاونين مع السلطات الفرنسية، تم أثناء هذه المباحثات التوصل إلى ما يلي:

أولا- عزل ابن عرفة.

ثانيا- تشكيل مجلس العرش من ثلاثة أعضاء.

ثالثا- تشكيل حكومة للتفاوض مع فرنسا بشأن مستقبل العلاقات المغربية - الفرنسية.

رابعا- عودة محمد بن يوسف إلى فرنسا.

وفعلا عزل ابن عرفة وعاد السلطان من منفاه إلى فرنسا وتوجه بعدها إلى المغرب في 16 نونبر 1955م وتشكلت حكومة المفاوضات التي وقعت الاتفاقية المغربية الفرنسية يوم 2 مارس 1956م

تضمنت اعتراف فرنسا باستقلال المنطقة السلطانية واحترام وحدة الأراضي المغربية المضمونة بالاتفاقات الدولية، والمعاهدة المغربية الإسبانية يوم 7 أبريل 1956م تضمنت استقلال المنطقة الخليفية.

خلاصة

أفزعت أشكال ردود الفعل المغربية غداة نفي السلطان الشرعي الإقامة العامة وأخرجت الحكومة الفرنسية التي عبرت، غير ما مرة، عن عدم رضاها على هذا الواقع الحال الذي سالت فيه دماء ودموع كثيرة وتفاقت فيه الأوضاع الأمنية خاصة مع تصعيد نشاط المقاومة، فأجبرت فرنسا على الدخول في مفاوضات مع المغرب أظهرت فيها الزعامات الوطنية عن نضج سياسي ووعي وطني متزايد خاصة أن ممثلي فرنسا في المفاوضات ظلوا يتصيدون الأخطاء التي يمكن أن يسقط فيها ممثلو المغرب.

تصديات الشيخ ماء العينين للتسربات الاستعمارية وبعثات الاستطلاع الأوربية في السواحل المغربية وأثر ذلك في الحفاظ على الوحدة الوطنية

ذ. الحسين أكروم
مرشد ديني تابع للمجلس العلمي
بشيشاوة

لعل من نافلة القول أن نشير - في مقدمة هذه المقالة - إلى أن جميع الطلائع التجسسية الأوربية في السواحل الصحراوية تحطمت - والله الحمد - على يد الشيخ ماء العينين بفضل الأساليب الحجاجية، وطرق التفاوض التي ينتهجها لمحاورة حكام إسبانيا وفرنسا وإنجلترا فضلا عن رؤساء بعثاتهم، فكان رقما مهما في معادلة مفاتيح الصحراء، وساعده تجديد مبايعته الدائمة لسلطين الأشراف العلويين الذين لا معقب لحكمهم هناك، علاوة على توحيد مختلف الطرق الصوفية، وتذويب كل النزاعات القبلية، والسعي إلى المؤاخاة بين العباد، حتى أصبحوا كالجسد الواحد الحاضر منهم والباد.

كل هذا ينبئ عن بعد فكر الرجل في سبر أغوار روح مقاصد السياسة الشرعية، وبراعته في معرفة أسرار السياسة الدولية، فيقذف الحق على باطل دسائس المستعمرين فيدمغه بالحجج الصريحة، والبراهين القوية حتى غدت جل تصدياته ودهائه التفاوضي ضد الغزاة أكبر حملة جهادية صوفية موحدة عرفتها القارة الإفريقية في العصر الحديث يحق للمغاربة أن يتباهوا بها خصوصا عند مقارنتها مع الحركات الجهادية الصوفية عبر العالم.

من هو الشيخ ماء العينين:

هو الشريف المصطفى بن الشيخ محمد فاضل، وماء العينين لقبه، وقد أخطأ عدد من مترجميه لما سموه: محمدا، كالكتاني في فهرس الفهارس¹ والمراكشي في الإعلام² والزركلي في الإعلام³ وكحالة في

1 - فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات للشيخ عبد الحي الكتاني، 63/1، تحقيق: إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية/ 1982م.

المعجم⁴ أما صاحب سلوة الأنفاس⁵ فبالغ لما لقبه بأبي عبد الله إشارة منه إلى اسمه محمد، والحال أن أخاه محمد المصطفى هو الأول بذلك اللقب، أما هو فاسمه المصطفى، وماء العينين لقبه، ولد سنة 1246 هجرية، وله تصانيف كثيرة في شتى الفنون تدل على علو كعبه وتفننه في العلوم، بعضها في أجزاء، وأخرى متوسطة، وأغلبها رسائل، وأكثر رحمه الله في التصنيف إكثاراً جعل بعض المعاصرين يوصل مؤلفاته إلى «أزيد من أربعمئة كتاب»⁶.

الحالة الاجتماعية للمغرب في عصر الشيخ ماء العينين:

لا غرو أن العصر الذي عاش فيه الشيخ ماء العينين تكالبت فيه على المغرب عدد من الدول لاستنزاف ثرواته سيما بعد أن انهزم في معركة إيسلي سنة [1260هـ/1844م] فأصبح عرضة للتنافس الأوربي، ومما زاد الطين بلة والداء علة لما هزم ثانية في تطوان سنة [1276هـ/1859م] مما أفضى إلى تسلل إسبانيا وفرنسا وإنجلترا بعدها إلى السواحل الشمالية والصحراوية، ومن ثم تداخلت أطماع تلك الدول اقتصاديا، وتعارضت حدودها جغرافيا فاختلف الحلفاء لكنهم اتفقوا بعد ذلك أثناء التوقيع على ما يسمى وقتها بوثيقة الحماية أواخر مارس 1912م.

وصادفت هذه الأحداث حدوث نزاعات قبلية وحروب متلاحقة -على طول القرن التاسع عشر- فأضعف ذلك الوحدة الداخلية للمغرب وشتت صفه، وحسبنا ثورة الروغي في الشمال والحروب المتواصلة لعدد من القبائل الصحراوية في الجنوب والتي أسهب في ذكرها صاحب كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط على طول أكثر من ثلاثين صفحة⁷. فحوصر المغرب من طرف أعدائه خارجيا، وتفككت أوصاله بسبب أبنائه داخليا فكأنه يسير نحو ما سماه الحجوي الفاسي: انتحار المغرب بيد ثواره، غير أن الخصلة الحميدة التي رافقت كل ما ذكر هي أن علاقات الولاء بالأشراف العلويين ثابتة، والبيعة في أعناق تلك القبائل مستمرة.

2 - الإعلام بمن حل مراكز وأعمات من الإعلام للعباس بن إبراهيم السملالي، 937/7، نشر المطبعة الملكية الرباط، الطبعة الأولى/ 1974م.

3 - الإعلام للزركلي، 243/ 7، نشر دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر / 2002م.

4 - معجم المؤلفين لرضا كحالة، 281/12، نشر مكتبة المثنى بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

5 - سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس للشيخ محمد بن جعفر الكتاني، 490/3، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة الكتاني ومحمد بن حمزة علي الكتاني، نشر دار الثقافة والنجاح البيضاء، الطبعة الأولى/ 2004م.

6 - الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين للدكتور محمد ظريف، ص: 16، نشر مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث، الطبعة الأولى/ 2003م.

7 - الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ص: 482-509، نشر مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة السادسة/ 2008م.

أما الزوافا الصوففة الفف هف رمز الجهاد وشعار الكفاف فقد كان من أوكد واجباتها فف ذلك الظرف الحساس ءوفا الصف وجمع الكلمة؁ فإذا بها هف نفسها ءتسارع بفنها وفكفك موقف الناصرفن من ظهور الطرفة الفجانفة بسوس سنة 1250هـ. فقد وصف المفاار السوسف ذلك بقوله: «فكان لظهورهم مقاومة عظفمة من العلماء الناصرفن لهذه الطرفة الفففة⁸». وكذلك بفنهم وبفن الدرقاوفن ءفى بدأ سفف مفا بن العربف الأءوزف «فناف فف موسم سفف أفا بن موسى على رؤوس الأشهاد بأن الدرقاوفن مباءعون⁹». أما الطرفة القاءرفة فءاف عنها المفاار الكفف باءبارها من أفضل الطرق وأكملها. وبالفملة فالطرق الصوففة بالمغرب وقتها فكا فصفق عليها قوله ءعالى: «ولكل وجهة هو مولفها»¹⁰.

أما الشفء ماء العفن فاناسب إلى هذه الطرق كلها وعرف بذلك واشءهر به ءفى شرع فف إعطاء الأوراء ففها جمفعا -على ءعءدها واآءلافها- فعارضه الشفء الإفرافف رؤفس الطرفة الفجانفة بسوس؁ وإلى هذا أشار المفاار السوسف: «وكذلك الشفء ماء العفن وقعت بفنه وبفن الإفرافف مراءاة؁ لأن ماء العفن كان فلقن أوراءا عءة من جملةا ورد الفجانفة وذلك مما لا فقبل عءد أصحاب هذه الطرفة لأنهم فرونها أعلى من أن ءآمع مع طرفة أخرى؁ وأنها ءغف عما سواها من الطرق...»¹¹.

وبالفملة فهذه صورة مصغرة لآال المغرب السفاف والافءماعف فف عصر الشفء ماء العفن؁ وهو عصر بلغ ففه الاضطراب السفاف فاففه؁ وضراوة الحروب واستفأالها مءناه؁ والءصارع على الزعامة القبلفة مءاه؁ فشعب الكفرون بما لم فعطوا؁ فففرقت الكلمة؁ واءسع الخرق على الرافع؁ فافءاف المآمع إلى ظهور مرب صوفف كبر؁ أو مصلأ افءماعف فبفر لففلف بفن الناس ففوفاءهم؁ ففرص الصفوف لءلآم الأمة المرففة فف بوآقة واءة من فففء؁ فساق الهفف الإلفف الشفء ماء العفن فف ءلكم الفرة الحساسة وأعائفه ءوآفهاء فكفمة؁ وإرشاءاء نفرة من السلاطفن العلوفن؁ فءصفا لءلكم المفاطر فقاموا بما فشفه أن فكون معركة اءافلفة لرأب الصءع؁ والقضاء على الفساد؁ وإفآاء الففن؁ وءوفف المءءفن؁ ونصرة المظلوفن؁ والمؤاآة بفن القبائل؁ فءءآ مصالآة وطنية

8 - المفسول؁ 155/11؁ مطبعة النآاف؁ الطبعة الأولى/ 1380هـ.

9 - المفسول؁ للمفاار السوسف؁ 270/1.

10 - سورة البقرة؁ الآية 147.

11 - المفسول؁ 68/4 بفصرف فسفر.

كانت سببا في أن يتجه ملوك العلويين - ومن ورائهم السواد الأعظم من المغاربة - كالسهم الواحد تجاه العدو الخارجي فقصوا عليه بصفة كلية نهائية، ودون رجعة.

جهود الشيخ ماء العينين في لم الشعث واجتماع الكلمة:

لعل أول ما بدأ به الشيخ ماء العينين في مساعيه الوحدوية هو التصالح بين الفرق الصوفية لتتحد على هدف الحفاظ على هويتها التاريخية، والذب عن رسالتها الحضارية ومن ثم لتجمع شملها ككتلة مترابطة لمواجهة الإعمار الغربي القادم، لذا تنبه ماء العينين إلى مآل أهمية وحدة الصف فقال ناصحا رؤساء الفرق ومريديها: « إن الطرق وإن تعددت واختلفت فمرجعها كلها لأمر واحد وهو الفناء في مشاهدة الله والنظر إليه عن كل ما سواه.. »¹².

فنظر رحمه الله إلى القصد والهدف والغاية ولم تلهه كثرة المسالك، ولا تنوع الوسائل واختلاف الأوراد، لأن كل هذه الطرق على تعددها تؤول إلى ملازمة ذكر الله، وترسيخ أسس التربية الروحية، فلم يجد بعد ذلك أدنى حرج أن يقول: « إن الطرق في الحقيقة ليست إلا طريقة واحدة.. لا تحادها في هذه الأشياء، لأنك لا تجد شيئا منها خارجا عنها، وإذا فهي شيء واحد ولا مانع لأحد من أخذ شيء منها من أحد.. »¹³ وعلى هذا التصور بنى مفهوم الإخاء بين الطرق، وشيد سياجا منيعا لتوحيدها فأشدد قائلا:

إنني مخاو لجميع الطرق ❀ أخوة الإيمان عند المتقي¹⁴

ومن روائع جهود الشيخ ماء العينين في لم الشعث وجمع الكلمة لما تدخل لرئيس الطريقة الكتانية في وقته الشريف سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني الفاسي عند السلطان الحسن الأول بعد استحالة الوفاق بينه وبين علماء مراكش في بعض الأمور الذوقية والإشارات الباطنية واستمرت المناظرات شهرين متتابعين¹⁵ حتى طلب من الشيخ ماء العينين التدخل فحسم الأمر فشفع فيه لدى

12 - نعت البدايات وتوصيف النهايات للشيخ ماء العينين، ص: 11، نشر دار الفكر، طبعت دون تاريخ.

13 - مفيد الراوي على أي مخاوي للشيخ ماء العينين، ص: 56 بتصرف يسير، تحقيق الدكتور محمد الظريف، نشر مطبعة المعارف الجديدة الرباط.

14 - مفيد الراوي على أي مخاوي للشيخ ماء العينين، ص: 4.

15 - ينظر تفصيل ذلك في: أشرف الأماني في ترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني لمحمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني، ص: 179-186، نشر دار ابن حزم، الطبعة الأولى/ 2005م.

السلطان، وفي ذلك يقول الأديب الحسن بوعشرين في التنبيه المغرب: «وقد رأيت - أي الكتاني - بمراكش لما كان منفيا إليها يقبل يد الشيخ ماء العينين ويلتمس منه الدعاء، فعلمت أنه لا أكبر من الشيخ في الولاية في الوقت وتشفع فيه الشيخ ورجع لبلده فاس وعفي عنه..»¹⁶.

وللشريف الكتاني شهرة كبيرة جدا حتى في المشرق بله المغرب، قال عنه المراكشي في الإعلام: «لم يبلغ أحد من أهل عصره بعد الشيخ ماء العينين مبلغه في إقبال الخلق وبعد الصيت، وشهرة الذكر في المشرق والمغرب..»¹⁷ وله مريدون كثر على طول الشمال الشرقي للمغرب، ولو كان الشيخ ماء العينين لم يقصد بتوحيد الطرق اجتماع الكلمة وتوحيد الفرقة لما تشفع له، ولتكلم فيه عند السلطان ليوقع بينهما.

نعم لم يكن الشيخ ماء العينين - مع شدة زهده وقوة ورعه - من الذين يسرون الحسو في ارتغاء كما يقال¹⁸ أو من الذين يسارعون إلى تطبيق المثل القائل: مصائب قوم عند قوم فوائد، ويستغل هذه المحنة لتصير له منحة، ومن ثم يفسح المجال لطريقته القادرية¹⁹ لتنتشر في أحواز فاس وتذاع، وهو على ذلك بمستطاع، وتسرح الطريقة القادرية بعد ذلك ضرمتها الكتانية بإحسان، لكنه رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه لا يخطر كل ذلك بباليه، لأنه من كبار الأولياء، ومن مشاهير الصلحاء، تواترت الشهادات له بتلك الساحة، والقوة في المروءة، والسلامة في الطوية، وعرف بكل هذه الخصال الحميدة حتى عند مخالفيه، فضلا عن موافقيه.

فلم يبق إلا ما بينه وبين الشيخ الإفرائي الذي أنكر إعطاء الشيخ ماء العينين أورداد الطريقة التجانية، ولعل ماء العينين رد عليه بقوله: فماله «يتعجب من ذلك ويقول: سبحان الله فلان يعطي الطريقة الفلانية، ويعطي الطريقة الفلانية، أهذا يمكن؟ مستفهما، وبعضهم يقول: هذا لا يمكن منكرا..»²⁰.

16 - التنبيه المغرب عما عليه الآن حال المغرب للحسن بن الطيب بوعشرين، ص: 177، تحقيق محمد المنوني، نشر دار المعرفة، الطبعة الأولى/ 1994م.

17 - الإعلام بمن حل مراكش وأغماط من الأعلام للعباس بن إبراهيم السملالي، 156/7.

18 - أي: يظهر خلاف ما يظن، لمزيد من الإيضاح ينظر كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص: 65، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش، نشر دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى/ 1980م.

19 - انظر مقال للأستاذ عبد القادر القادري تحت عنوان: "الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي"، منشور بمجلة دعوة الحق العدد [10]، ص: 48-53، السنة العشرون، الصادر في محرم 1400هـ الموافق لـ دجنبر 1979م.

20 - مفيد الراوي، ص: 42.

قلت: وفيه إشارة ضمنية لمعاصره الأديب سيدي الحاج الحسين الإفرائي الذي انتهت إليه رئاسة الطريقة الأحمدية التجانية بسوس، فرحمها الله تعالى فقد ماتا معا في شهر واحد، نعم سبقه الإفرائي بسبعة عشر يوما، وصلى عليه الشيخ ماء العينين، وقد أرخ المختار السوسي تاريخ وفاة الإفرائي بقوله: «فقد ختمت أنفاسه رحمه الله يوم السبت رابع شوال عام 1328هـ، فكانت له جنازة حافلة، وكان إمام الصلاة عليه ضيف تيزنيت إذ ذاك الشيخ ماء العينين، ثم أبنه بخطبة ارتجالية بين يدي جنازته، مضمنها الإشادة بقدر الرجل، وتنبية التيزنيتيين على هذه النعمة المعنوية المسبلة على مدينتهم الجديدة..»²¹ بل اشتهر في بلدتنا تزنيت عند بعض الشيوخ المسنين أن الشيخ ماء العينين كبر عليه في الصلاة عليه سبع تكبيرات، مخالفا بذلك المشهور في المذهب المالكي.

ولم تقف المهمة عند الشيخ ماء العينين عند حد المؤاخاة بين الطرق الصوفية فحسب بل تجاوزت إصلاحاته الاجتماعية إلى رؤساء القبائل المتناحرة فكانت له سياسة حكيمة في إخماد تلك الحروب وإلى ذلك يشير بعض المعاصرين: «وأبرز مظهر من مظاهر هذه السياسة الوحدوية الإصلاحية ما كان يعمد إليه الشيخ من مقاطعة القبائل الظالمة ومساعدة القبائل المظلومة. فقد نهى أتباعه شراء ما تنهبه القبائل الصحراوية في حروبها الدائمة. وقد تمكن بفضل هذه السياسة من تسوية الصراعات القبلية، وتقليص النزاعات الهامشية، وتخفيف التوتر العام الذي كان يمزق القبائل الصحراوية..»²².

وقد تعجب الغربيون من سياسة الشيخ ماء العينين الوحدوية وتعددت وجهات نظرهم نحوها: فبعضهم عللها بمفاهيم مغلوطة، وآخر أولها تأويلا مضحكا، بيد أن أطرفها ما قاله برلادفور لما أرجع التفاف القبائل الصحراوية وراء الشيخ ماء العينين بـ: «زواجه من مائة وست عشر امرأة - واعتبر ذلك - من الوسائل القوية التي لجأ إليها لجمع الشمل بين القبائل الصحراوية، وتقوية أواصر القرابة بينها..»²³. وهو والله بجميع حروف القسم تكلف في التأويل، وتعسف في التعليل، وتجاهل فطبع بقيمة الروابط الروحية التي تجمع المغاربة، والتحامهم طرا في بسالة الدفاع عن وطنهم كلما داهمهم العدو.

21 - المعسول للمختار السوسي، 4/ 70 بتصرف يسير.

22 - الحياة الأدبية في زاوية الشيخ ماء العينين للدكتور محمد ظريف، ص: 46.

23 - من مقال لبرادفور، منشور بمجلة الأفارقة تحت عنوان: "ماء العينين القلبي"، السنة 1977م، ص/ 180.

ويكفيك في تفنيد ذلك أن الشيخ ماء العينين لما وصل لتزيت انهالت عليه قبائل الأمازيغ واحدة تلو الأخرى، وكلها ليست لها بالشيخ أواصر القرابة، ولا المصاهرة ولا اللغة، بل امتدت دعوة الشيخ ماء العينين إلى مشارف أقصى الحدود الليبية في الشمال الشرقي، لتغلغل إلى أعماق مالي جنوبا، علاوة على وجود أتباعه في المدن الساحلية للمحيط الأطلسي كميليلة وطنجة وما جاورهما. فهل يمكن لبرلادفور أن يقول: إن الشيخ ماء العينين تزوج في كل تلك الربوع الواسعة لجمع الشمل بين القبائل، وتقوية أواصر القرابة بينها، طبعاً لا لتعزده، فلم يبق إلا أن يكون هراؤه استنتاجات أنثربولوجية وتصورات اجتماعية مستمدة من علوم غريبة صرفة، والتي لا تستقيم مقارنتها مع البعد الروحي والمكانة العلمية للشيخ ماء العينين.

الأوضاع السياسية الدولية في عصر الشيخ ماء العينين:

بعد اختلاف كبير بين الدول الأوربية في أطماعها حول إفريقيا وبعد أن جالوا فيها جولات عن اليمين وعن الشمال، عقد مؤتمر برلين سنة 1884م حول تقسيم باقي دول القارة الإفريقية لرأب الصدع بين القوى العظمى آنذاك كبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وإسبانيا والبرتغال²⁴ فشكل ذلك المؤتمر منعطفا خطيرا أوشك أن يقضي على هوية دول المغرب العربي، وسرعان ما نفذت خططه النهائية الماكدة في وقت كانت فيه فرنسا احتلت الجزائر قبل ذلك بأكثر من عقد من الزمان وذلك سنة 1830هـ الموافق لـ 1245هـ²⁵. ولم تكتف فرنسا بذلك بل أجبرت نائب الدولة العثمانية بتونس بتوقيع اتفاق يقضي بوضع تونس تحت السيادة الفرنسية سنة 1881م وأوغلوا كذلك في إفريقيا السوداء فاستغلظ عسكر فرنسا بالسنغال سنة 1840م فاستوى هناك على سوقه.

وليس ببعيد أن يكون سبق احتلال فرنسا للجزائر والسنغال كان لخطة مسبقة وهي محاصرة المغرب اقتصاديا، وخنق الرئة التي يتنفس فيها جغرافيا²⁶ بل هي في كل فترة -بسبب كثرة تحرشاتها- قاب قوسين أو أدنى من اجتياحه، بيد أن الدول الأخرى كإسبانيا، وألمانيا، وبريطانيا تتسابق هي الأخرى نحو المغرب لأهداف اقتصادية²⁷ فزاحمتا فرنسا في أطماعها الاستعمارية، مما جعل

24 - انظر تاريخ العلاقات الدولية لبيير رينوقان، ترجمة جلال يحيى، ص: 924، نشر دار المعارف مصر، الطبعة الثانية/1971م.

25 - الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية لمحمد مصطفى المشرفي، 72-69/2، تحقيق إدريس بوهليلة، نشر وزارة الأوقاف المغربية، الطبعة الأولى/2005م.

26 - انظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب للدكتور عبد الهادي التازي، 42-9/10، الرباط، الطبعة الأولى/1989م.

27 - انظر تاريخ الفكر الاقتصادي لأدي كرو، ترجمة راشد البراوي، نشر دار الكتاب العربي، القاهرة/1968م.

المغرب مسرحا للتنافس الأوربي فبدأت كل دولة تكيد كيدا بالمرء والخذاع في صورة المهادنة والملاطفة حيناً، وبفرق الاستطلاع حيناً آخر، وإرسال المخبزين والجواسيس على شكل بعثات في كثير من الأحيان الأخرى منتحلين صفات زائفة كحجاج وتجار وعلماء جيولوجيين وأنتربولوجيين فتعددت المسميات والقصد واحد وهو: جمع الأخبار، وتقوية العلاقات مع أعيان القبائل، ووضع الخرائط، تعبيدا للطرق لرسم مخطط دقيق ومنفذ عميق للدخول إلى أعماق الصحراء بأقل الخسائر.

بعثات الاستطلاع الأوربية على السواحل المغربية وتصديت مياه العينين لها:

حاولت إسبانيا بكل ما أوتيت من قوة أن تضع موطئ قدم لها في السواحل الصحراوية ناهجة شتى الوسائل فأرسلت سنة 1884م فريقا قالت: إنهم تجار بقيادة شخص يدعى بونيلي [E. Bonelli] متجاهلة أخذ ترخيص رسمي من السلطان، وبنى المبعوث المذكور ثلاث أكواخ خشبية في الداخلة، وحاول بعد ذلك ربط علاقات تجارية مع أعيان القبائل دون أدنى خجل وهو وقتها ما زال لم يريش بعد فكيف يطير !!

وبعد شهور قليلة أبلغت إسبانيا جميع الدول الأوربية ببسط سيطرتها على سواحل واد الذهب وبسط نفوذها فيه، بيد أن الشيخ ماء العينين فطن لمكائدها فأعطى أوامره لرؤساء القبائل الصحراوية ليتفاوضوا معهم وجرى بينهم - كما قال ابنه محمد الغيث بن النعمة - ما حاصله: « أنهم اقتتلوا معهم وهزموهم وغنموا والله الحمد منهم غنائم كثيرة، وقتلوا أشخاصا ولم يمت أحد من المسلمين، ودخل النصاري البحر منهزمين والله الحمد.. »²⁸ وذلك يوم 22 جمادى الثانية 1302هـ، ويتقدم أولئك المجاهدين عدد من أبناء الشيخ ماء العينين، وألف الشيخ رسالة في تلك الحادثة ضمنها تفصيلات عما جرى، سهاها: هداية من حار في أمر النصاري²⁹.

وتشفيا بالباطل لما وقع للإسبان حاولوا بعد شهور قليلة من الحادثة الأولى إرسال عدد من الجواسيس قدموا على أنهم تجار واستقلوا على متن سفينة [la Estrella] متجهة نحو الداخلة بدعوى إبرام عقود تجارية مع أعيان القبائل الصحراوية، فتعرض لها أتباع الشيخ ماء العينين، وأوقفوا تلك السفينة وأسروا خمسة إسبانيين³⁰.

28 - الأبحر المعنية في بعض الأمداح المعنية، مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم [1376]، لوحة: 35-36.

29 - لمزيد من الإيضاح حول هذه الحادثة ينظر هداية من حار للشيخ ماء العينين، نشر مطبعة المعارف الجديدة، الرباط/1998م.

30 - ملامح من جهاد المخزن والقبائل الصحراوية ضد الاحتلال الأجنبي نموذج الشيخ ماء العينين، ص: 100، مقال منشور ضمن الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات للأستاذ أحمد بومزكو وماء العينين النعمة علي، نشر مطبعة النجاح البيضاء، الطبعة الأولى/2001م.

وفي سنة 1886م انطلقت بعثتان إسبانيتان يتزعم الأولى خوسي ألفاريث حاولت أن تستكشف المعادن بين مصب وادي درعة وبوجدور، ونسقوا مع أمير أدرار بالصحراء فقدموا له هدايا ثمينة مقابل منحهم بقعة أرضية لتكون مقرا رئيسيا لهم، وبحماية بعثتهم من أي هجوم محتمل حتى أقصى أعماق الجنوب الغربي للصحراء ضمانا للأمن قصد الترويج لأهدافهم، وانطلقت البعثة الثانية في شهر يوليوز من نفس السنة تحت إشراف خوليو ثيريرا فوافقهم الشيخ أحمد ولد عايدة أمير أدرار على شروطهم وأغروه بأربعة عشر جملا فأهدوه له ليوزع بها البضائع التجارية والهدايا الثمينة والسلع النادرة، وبعض المجوهرات على أعيان القبائل التي سيمرون منها.

ولما استقصى الشيخ ماء العينين أخبارهم واستخبر بقدمهم أعطى أوامره لبعض أتباعه للتصدي لهم، وإرسال رسائل إلى عدد من الأعيان ليتعرضوا لهم لأنهم مسيحيون جاءوا لاحتلال البلاد³¹ وبدون ترخيص مسبق من السلطان، فمات أطماع البعثتين قبل أن تولد، ورد الشيخ ماء العينين كيدهم إلى نحورهم، وهكذا استطاع الشيخ -بمعية محبيه ومريديه- أن يفشلوا مكائد الكائدين، وينفوا عن أوطانهم أطماع الطامعين.

عود على بدء:

لم تقنط الحكومة الإسبانية ولا ملت من كثرة مشاريعها السرية والمكشوفة أحيانا، فقد أرسلت بعثة أخرى مصحوبة بمرجم يدعى أصبير سنة 1888م حاول أن يعقد اتفاقا تجاريا مع الحبيب بن بيروك، فتعرض له مريدو الشيخ ماء العينين في الطريق، وألقوا القبض على ستة منهم، ثم طلب الحبيب المذكور من الشيخ إخلاء سبيلهم فأهمله الشيخ وتجاهله، ومكث الإسبانيون شهورا عدة في السجن حتى أفرج عنهم بإذن خاص من السلطان الحسن الأول³² لأن الشيخ كان أخبره قبل بها رأى، فأرسل إليه رسالة هذا نصها: "وليكن في كريم علم أمير المؤمنين أن رجلا كان مع النصارى.. يقال له: أصبير وهو يسمى نفسه محمد الصابر يدعي الإسلام، ومنذ زمن وهو يرسل إلي البروات، بل قدم علي قبل وأراني الإسلام وشعائره.. ويريد مني أن يكون خبر مرسى الطرفاية بيدي، وامتنعت له أولا حتى يأتييني الخبر من عندكم، وما أرتموني به معه أفعله بحول الله وقوته.."³³.

31 - التسرب الإسباني إلى الشواطئ المغربية من 1860 إلى 1934م للأستاذ نور الدين بلحداد، ص: 134، نشر جامعة محمد الخامس السويسي الرباط معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى/ 2008م.

32 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرء في مواجهة الاستعمار الأوربي، 2/ 19-20، للطالب أخيار بن الشيخ مامين، نشر مؤسسة الشيخ مربيته ربه لإحياء التراث والتنمية، الطبعة الثانية/ 2011م.

33 - التسرب الإسباني إلى الشواطئ المغربية للأستاذ نور الدين بلحداد، ص: 288.

وبهذه الصور الرائعة لقن الشيخ ماء العينين للإسبان دروسا في الحنكة السياسية، وضافت بهم أرض الصحراء بما رحبت مما جعلهم يفكرون في أساليب أخرى³⁴ ونهج مسالك ملتوية عليها تغري هذه المرة الشيخ ماء العينين ليتراجع وإن بمقدار عن مضايقاته لطلائع بعثات التجسس الإسبانية على طول ما يقرب من عقد من الزمن من سنة 1885م إلى حدود 1892م.

محاولات استمالة الإسبان للشيخ ماء العينين:

بعد أن جال الشيخ مع حيل الإسبان جولات، وصال معهم في الحروب السرية صولات التجنوا إلى حيلة ماكرة وهي: إغراؤه بأنواع الإغراءات، وإهداؤه صنوف الهديات وكيف لا يفعلون وكل محاولاتهم السرية فضلا عن العلنية تصدى لها، وبين للناس عورها، وكشف لأعيان القبائل مقاصدها، فزلت قدمهم في السواحل الصحراوية بعد أن اعتقدوا ثبوتها، لذا بعث ما يسمى برئيس البعثة الإسبانية بالداخلة إلى الشيخ ماء العينين رسالة سنة 1892م طالبا منه أن يرسل له من يتفاوض مع رئيس البعثة المذكور لإقامة علاقات تجارية موسعة مع الشيخ، فقبل الشيخ ماء العينين اقتراحه مقيدا رده عليه بشروط شرعية، وضوابط حكيمة مع حس وطني نادر، ملفتا انتباهه بقوله: ولا أدع أحدا من القبائل يضركم لكن: "بشرط أني أدعوكم أولا لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإن أبيتم فإني أدعوكم للجزية تعطونها لي لأجعلها للمسلمين نفعا على ألا يضركم منهم شخص ولا تضروه، والجزية هي: عشر كل ما يخرج من البحر مع ضيافة من أتاكم من المسلمين.. فإن قبلتم هذا فإن عهدا بيني بينكم على الرأس والعين، وإلا فالله ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحبني إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾"³⁵ والسلام. أواسط ربيع النبوي عام 1330هـ³⁶.

ومن الطبيعي أنهم لا يرضون التفاوض وفق هذه الشروط فضلا عن أن يقبلوها، لذا قرر نائب الحكومة الإسبانية في واد الذهب عقد لقاءات أخرى مع الشيخ ماء العينين لتسهيل نقل البضائع إلى المركز التجاري بسواحل الداخل، واصطحبت لجنة التفاوض معها قافلة كبيرة قوامها

34 - انظر التدخل العسكري الأجنبي في المغرب قراءة في جيواستراتيجية المغرب خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للدكتور عبد الواحد الناصر، ص: 99-111، نشر مطبعة اللجنة سلا، الطبعة الأولى/ 1999م.

35 - سورة الشورى، الآية 11.

36 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرأ في مواجهة الاستعمار الأوربي، 2/ 20-21، للطالب أخيار بن الشيخ مامينا.

ثمانون جملا محملا بالهدايا الثمينة، والبضائع التجارية التي تروج يومها في الأسواق الأوربية ليغروه بذلك ويستميلوه بها سعيا من إسبانيا تحقيق أهدافها التوسعية بشكل عام، والوقعة بينه وبين السلطان بشكل خاص، لتكون هي بعد ذلك كحكم بينهما، بعد أن كانت قبل خصما لهما.

ولما علم الشيخ ماء العينين بوصول تلك الجمال الثمانين وما فيها من سلع وهدايا وكان آنذاك في موضع قرب السمارة يسمى الكريزيم³⁷ أمر مريديه الذين صاحبوا وراقبوا تحركات تلك البعثة ألا يستريحوا من تعب السفر وأن يرجعوا على التو وبأقصى سرعة ممكنة ليردوا تلك البضاعة إلى من أرسلها، بل حذر الشيخ ماء العينين الإسبان بشن غارات عليهم إن فعلوا مثل ذلك في المستقبل.

ولئن كان الشيخ ماء العينين دافع بلسانه وقلمه وبمريديه وبمريديه ومن ورائهم سواد الأمة ضد ما حيكت للوطن، وكان درعا واقيا للأطماع الإسبانية ردحا من الزمن³⁸ فإن الاجتياحات الفرنسية وجواسيسها وآلياتها العسكرية وهيمنتها كأشرس قوة عسكرية في أوربا آنذاك كانت أكبر من أختها الإسبانية بأضعاف مضاعفة عتادا، وأكثر في الجيوش عددا.

لذا فإن الشيخ ماء العينين ولى وجهته بمعية مريديه صوب جيوش فرنسا، لأن درجة تشويش إسبانيا واستفزازاتها على السواحل الصحراوية لا تعدو أن تكون مناورات عشوائية وتمويهات استعراضية لا تشكل خطرا على الأمن القومي المغربي، بل ولا يتصور وقوع حرب على المدين المتوسط والبعيد، خلافا للجيوش الفرنسية التي أعدت العدة، وجندت كل وسائلها للدخول إلى عمق الصحراء، وهذا التغير الواقع في قوى المعادلة الإقليمية جعلتنا نتساءل: هل هناك من آلية جديدة أعدها الشيخ ماء العينين مع مريديه للمواجهة المحتملة؟ وما هي الخطط التي وضعها الشيخ لمنع تقدم فرنسا نحو معقله بالسمارة؟ أو بتعبير أدق:

كيف تصدى الشيخ ماء العينين لتسربات الجيوش الفرنسية إلى عمق الصحراء:

لا غرو أن تحركات فرنسا في موريتانيا واجتماع جيوشها فيها استعدادا للتقدم نحو الساقية الحمراء واتخاذ السينغال ومالي كقواعد عسكرية خلفية تنبئ عن نيتها في اكتساح الصحراء، حيث

37 - انظر: الساقية الحمراء من المغرب وأهلها مغاربة - الشيخ ماء العينين بنى السمارة علامة على وحدتنا، للأستاذ محمد الطنجي، ص: 92-89 العدد [1] السنة [21]، الصادر ربيع الثاني 1400هـ الموافق مارس 1980م.

38 - انظر أساليبها المستعملة في كتاب التدخل العسكري الأجنبي في المغرب قراءة في جيوسراتيجية المغرب خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين للدكتور عبد الواحد الناصر ص: 99-111.

حاصرت المغرب أولا، وأحاطت به من كل الجوانب إحاطة السوار بالمعصم، بدءا بالتسربات فى الحدود الجزائرية، نتج عنه احتلال وجدة سنة 1907م، ومرورا باجتياح الدار البيضاء والشاوية ودخول ما يقارب 3000 جندي فرنسي وإسباني إليهما، وانتهاء بالتوغلات من نهر السينغال وشنقيط إلى منبع السواحل الصحراوية، وكان من الطبيعي أن تتجه همة الشفخ ماء العفنن إلى فرنسا وحدها، لأن قواعد النظر تقتضي أن يقدم ما يخشى خطره، قياسا على قول الشفخ خليل: ويقدم ما يخشى فواته، وإذا حصل العكس وتفاقم الأمر فقل أن تستدرك مثل تلك الأخطاء، أعني الآثار المترتبة على الانشغال بإسبانيا عن فرنسا.

وقد أعجبني المستشرق الإنجليزى هو دجى لما قال مستكشفا الحالة النفسية للشفخ ماء العفنن، مقارنا درجة رصده لمناوشات إسبانيا، وترقبه لتحركات فرنسا: «إن الذى يقض مضجع الشفخ المجاهد ليس هو الخطر الإسباني الذى اكتفى بالانزواء فى بعض النقط الساحلية بالداخلة، بل هو الاستعمار الفرنسي الذى كان أكثر شراسة وكثافة..»³⁹.

ترى كيف تعامل الشفخ ماء العفنن مع الإغارات الفرنسية؟ وما هى الآليات الدبلوماسية التى يتفاوض بها؟ وإلى أى حد يمكن للشفخ بمعية مريديه القتال فى شتى الجهات؟ والدفاع عن أرض الوطن على جميع الجبهات؟ هل سيغير أسرار خططه الدفاعية وطرق مفاوضاته الناجعة؟ أم أن هناك مسوغات أخرى تفرضها طبيعة الحروب الشرسة مع فرنسا، وتستدعيها التحولات السياسية الداخلية سيما بعد تدهور الأوضاع السياسية الداخلية، ومبايعته للسلطان مولاي عبد الحفيظ؟

أسرار خفايا الساسة الفرنسيين وإغراؤهم برؤساء الطرق الصوفية بالسينغال وشنقيط:

منذ وصول الفرنسيين إلى السنغال 1817م بدؤوا يخططون للاستيلاء على بلاد شنقيط -أو موريتانيا بالتعبير السياسي المعاصر- كمرحلة أولى، ثم اجتياح الصحراء إلى مراكش للالتقاء مع الجيوش الأخرى التى ستغزو المغرب من الشرق، مرورا بالدار البيضاء إلى حدود أحواز مراكش، ومن ثم يلتقي الجمعان هناك وفق برنامج سري مدروس سلفا، ينفذ بتبصر وحكمة على ضوء ما قرره فى خططهم السرية لاستكمال مشروع نهاية الحماية الفرنسية على شمال إفريقيا.

39 - صورة الشفخ ماء العفنن من خلال الكتابات الأنجلوساكسونية - نموذج هو دجى Toni hodes، للأستاذة سميرة الفردى، مقال منشور ضمن ندوة: الشفخ ماء العفنن فكر وجهاد، ص: 63، نشر المجلس البلدى بتزيت، الطبعة الأولى / 2001م.

فاختار الاستعمار الفرنسى لتنفيذ الزحف على شنقبط جاسوسا خطيرا ومفاوضا عنيدا يدعى كوبولانى، وما أدراك ما كوبولانى، توغل فى عدة قبائل بشنقبط فاستمالم بذكائه الحاد حتى وقعت له الحماية واحدة تلو الأخرى، فأصبحوا عبدا تحت إشرافه بعد أن كانوا سادة. تمرس أولا بالجزائر، فأصبح من كبار المتخصصين فى استمالة رؤساء الطرق الصوفية لصالحه بأسلوبه الجذاب وطريقته السحرية فى قلب الحقائق لصالح الاستعمار، حتى إنه ألف كتابا فى أسرار الطرق الصوفية، ومن ثم وقع على أغازها وأصول أفكارها. فمن هو كوبولانى؟ وما هى أبعاد اختياره لربط العلاقات مع الصوفية دون غيرهم؟ وهل تمويهاته وسداجته يغري بهما المتصوفة فقط؟ أم حتى الساسة والأعيان ورؤساء القبائل؟

المستعرب كزافيه كوبولانى وأسرار علاقته بالطرق الصوفية:

ولد كزافى كوبولانى سنة 1866م بقرية مارنبا بكورسيكا، وهاجر بعد ذلك مع أسرته إلى الجزائر حيث استقر والده كمستوطن فرنسى وأثناء إقامته فى الجزائر تدرج فى التعليم ومهر فى اللغة العربية، وانخرط فى المدرسة العامة بقسطنطينية، ولما لامس منه المستعمر ما لمس عينه موظفا فى مركز إدارة البلدة، وأظهر حنكته وقوته، سرعان ما تسلى المراتب فعين سكرتيرا فى المجلس المختلط لمديرية واد شرق فى 15 أبريل 1889م وهى رتبة عالية ومنصب كبير، مهد له ذلك ليعين فى الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر سنة 1894م.

ومما لا شك فيه أن Coppolani هو اليد اليمنى للمستعمر الفرنسى بالجزائر، فهو وإن ضرب فى كل مكر وخديعة بسهم، فإنه لا ينبغي لتضليل رؤساء الزوايا الصوفية بديلا، حتى ألف كتابا كبيرا منذ عام 1897م بمعية بلدية ديون سمياه: الجماعات الدينية الإسلامية. وساعده لسانه الذى مهر فى اللغة العربية بصورة عجيبة، وكذا اطلاعه الثاقب على مختلف دقائق العادات وخبايا التقاليد، فغرف من علاقاته مع الجزائريين على قدر إنائه، فأمد فرنسا بعد ذلك بكثير من الممارسات الصوفية، ومعلومات دقيقة عن أسرار الحياة الروحية بالجزائر.

فكان من كبار مشاهير الخبراء بنفسيات الصوفية ملما بأخبارهم، بصيرا بعاداتهم، مطلعا على أحوالهم، مع اكتساب وسائل عجيبة فى التبليغ والإقناع، فكان مفاوضا ذكيا يعرف من أين تؤكل الكتف. يشيع بين الصوفية أن الدين النصرانى مسلم، وبدأ يوزع الأناجيل، فاقترح على وزير المستعمرات بإفريقيا تأسيس إدارة الشؤون الإسلامية بالمستعمرة هدفها تقصي الأخبار عن الصوفية ومدى تأثيرهم فى المجتمع، مع البحث عن طرق لفك شفرة القوة الروحية عندهم واستغلالها

لتوجيه سياسات المستعمر بها، فكلفه الجنرال ترنتيان حاكم السودان بمهمة إلى إقليم الساحل بالأقاليم الموريتانية وإلى السودان، ومالي، بغرض الاتصال برؤساء الفرق الصوفية لحملهم على قبول الاستعمار⁴⁰.

وكان أول عمل ميداني له في إقليم أولاد علوش ومشظوف بالسودان، وما إن تفاوض مع أعيان هذه المناطق حتى استمأهم. وكان يجيد لهجتهم المحلية بصيرا بحالهم، فانبهروا به وتعجبوا من معرفته فوافقه دون أدنى شرط على خضوعهم لفرنسا، واستكمل جولته تجاه تنبكتو وتعرف على كبار رجال الدين المؤثرين، وسرعان ما أغراهم ببهتانه فتبعوه، بل ذهب معه الشيخ سي الخير وهو من كبار أقطاب الصوفية في مالي يتجولان في القبائل بهدف إخضاعهم للسلطة الفرنسية⁴¹.

فنجح كوبولاني إلى حد كبير في سياساته، وأعد تقريراً استخباراتياً ضم فيه تفصيلات عن التوجهات المستقبلية لاجتياحاته، فركز على أهمية اقتحام حصون المراتب الكبير الشيخ ماء العينين واعتبر الساقية الحمراء ملتقى طرق القوافل التجارية. وما إن قدم تقريره حتى سر به وزير المستعمرات فعينه بفضل خبرته الواسعة واستشرافاته لمستقبل مآلات الاستعمار كمفوض عام للحكومة على موريتانيا في 26 أكتوبر 1904م.

وبدأ كوبولاني في الزحف على إقليم الترازة سنة 1903م، فاستغل الصراع بين اثنين من أسرة الإمارة في الترازة لصالحه، فاحتلها بدعوى توحيد الكلمة وإشاعة السلم وحماية المستضعفين، وضمان حرية التنقل وتبادل السلع. وبعد مفاوضات مكرة مع أعيان الترازة قبلوا السلطة المطلقة للإدارة الفرنسية على الإمارة.

وقد استطاع كوبولاني أن يعقد اجتماعات رسمية مع رؤساء الطرق والفقهاء وأعيان القبائل في أحواز الإمارة المذكورة، وحاول بدهائه الخارق أن ينتزع منهم فتوى فقهية تؤكد أن احتلال فرنسا لموريتانيا هو نعمة من نعم الله على الإسلام، فأشاعها أتباعه وروجها الأعيان ومن دونهم في أنحاء البلاد. وكأني بهم نزل فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁴² والحاصل أن كوبولاني قسم بعد ذلك إقليم الترازة إلى قسمين

40 - انظر الدولة السعودية آليات التطور ومظاهر التدهور للدكتور عبد الله الحاجي، ص: 13-14، نشر إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى/ 2013م.

41 - انظر تفاصيل أخبار كوبولاني في: الشيخ ماء العينين علماء وأمرء، 2/ 111-117.

42 - سورة الحجرات، الآية 16.

كبيرين يعملان معا تحت إشرافه، وزادت تلك الفتوى لتمييز وحدة الصف وافتراق الكلمة ضغثا على إباله، كما يقال.

ولم تقف أطماع الاستعمار في السيطرة على موريتانيا، بل تشوف المستشرق راندو -الذي ألف كتابا سماه زورا: كوبولاني ناشر السلم- إلى استكمال الاستعمار الفرنسي حملاته على المغرب فقال: «إن احتلال موريتانيا لا يعد في حد ذاته ذا أهمية، إذا لم يقترن بالهدف الأسمى الذي هو الوصول إلى شمالي وادي درعة. إن هدف فرنسا هو الوصول إلى الإمبراطورية الشريفة عن طريق الجنوب إقليما بعد إقليم، وقبيلة بعد قبيلة..⁴³» ويقصد بالإمبراطورية الشريفة المملكة المغربية، ويومها كان على أريكة الملك السلطان العلوي الشريف مولاي عبد العزيز.

ثم انطلق كوبولاني زاحفا نحو إقليم البراكنة في مايو 1903م فاستدعى الرؤساء والأعيان، وأظهر لهم أن قصده إشاعة الأمن والسهر على مصالحهم، وفي أقل من أسبوع أذعنوا له ووافقوه على اقتراحه وتنازلوا عن جميع امتيازاتهم واختصاصاتهم للسلطة الفرنسية، وقسم البراكنة إلى ثلاث دوائر تعمل جميعا تحت إشرافه، وكذلك فعل بإقليم تكانت حيث وقع معاهدة مع رؤساء القبائل هناك في أواخر أبريل 1904م.

تقدم كوبولاني نحو الساقية الحمراء دون مقاومة:

وهكذا استمر كوبولاني من شنقيط نحو الشمال متجها نحو الساقية الحمراء، فاستمال قبائل تكانت واحتل قرية تجكجة دون أدنى مقاومة، معتمدا على ما يشبه أن يكون حربا نفسية، إذ يصطحب معه بعض الضباط الأوروبيين ومئات من الجنود السود غالبهم من السينغال ومالي وبعض الجزائريين الذين دخلوا تحت إمرته⁴⁴، وعشرات من الجمال والبقر، فيكاد يصدق عليه قوله تعالى في فرعون «واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون»⁴⁵.

وبالجملة فقد استطاع كوبولاني أن يستولي بقوة دهائه، وفكره الثاقب على آلاف الكيلومترات دون أن يطلق أي رصاصة، بدءا من وراء نهر السينغال، ومرورا بإقليم التراززة، وانتهاء بشنقيط وما

43 - كوبولاني ناشر السلم للمستشرق راندو، ص: 152. rebert randau.

44 - انظر كيفية استعانة الاستعمار بأبناء الأمة الإسلامية ضد إخوانهم في كتاب: أجنحة المكر الثلاثة للأستاذ عبد الرحمن بن حنبكة الميداني، ص: 262، نشر دار القلم، الطبعة الثانية عشرة 2014م.

45 - سورة القصص، الآية 39.

بعدها، بل أكثر من هذا دخل تحت لوائه عدد كبير من أعيان القبائل ورؤساء الطرق الصوفية دون أي مقاومة تذكر.

وفي هذا يقول جليليه المستشرق الفرنسي مشيدا بمساعدة شيوخ الصوفية لكوبولاني: «وبعد مفاوضات شاقة استطاع كوبولي أن يزيح العقبات واحدة واحدة وأن يضم إليه المترددين ويقنع مناوئيه، كل ذلك بفضل معرفته العميقة بالنفسية المسلمة، وإتقانه للغة العربية. وأخيرا كسب كل أولئك.. إلى أن قال: ومن هنا فإن هؤلاء الشيوخ المتدينين هم الذين مهدوا لنا الطريق وأدخلونا إلى موريتانيا..»⁴⁶.

وتوالت السنون ودخل عام 1905م، فبدأ كوبولاني يقترب من الشيخ ماء العينين. ولم ينجح هذه المرة بدهائه الخارق في استمالة قبائل الصحراء الموالية للشيخ ماء العينين، بل هناك شنت عليه قبائل إدوعيش الهجومات تلو الأخرى بإيعاز من الشيخ ماء العينين، فنجحت في ذلك بقيادة الأمير أحمد محمود بن بكار، لكن النقيب الفرنسي افريجان -الفيلق العسكري لكوبولاني- أغار فجأة على مخيم الأمير بكار في 11 أبريل 1905م واستغل انشغال مقاتلي إدوعيش ببعض أمور الدنيا خارج المخيم فباغته النقيب المذكور، وجرت مناوشات جرح من خلالها الأمير بكار، وتأثر بتلك الجروح فمات بعد ثلاثة أيام من تلك الإغارة.

وباستشهاد رئيس قبائل إدوعيش أمير بكار يكون كوبولاني قد نجح في تحطيم الدرع الواقى للشيخ ماء العينين - أو بالأحرى الجدار الأخير الذي بينهما.

تحريرات الشيخ ماء العينين لترتيبات الاجتياح الفرنسي للصحراء:

أشار بعض المؤرخين الموريتانيين أن الشيخ ماء العينين كان يقوم بجولات استطلاعية بقبائل الرقيبات وتكانت في نفس اليوم الذي مات فيه المجاهد بكار يحثهم على الجهاد والتصدي للزحف الاستعماري، مكثفا مساعيه لتقوية أسس الوحدة ولم الشعث بين قبائل إدوعيش⁴⁷ والمؤاخاة بينها وبين القبائل الأخرى. وقد ضاق كوبولاني ذرعا بتحركات الشيخ ماء العينين لما لها من أثر كبير في نسف جميع خططه الماكرة⁴⁸، حتى نقل عن كوبولاني أنه قال: «لا بد من إنشاء قاعدة وطيدة شمال نهر

46 - التوغل الفرنسي في موريتانيا للرائد جليليه، ص: 112-113. قدم له m. carede الحاكم العام في إفريقيا الغربية، تعريب الدكتور محمدن ولد حيمين، نشر دار الضياء.

47 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرأء للطالب أخيار بن الشيخ مامين، 2/ 151.

48 - انظر فنون من حيل الاستعمار في كتاب: أجنحة المكر الثلاثة للأستاذ عبد الرحمن بن حنكة الميداني، ص: 213 وما بعدها.

السينغال تصلح لأن يبدأ منها الزحف على أدرار مستقبلا، وتحد من توطيد نفوذ الشيخ ماء العينين في الإقليم كزعيم ديني مناوئ للفرنسيين..»⁴⁹.

وما يدل على عرقلة ماء العينين لسير كوبولاني في تقدمه في قبيلة تكانت، أن محمد المختار أحد كبار أعيان تكانت تفاوض مع كوبولاني مفاوضات معمقة لإمضاء الحماية على ما تبقى من قبائل تكانت وقبل شروط صارمة، لكن تلك المفاوضات عكرها الشيخ ماء العينين وأفسدها، وفي هذا يقول المستشرق الفرنسي جيليه: «إن محمد المختار استجاب لنداء كوبولاني فجاء للتباحث معه، ولكنه سبق أن أشرب نفوذ عدونا العنيد مرابط السمارة ماء العينين لما دعا جميع قبائل إدوعيش للمقاومة حتى النهاية..»⁵⁰.

وكان كوبولاني عازما على تنفيذ الشق الثاني من خطته، وإن كان يعلم سلفا أن ذلك الأسلوب التمويهي لا ينفع مع الشيخ ماء العينين، لأن ذلكم المجاهد المغوار بحكم دفاعه المستميت عن وطنه وشهرته الواسعة بصد المعتدين، ومكانته عند رؤساء الطرق الصوفية لم يرض أن يقابل كوبولاني بواسطة، فضلا عن أن يتقابلا وجها لوجه، ويتفاوضا رأسا لرأس، بله أن يكون تحت حمايته.

ولعلي لا أبالغ إن قلت: بأن كوبولاني أعلم الناس وقتها بفشل الالتقاء مع الشيخ ماء العينين، وأنه بات من الصعب الاستمرار في التمويه الذي ألفه مع الآخرين، لذا اختار الاحتمال الأسوأ والاختيار الوحيد وهو: الحرب، فقد استعد له بما فيه الكفاية، لما أرسل رسائل للحاكم العام للمستعمرات بإفريقيا بمدته - وبأقصى سرعة ممكنة - بمزيد من السلاح، والجنود، والخبراء والجواسيس وغيرها من الأمور التي تدخل في ما بات يصطلح عليه عسكريا بالأهداف الجيوستراتيجية لاجتياح الساقية الحمراء، لأنه يعرف ماذا ينتظره إن توغل في جهة الشيخ ماء العينين. نعم، يبقى له احتمال استعمال دهائه التفاوضي وإن بشكل آخر وبصورة مغايرة، لكن مخبريه الذين يتجولون عن اليمين وعن الشمال هناك أفادوه بضرورة تغيير قواعد سياسته من المكر، والتحايل، والإغراء، إلى الحرب، والاستعداد للقتال، والمواجهة المباشرة.

والحقيقة أن كوبولاني يعرف جيدا أكثر من غيره أن الحرب المحتملة بينه وبين الشيخ أن الأوان أن تبدأ، وكل محاولاته الرامية إلى ما يسميه صلحا وتقاربا باءت بالفشل، فأصبح كل منهما يمكر

49 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرء، 2/ 122 .

50 - التوغل الفرنسي في موريتانيا للرائد جيليه، ص: 125-126 بتصرف يسير.

لآخر، ويستطلعان أخبار بعضهما في تنافس قوي، حتى إن جيوش كوبولاني قاب قوسين أو أدنى من التقائهما مع المجاهدين التابعين للشيخ ماء العينين. وقعت قبل التقائهما مفاجأة غريبة اهتزت أرض فرنسا بسماعها، وارتعدت فرائس مستعمراتها لآثارها، وقامت وقعدت بسببها، وهي: اغتيال المنظر العام للسياسة الاستعمارية الفرنسية بإفريقيا كوبولاني، قبل تقدمه بأدنى خطوة نحو الشيخ ماء العينين. نعم، قد يفاجئك هذا الخبر ويتباك الآن شعور قوي يغمر شرايين جسمك، وإحساس غريب يختلج في داخلك، وكأن سائلا يسألك سؤالاً نفسياً:

هل الشيخ ماء العينين هو الذي قتل كوبولاني؟

تشير الروايات الرسمية أن الشريف سيدي بن مولاي الزين رأى في النوم أنه قتل ثعبانا أسود الرأس، فقص رؤياه تلك على الشيخ محمد محمود شيخ طائفة الغضف وهي طريقة صوفية، فقال له: ستقتل كوبولاني، فقام من عنده وهو مصمم على قتله، فخرج سرا من قبيلة الزرقة بأردار بمعية عشرين مسلحا وتوجه إلى تجكجة، وانتظروا حتى حل الظلام فصادفوا مولى سبق أن خدم في معسكر كوبولاني فأخبرهم بجميع تفاصيل مساكن الجنود وبيت كوبولاني، فأوصى الشريف زملاءه فقال لهم: لا يصدر منكم أي تصرف حتى تسمعوا مني التكبير فاتفقوا على خطة دقيقة نفذوها بذكاء ثاقب وشجاعة نادرة، فقتل كوبولاني بطلقات نارية، فكبروا الله أكبر، الله أكبر، وذلك مساء الجمعة 7 ربيع الأول 1323 هـ الموافق لـ 12 مايو 1905 م.

لكن الاستعلامات الفرنسية ومعها كتاب الاستعمار وجواسيسها فندوا في تقاريرهم تلك الرؤى المحكية، والرواية المذكورة، فاتهم العقيد مونتاني الشيخ ماء العينين بأنه هو الذي قتل كوبولاني، فقال إثر الترويج لحملة عسكرية ساحقة مستقبلية على أدرار ردا على اغتيال كوبولاني: «إن المشكلة الأساسية التي تواجهنا إلى حد الآن في موريتانيا ظلت دائما منبعثة من الخارج، وتكشف باستمرار عن دور شخصي أساسي للشيخ ماء العينين، فمما لا شك فيه أن اغتيال كوبولاني تم بإيعاز منه...»⁵¹.

والشيء نفسه قواه المستشرق الفرنسي جيليه لما قال: «وكان هو المحرض -أي ماء العينين- على قتل كوبولاني في رسالة بعث بها مع أحد أبنائه حصل عليها العقيد مونتاني كبديسك تعطي تفاصيل توحى كثيرا بتصرفات مرابط السهارة...»⁵² لكن الشيخ ماء العينين -أو بالأحرى أبا

51 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرأ للطالب أخيار بن الشيخ مامينا، 2/ 163 بتصرف يسير.

52 - التوغل الفرنسي في موريتانيا للرائد جيليه، ص: 142-143.

جهنة⁵³ - لم يؤكف أو ىنف من خلال المصادر التي اطلعت عليها أن له فدا ف ذلك، فلزم رحمه الله السكوت، خلافا للمؤرخفن المورفانفن فأنهم فروجون أن الشرف المذكور هو الذى قتل، وقد فكون ف بعض الأحيان السكوت على خبر الواحد الفعلى، أفضل من إشاعة التواتر اللفظى، أو بفعفر الإمام البوصفرى: ومن شفة الظهور الخفاء⁵⁴، فتأمل.

وهكذا كان كوبولانى رفا من الزمن على عافه فباطل وفعارض الحق الواجب بالباطل، حتى لفى حفه صفة. وشفه التاريخ أن المسفر طالما حصن جداره بالفولاذ الصلب، لكن الشفء ماء العفن استطاع وبدهاء خارق أن فحدث ففه ثفرة فمرف منها سهمه فأصاب كوبولانى ف مقتل، ولولا خشفة الإطالة لسرقت تلك الواقعة بففاصلفها، ولكن أكتفى بالإحالة على المصادر التي اختصرتها منها لمن أراد مفزفا من التوسع والإفصاح⁵⁵.

استغلال المفاهد ماء العفن موف كوبولانى لصاحه:

لا شك أن هلاك كوبولانى أفاث هزات علفة ف قواعف سفاسة الحرب عند الاستعمار الفرنسى، فاهتبل ذلك الشفء ماء العفن فرصة سانحة لصاحه عملا منه بالمثل القائل (مصائب قوم عند قوم فوائف)، لما بافر إلى كثر من القبائل التي كانت فحت لواء كوبولانى فرفها إلى صفوفه، فزاف لخصونه قوة على قوة، ف وقت ففخط ففه القوات الفرنسية فخط عشواء مع فشتت البال، واقتلال النظام، واضطراب الحال، وانحراف ف توقعاف المآل، ففجاهلة مصفر فوغلافها الفاشلة. فأن رجعت إلى نواكشوط اعفر ذلك عارا ف ففن الإمبراطورفة الفرنسية، وإن ففدمت ففدت لها القبائل التي فوجد ففها القوات الفرنسية فومها لأنها ففصلت من ذلك العهد الذى أبرمته مع كوبولانى، فأحلّى الأمرفن مر.

فر أن الضربة القاضفة التي وجهها المفاهد ماء العفن للفرنسففن هف: ضفباع المكاسب التي حققوها منذ سنوات طوال لما كانوا فبفلعون القبائل واحدة واحدة بفعوى إشاعة الأمن والسلم، وحرفة الففقل.. ففقدموا آلاف الكفلومترات وسرعان ما انقلب كل ذلك رأسا على عقب لفاففة الشفء ماء العفن.

53 - والقصف هنا قول الشاعر: فسائل عن حصفن كل ركف وعفد جهنة الخبر الففن. انظر كتاب الفافر للمفضل بن سلمة بن عاصم، ص: 126، ففقق عبف العلئم الطحاوى، نشر دار إفاة الكفب العربفة، عفسى البابى الحلفى، الطبعة: الأولى/ 1380هـ.

54 - هذا عجز بفف للإمام البوصفرى ف همزفته، صفره: واخففى منهم على قرب مرآ... ه ومن شفة...

55 - انظر: كوبولانى ناشر السلم للمستشرق رافف، ص: 196. وكذا الفوغل الفرنسى ف مورفانفا للرائف فلفففه، ص: 135-136.

وإذا كانت الآثار التي خلفها مقتل كوبولاني - أو بالأحرى الثعبان ذي الرأس الأسود - بعثت كل الأوراق، وقوضت جميع الخطط وجهدت المشاريع الاستعمارية، بل وخلف حالة من الخوف والذعر بين رؤسائها، فإن الفرنسيين ألهمهم ذلك كثيرا. وعملا بقوله تعالى: ﴿قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾⁵⁶ نورد شهادة جيليه الفرنسي عن ذلك الحدث، وعنه يقول: «انتشر خبر مقتل كوبولاني بسرعة في موريتانيا كاملة.. فكل القبائل التي كانت قد دخلت في محادثات من أجل إعلان الخضوع بفضل مهاراته في المعلومات استعادت فوراً حريتها في التصرف، وهناك قبائل أو فصائل سبق أن أعلنت خضوعها ذهبت متمردة، وأمير أدرار، وكذلك مرابط الصحراء ماء العينين والذي حرص على قتل كوبولاني يعتبران هذا الحدث نجاحاً مهماً فأصبحت ثقتهما وتصميمهم على مواجهتنا بالمقاومة أكثر حيوية وأشد دعماً»⁵⁷.

وارتبك الفرنسيون ارتباكاً جعلهم يتخوفون من الشيخ ماء العينين، فعقد العقيد متنايه كابدوسك الذي حل محل كوبولاني اجتماعات مع كبار الخبراء العسكريين فاختلفوا في كيفية ردع الشيخ ماء العينين فنصحه بعضهم بقوله: «لا بد أن نتحرك قبل أن تتحد القبائل في حرب مقدسة كما يسعى لذلك الشيخ ماء العينين..»⁵⁸ نعم قد ذهبت دون رجعة تلك الفترة التي قضاها كوبولاني لما استطاع كما قال الأستاذ الفيلاي: «أن يحتل الترابزة عام 1903م والبراكنة 1904م وهاجم منطقتي تاكانت وأدرار.. لكن فرنسا قررت وقف التوغل بعد مقتله..»⁵⁹.

ويعتبر جيليه من أشهر الكتاب الفرنسيين الذين دونوا أسرار الاجتماعات السرية لجيوش بلاده، فقال متأسفاً على ما آل إليه الأمر بعد وضع خطط ما بعد كوبولاني: «إن الرجل الذي سيكون أخطر عدو لنا في موريتانيا هو شيخ السمارة»⁶⁰، فقد برز جلياً للعيان بعد مقتل كوبولاني، فإنه هو الذي من زاويته ينظم المقاومة ضدنا، فقد كتب إلى كل مشايخ موريتانيا يستحثهم على حمل السلاح لمقاومة تقدمنا وطردها إلى الجنوب، وأرسل مبعوثين يجوبون مخيمات تكانت، والرقبة، والحوض،

56 - سورة يوسف، الآية 26.

57 - التوغل الفرنسي في موريتانيا للرائد جيليه، ص: 135-136.

58 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرء للطالب أخيار بن الشيخ مامين، 2/ 161.

59 - التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير للأستاذ عبد الكريم الفيلاي، 241/7، نشر شركة ناس للطباعة القاهرة، الطبعة الأولى/ 2006م.

60 - ويريد به طبعا الشيخ ماء العينين.

وحتى المناطق الخاضعة لنا من موريتانيا السفلى داعيا إلى الجهاد وواعد بتقديم السلاح والذخيرة، وبدعم من سلطان المغرب..⁶¹

الإغارة على أنوير ماش وإخلاء جنود الاستعمار مواقع مهمة:

ذكر جيليه Giller هذا الإغارة، وقال في كتابه التوغل الفرنسي في موريتانيا: «في 20 يوليوز غادر بيرجي Berger انواكشوط بقافلة من المؤن، وكتيبة مؤلفة من الملازمين سيموند Simond وأنديره ومونييه Maignier وبولي pollet وأربعة ضباط صف و160 من الحرس والقناصة و22 من الكوم المناصرين وكان لديهم احتياط من الماء في حدود 2500 لترا، وكان الفصل حارا وقبل الوصول إلى بئر أنوير ماش هوجمت القافلة من قبل الأعداء..⁶²

فوصف بير بونت الحادث بقوله: تم توجيه طابور من التراززة تحت إمرة Berger وتم الإيقاع بها في أنوير ماش من طرف محاربي أدرار الذين استطاع دفعهم، ولكن عندما استأنف طريقه نحو الشمال وجد الآبار مردومة من قبل المقاومين فتكبد خسائر فادحة 24 قتيلا منهم بسبب العطش وبقي طابور الإمداد مشلولاً في برجيات في منتصف الطريق بين التراززة وأكجوجت مهددا بضربة أخرى.

وفي غشت تمت محاولة أخرى للتموين انطلاقاً من مركز نواكشوط بواسطة وحدة تحت إمرة الملازم غوبير، ولكنها سجلت هي الأخرى إخفاقاً، إذ تعرضت القافلة للهجوم وتكبدت خسائر فادحة، فقطع التموين بين مركز نواكشوط وبين كثير من فروع هذا المركز. وهذه سياسة جديدة أظهرها مريدو الشيخ ماء العينين وهي ترك جنود الاستعمار يتوغلون في الصحراء مع ردم الآبار التي يشربون منها فيزيدون عطشاً، ومن ثم تشل حركتهم، فيضعفون عن الجهاد، فإما أن يموتوا بسبب العطش، وإما أن يباغثهم المجاهدون وهم أقوى حركة عنهم، وأشد بأساً منهم فيقتلون. وكان الشيخ ماء العينين يقول لهؤلاء بلسان القرآن: «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً»⁶³ فلم يكن لهم من خيار إلا الرحيل.

61 - التوغل الفرنسي في موريتانيا للرائد جيليه، ص: 137.

62 - التوغل الفرنسي في موريتانيا للرائد جيليه، ص: 163.

63 - سورة النساء، الآية 76.

إخلاء المستعمر الفرنسي مركز أكجوجت وتقهقره إلى الوراء:

لا شك أن سيطرة رجال الشيخ حسنا - نائب الشيخ ماء العينين في الجهاد - على كل المسالك المؤدية إلى موقع أكجوجت وعزله بالكلية عن قوافل التموين، نتج عنه تغيير في سياسة التقدم نحو الساقية الحمراء، وضرورة الرجوع إلى الوراء، وهذا ما جعل العقيد غورو يقوم بزيارة لمدينة دكار لمقابلة قائد قوات غرب إفريقيا، فقدم له تقريراً حول رسالة المجاهدين وضرورتهم في القتال منبها إياه إلى قطعهم طرق التموين منتهجين سياسة ردم الآبار، فوافقه القائد على ذلك، فحصل غورو على ألف فرنك لشراء 300 من الجمال اللازمة لإخلاء أكجوجت، وحتى معدات البناء التي تعذر عليه حملها قام بتدميرها بالكامل.

وهكذا تلقت القوات الفرنسية الضربات تلو الأخرى على يد المجاهدين وتكبدت خسائر جد فادحة في العتاد والأرواح، وكانت الجرائد الفرنسية يومها تشيع كذبا وزورا أن الجنود ماتوا عطشا، وبعضهم ضل الطريق فمات، نظرا لصعوبة جغرافية الصحراء. وهو افتراء مكشوف وبهتان واضح، ومحاولة للتستر على الحقائق.

وإلا فهذا بيير بونت يقول معترفا بالهزيمة جراء إخلاء أكجوجت: «كانت الضربة قاسية بالنسبة للفرنسيين الذين شلت حركة غالبيتهم والذين عليهم أن يخلو مركز أكجوجت نظرا للخسائر المعتبرة والمكلفة في الرجال، ومع ذلك يتوالى ضغط تلاميذ الشيخ ماء العينين في الشهور اللاحقة.. وهذا الضغط يمارس حتى في الجنوب في المناطق المحتلة منذ سنوات من طرف الفرنسيين..»⁶⁴.

وهكذا ضاق أتباع ومريدو الشيخ ماء العينين ذرعا بالمستعمر الفرنسي وحالوا بينهم وبين ما يشتهون كما فعلوا بأشياعهم الإسبان من قبل، ولم يكتف أولئك الأتباع بإبعاد الاستعمار فحسب، بل تبعه إلى معاقله بعد هذا الإجلاء، وخاض معه في أقصى أعماق التراب الصحراوي عددا من المعارك الضارية. ف وقعت معركة العزلات 4 يونيو 1908م ومناوشات عند أكديم الفران في شهر يوليو، ومعركة الرشيد 16 أغسطس، ومعركة لتفتار 15 أكتوبر 1908م، ومعركة المجرية 26 نوفمبر، وهجوم لكويشيش 27 نونبر، ووقعة تنشيه في فاتح دجنبر. وغيرها من المعارك التي أوصلها المؤرخون إلى ما يقرب من 140 هجوما.

64 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرأ للطالب أخيار بن الشيخ مامين، 2/ 229.

والحاصل أن هؤلاء الوطنيين الصحراويين ومعاونيهم من الداخل دافعوا عن بيضة الإسلام، وحوزة وطنهم فلقنوا المحتل دروسا بأسلة ومواقف جهادية ضارية، تاركين صورا رائعة تعبر عن مدى صدقهم والدفاع عن وطنيتهم، والتشبث بملكهم، ستبقى راسخة إلى الأبد في جبين تاريخنا المعاصر.

كل هذا جعل بدير بونت يعترف بمرارة قائلاً: «إن سنة 1908م كانت بحق أصعب سنة وجدت فيها القوات الاستعمارية نفسها في وضعية دفاعية باستمرار، وأرغمت على إخلاء جزء من المناطق التي احتلتها، وتبين أن الاستراتيجية التي اعتمدتها المقاومة كانت جد فعالة..»⁶⁵ فكان بذلك أتباع الشيخ ومريده كالذهب الإبريز لا يزداد بكثرة عرضه على الطلاء إلا صفاء ولمعانا وقوة.

هذا وقد انتشر جهاد الشيخ ماء العينين في مختلف الأوساط العلمية انتشارا، جعل الزركلي يصف في كتابه (الأعلام) جهاده ضد الاستعمار بقوله: «كانت له مواقف ووقائع في مقاومة الاستعمارين الفرنسي والإسباني في المغرب، وأن الشعب المغربي أسند إليه في العام الأخير من حياته قيادة الجهاد، واجتمع لديه جيش من تلاميذه ومن رجاله، ومن قبائل الرقيبات، وأولاد دليم، وأولاد أبي السباع، والتكنة، والشلوح، وسائر قبائل السوس..»⁶⁶.

بداية الزحف الفرنسي على آدرار وتراجع المقاومة:

وخلال الشهور الأخيرة من سنة 1908م راجعت القوات الفرنسية سياساتها، فشرع العقيد غورو في الاستعداد لحملة كبيرة جدا على آدرار، ووافقته الحكومة الفرنسية على ذلك، وقد بين بدير بونت تكاليف تلك الحملة فقال: «حصل العقيد غورو في سبتمبر 1908م على الإذن بإنشاء قوة عسكرية لغزو آدرار، وتم تقدير التكلفة بـ: 1500000 فرنك فرنسي 300000 على ميزانية المستعمرة و1200000 على حساب الدولة..» فحشد غورو أقوى تجمع عسكري في شمال إفريقيا على الإطلاق؛ ثم عقد المجاهدون في آدرار مؤتمرا عاما ضم كل القبائل استعدادا لغارات غورو، ف وقعت عدة معارك كمعركة آماطيل، وحمدون، وأطار، وأغسمرت، وأقصير الطرشان، وأحواز آدرار.

65 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرء، 2/ 240.

66 - الأعلام للزركلي، 7/ 244 هامش - 1.

وهكذا لقن المجاهدون لغورو دروسا في البسالة والتحدي والكفاح طيلة سنة 1909م حتى دخل إلى أطار، فاستجمع قواه من كل المستعمرات الأخرى ليتجه بها دفعة واحدة نحو الصحراء، ومن ثم بدأت القبائل مضطرة للدخول تحت حكمه فبالغ ذلك الغورو في العناد، وأظهر في الأرض الفساد، عرفه بذلك أهل المنزل والناد، فبدأ يصول ممثلا بجثث القتلى، وخلا له الجو فاتكأ بيديه على تلك القبائل. فتقدمت قواته نحو السمارة في زحف يشبه التتار، الأمر الذي جعل السلطان مولاي عبد الحفيظ يخشى على الشيخ ماء العينين فأوصاه بالذهاب إلى تنزيت من أجل سلامته، وأرسل له رسالة بعثها مع ابنه أحمد الهبية يأمره فيها بترك قتال النصارى إلى أن يلتقي معه...⁶⁷. فقال الشيخ ماء العينين مجيبا: «مرحبا وأهلا وسهلا والمكفي سعيد، وها نحن إن شاء الله على نية الرحيل سريعا بحول الله وقوته لقانا الله فضله..»⁶⁸ فرافقه إلى تنزيت آلاف الطلبة والعلماء، وعامة الناس ومريدهو إلى أن توفي بها في 21 شوال 1328هـ الموافق لـ 26 أكتوبر 1910م.

خاتمة:

تلكم إذن كانت نبذة موجزة عن صفحات مشرقة ومواقف مشرفة من حياة الشيخ المجاهد ماء العينين. فكلها كفاح وجهاد ودفاع عن حوزة الوطن، كان لها دور في الحفاظ على هوية المغرب وصحرائه، وما كان ذلك ليكون لولا قوة علاقة ولائه بالأشراف العلويين ومبايعته لهم، وإمدادهم له بالسلاح والعتاد، فأهله ذلك لمواجهة التسربات الأوربية على طول السواحل الصحراوية، وزادته القبائل الصحراوية التفافا حوله لما سعى إلى الإصلاح بين قبائلها، فضلا عن توحيد الطرق الصوفية، والتآخي بين المتنازعين. وبالجمللة فقد شكل رحمه الله بذلك لحمة وطنية قوية، تحطمت عليها جميع الدسائس الاستعمارية، وكل الأطماع الغربية.

67 - "الشيخ ماء العينين ومقاومة التدخل الفرنسي بالمغرب 1884م-1910م"، مقال للأستاذ علال الخديمي، مجلة دراسات، كلية الآداب بأكادير 1987م، العدد الأول، ص: 37.

68 - الشيخ ماء العينين علماء وأمرأ للطلاب أخيار بن الشيخ مامين، 2/ 268.

الإصلاح الديني في فكر النخب المغربية خلال فترة الحماية 1912م/1956م

ذ. أنس الفيلاي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بالرباط

لازم الإصلاح الديني النخب المغربية في الشمال منذ ظهور الملامح الأولى للسلفية بالمغرب في القرن التاسع عشر، حيث بدأ الحديث عن وجوب الالتزام بمنهاج السلف الصالح واتباعه ضد ما يهدد الدين الإسلامي والاقتداء بمنهاج الرسول والصحابة والتابعين¹.

ولن يغيب هذا الوعي الإصلاحي والديني في فترة الحماية، بل زادت حدته بعد دخول المستعمر إلى البلاد، فراجعت النخب تقاليدها وعاداتها، كما تأملت فيما لحق مجتمعتها من تخلف، وكان لتكوينها الديني دور في استشعارها بخطورة تراجع الدين الذي اعتبرته سابقا سببا في العديد من المشاكل التي تتخبط فيها البلاد، لكن نظرة النخب الحداثية في بعض تجلياتها، جعلها لا تنساق بحدة مع هذا الفهم. فلقد حاول عبد السلام بنونة أن يقدم النصح والإرشادات للرجوع إلى الصواب الاجتماعي في بعض كتاباته، فيما حاول التهامي الوزاني أن يصحح الوضع من خلال ثقافته الدينية العميقة والنقاش والتحليل بشكل مطول للقضايا الدينية في كتبه ومؤلفاته، ولم يتسن لغيره من جيله أن يسايره في هذا المجال، على اعتبار تكوينه الصوفي الديني الكبير. أما عبد الخالق الطريس، فكان حلقة بين الشخصيتين، حيث نجد فيه ذلك الشخص الذي ينصح ويقترح حلولاً إصلاحية لتخطي الوضع الاجتماعي الخطير الذي كانت عليه المنطقة، وأحيانا نجده لا يهادن، ويلقي بكتاباتة الحادة في وجه الجميع.

سنحاول من خلال الشخصيات المذكورة مقارنة موضوع الإصلاح الديني بمنطقة الشمال المغربي الذي شمل مختلف المجالات السياسية والاجتماعية، مع التركيز على إشكالية الإصلاح

1 - عبد الجليل بادوا، "السلفية والإصلاح"، منشورات سليكي إخوان، طنجة، 2007م، ص: 165.

الديني الذي ربطته بشكل واضح بالوضع الاجتماعي والسياسي، وقد يكون مدخلا لتحقيق الاكتفاء الذاتي لهذين الجانبين الأخيرين.

ومن هذا المنطلق، يمكن الوقوف على أهم مظاهر الخلل الديني التي استرعت اهتمام النخب المغربية بالشمال على الشكل التالي:

1- الدين والمستعمر:

عملت النخب كثيرا على الحفاظ على المكتسبات التي جاء بها الدين الإسلامي في ظل الاستعمار المسيحي للبلاد. وقد عبر عبد السلام بنونة عن هذه المسألة في تقرير له سنة 1930م حيث نبه فيه الإسبان على وجوب احترام العقيدة الدينية والعناية باللغة العربية، ولو بالنسبة إلى التلاميذ المسلمين الذي يرهبون البكالوريا على النظام الإسباني².

وقد أدرك الطريس بدوره هذا الجانب في التعامل مع الإسبان والفرنسيين على حد سواء لأهمية الدين الإسلامي في الحياة السياسية على المستوى التاريخي، وكيف يتخذ سلاحا في إنجلترا وألمانيا وفرنسا، مقترحا أن يكون بالأساس سلاحا قويا حادا ضد الضالين والظالمين والمتجبرين والخابثين والمتاجرين بالعرض والشرف والأمانة، لأن الدين الإسلامي في نظر الطريس دين يهدي الناس ليكونوا على كلمة واحدة وقلب واحد، ويوجههم إلى خدمة الحق والفضيلة والمثل الأعلى. وبهذا المعنى يكون حسب عقلية النخب التي لا يخرج منها الطريس وجيله من النخبة الوطنية بالأساس، التي لا تفصله عن الحياة السياسية، فاعتبروا معتق الدين لا يقبل الذل والمهانة ويبعد المؤمن عن قبول ولاء الكافرين عليه³.

وعن علاقة السلطة والفرد، يرى الطريس أن الدين الإسلامي حفظ لكل منهما ما له؛ فمن جهة حفظ حق الفرد "هو دين يحفظ للفرد حقه، كما حفظ للسلطة حقها، إذا كانت تخدم مصالح الإسلام، لهذا فالدين يضع للأرض حضارة تجمع بين المادة والروح"⁴.

ويرى أن الاستعمار عمل على استغلال الملاحدة والفجار لجر ذيله، لكن الخطورة الكبرى،

2 - محمد عزيزان، "عمل الحاج عبد السلام بنونة في الميدانيين الثقافي والاجتماعي"، "صفحات من تاريخ الحركة الوطنية: الحاج عبد السلام بنونة"، م.س، ص: 34.

3 - عبد الخالق الطريس، "الإسلام بين المتحاربين"، جريدة الحرية، العدد 202، السنة 3، الاثنين 29 يناير 1940م، ص: 1.

4 - نفسه.

يراهما في استخدام الاستعمار لمن يدعون السلفية والإصلاح حيث سخرهم لهتك حرمة الإسلام⁵.

2- وجوب الدعاية الدينية:

لم تتبوأ مسألة إصلاح الدين في خطاب النخب الإصلاحية إلا حيزاً مقتضباً، لكنه ظل الخيط المسير لكافة الخطابات السياسية أو التي تمس الجوانب التعليمية والاقتصادية وغيرها، ذلك أن الدين ومقصده السلفي ظل حاضراً وموجهاً لكل الخطابات لدى النخب. وفي المقابل، رأت هذه النخب أن أهم ما ينقص الدين الإسلامي خطابات الداعين له. لذا طالبت بتجديد هذا الخطاب، بعدما كانت نخب أخرى في الجنوب سباقة لهذا الجانب، والتي حملت بدورها مسؤولية ردع العامة من بعض الممارسات الأخلاقية لـ "قادة الأفكار من مدرسين وخطباء ووعاظ شرح حقائق الديانة للعامة ونزاهتها عن كل ما يقدر في المروءة وينافي مكارم الأخلاق ومحاسن آداب على النمط البديع"⁶.

أما الطريس، فقد فسر مهمة الدين في ربط الأرض بالسما، وإضاءة جهل البشرية وغرورها وضلالها بنور الله تعالى. وفي نظره أن الدين لا يقبل من المؤمن أن يكون ذليلاً راعياً، وبخاصة أنه سلاح فتاك ضد الضالين والظالمين، والمتجبرين والخائنين، والمتاجرين بالعرض والشرف والأمانة؛ وهو في الوقت نفسه لا يقبل من لا يثور في وجه الكرامة المهانة والحق المسلوب، ولا يقبل من المؤمن أن يعبد الكافرين عوض الله، وهو دين عدل بين كافة الفئات الاجتماعية؛ فهو من جهة يحفظ للفرد حقه، ومن جهة ثانية يحفظ للسلطة حقها هي الأخرى، بشرط أن تخدم مصالح الإسلام. أما علمياً فالدين الإسلامي في نظره عمل على وضع حضارة للأرض تجمع بين المادة والروح⁷. وفي الوقت نفسه، نجد التهامي الوزاني يتقاطع مع الطريس في هذه النظرة للدين باعتبار أن الدين الإسلامي مقامه دين التوحيد والدعوة إلى الحرية⁸.

ووجهة نظر التهامي الوزاني، أن الدين الإسلامي لا يجب أن يحصر في حيز محدود ودائرة لها

5 - عبد الخالق الطريس، "الإسلام بين المتحاربين"، مرجع سابق.

6 - أحمد الصبيحي، أصول أسباب الرقي الحقيقي، مخطوط بالخزانة العلمية الصبيحية، رقم 2458، طبعة حجرية، سلا، 1917م، ص: 13.

7 - عبد الخالق الطريس، الإسلام بين المتحاربين، الحرية، العدد 202، م، س، ص: 1.

8 - التهامي الوزاني، "الرُفْرُف"، مخطوط بالخزانة العامة والمحفوظات، ج6، علبة 5، محفظة 39، ص: 408.

أول وآخر، بل يجب أن تكون البلاد كلها وطنه، مادام يتوفر على القوة والمتانة ما يجعله يحمي كل الحريات الطبيعية المعقولة للبشر⁹، معتبرا أن الذي لا يؤدي شعائر الإسلام وبالأخص الصلاة والصيام والزكاة والحج ناقص الإيمان كما اعتبرته الشريعة الإسلامية¹⁰.

ويدعو الوزاني للدعاية للدين الإسلامي في أرجاء البلاد؛ فمن جهة: وعد الله من خلال القرآن الدعاة الذين وصفهم بـ "المجاهدين" بخير الوعود، ومن جهة ثانية تعمل الشريعة المحمدية على المحافظة على ثغور الإسلام لهذا وصفتهم بـ "المرابطين الذين تعدل ليلة مرابطة أحدهم ألف شهر"¹¹. وبالتالي ربط دعاية الواعظ الديني بنصوص الشريعة الإسلامية وتكمن مهمته في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعرض للأحداث التي تحدث وموقف الدين منها بجلب النصوص المعتمدة عند علماء الإسلام. أما التخرص بالآراء وإلقاء الكلام جزافا، فإنه لا يمكن أن يجد من نفس المنصتين استمعا، بل هو هذر أهينت به كرامة بيوت الله"¹².

وانتقد الطريس بشدة كل محاولات استخدام الدين للدعاية لغير ما هو ديني إسلامي، وخص بعض علماء الشريعة بنقده، لكونهم تجرؤوا على القرآن والأحاديث النبوية، وتأويلها لقضاء مصالحهم ومآربهم للتقرب من المستعمر، منتقدا في هذا الاتجاه مجموعة من المحسوبين على السلفية الذين يدعون التحلي بأخلاق السلف وبالإصلاح وهم في الواقع يسخرون الدين للاستعمار الكافر¹³، وهم في كل ذلك على "غير هدى وبصيرة"¹⁴ موضحا أن غرضهم الحقيقي من ذلك هو "التزلف" للمستعمر الغاشم، مذكرا أن الدين الإسلامي منزّه عن العبث¹⁵.

3- محاربة الرجعية والابتعاد عن الدين وانتقاد الدعوات التبشيرية:

محاربة الرجعية لدى مناهضي حركة الإصلاح من أهم المسائل التي ركزت عليها النخب باستمرار، في دعواتها الإصلاحية للرقى بالدين الإسلامي إلى منزلته. وتكمن أهمية هذه المسألة أكثر، في حضورها الدائم لدى عبد الخالق الطريس والتهامي الوزاني باستمرار في حياتهما العملية بحسب

9 - التهامي الوزاني، "الإسلام الوطنية"، جريدة الريف، العدد 34، الاثنين 28 دجنبر 1936م، ص: 1.

10 - نفسه.

11 - نفسه.

12 - التهامي الوزاني، "فضول فوق المنابر"، العدد 549، الأحد 8 يونيو 1941م، ص: 1.

13 - عبد الخالق الطريس، الإسلام بين المتحاربين، الحرية، العدد 202، م، س، ص: 1.

14 - نفسه.

15 - نفسه.

معاصريها¹⁶. وقد عمل الطريس دائما على تنبيه الشباب خاصة، على اعتبار أنهم من دعائم الوحدة القومية، وأنهم أول من لبي نداء الواجب الإسلامي وشارك في المؤتمر الإسلامي الذي يعد اللبنة الأولى في صرح الوحدة الإسلامية، لهذا ألح على دعوتهم لمحاربة الرجعية¹⁷.

وفي السياق نفسه، يرى الطريس أن محاربة الرجعية تعتبر أشرف غاية تسعى إليها الأمة المغربية، معتبرا إياها أكبر عدو يصطدم به بعض المغاربة، وبخاصة الفئة العاملة. ومن الرجعيات المتسلطة على المغرب نجد: رجعية الأوضاع السياسية التي عملت على سد أفواه المغاربة وطمس قلوبهم وقص عقولهم، ورجعية دينية عملت على الترويج للأباطيل والضلالات وساهمت في ترك خير دين، ورجعية الأخلاق التي من خلالها أصبحت الشجاعة حمقا والصرامة جرما والإيثار بلها، وأخيرا رجعية الحكم والتشريع والتفكير والخيال¹⁸.

إن انتقاد النخب سيطال أيضا الدعوات التبشيرية المسيحية، وإن كانت تقبل بوجود مسيحيين في المنطقة، فانتقادها كان لاذعا لحملة التنصير بين المسلمين المغاربة، لذا دعا التهامي الوزاني الباشا إلى إصدار أوامره إلى المسلمين بالقضاء على الأخوات البيض بتطوان العاملات بإحدى الحارات التي تعملن فيها، وهي جماعة تبشيرية إلى الديانة البروتستانتية، وتغريم المسلمين وكل من كلم إحدى المبشرات بل وسجنه ومعاقبه بالكبراج¹⁹. ويرجع التهامي الوزاني انحطاط المجتمع بابتعاد الناس عن الله ودينه، وأن إصلاحه رهين بالرجوع إلى أحضانه، بعد أن "ضاق النطاق ونفذت الحيلة، فما بقي إلا الرجوع إلى الله والإنابة إليه، فهذه المسغبة التي فيها الناس ليست إلا سوط عذاب أرسله القهار ليعرف العباد أنهم مضطرون محتاجون إلى خالقهم وبارئهم، فقد قلت الأقوات وشددت الحاجة بالطلب وعجزت التدبيرات الأرضية، فما نفعت هذه اللجان ولا هذه الجمعيات ولا هذه المجالس، بل وقف الكل مكتوف الأيدي، فلا الناس بمستطيعين أن يقوموا بشيء ولا الحكومة تقدر أن تدفع غضب الله إذا حاق ونزل"²⁰.

16 - شهادة للأستاذ رضوان احدادو، 6 يونيو 2015م، بتطوان.

17 - عبد الخالق الطريس، "من تراث الطريس"، م، س، ص: 54.

18 - عبد الخالق الطريس، "للشعب حق يطلبه"، جريدة الحياة، العدد 4، الخميس 6 من ذي الحجة عام 1352هـ/ 22 مارس 1934م، ص: 1.

19 - التهامي الوزاني، "الطامة"، الريف، العدد 66، الخميس 22 أبريل 1937م، ص: 1.

20 - التهامي الوزاني، "لا دواء إلا في الرجوع إلى الله"، جريدة الحرية، العدد 453، 1 فبراير 1941م، ص: 1.

ومن هذا المنظور، يعود الطريس ليؤكد أن الرجعية في الدين والأخلاق والسياسة والتقاليد كانت السبب الأساسي في ابتلاء المجتمع المغربي بالمحن، وكانت الرجعية الدينية هي الأكثر خطورة لدى الفرد، حيث تحول بينه وبين الاستشارة "بالمبادئ الدينية المجردة من الضلالات والزيادات التي ألحقها المفسدون بالدين الإسلامي المبرأ من كل بهتان"²¹.

4- خدمة الوطنية للدين الإسلامي:

إن الدين والوطنية متلازمان، وعبد السلام بنونة يرى في هذا الصدد أن هذين العنصرين هامين في حياة الأمة المغربية ولا يجب عزلها عن بعضهما، وتوافرها يحتاج إلى رجال ذوي معارف واسعة حتى يصبحوا قادة ومشعلا لمصلحة الدين والوطن²². لذا يعتبر الطريس أن من يعمل ضد وطنيته فلا دين له، ويرفض تدينه، بل يعتبر أن الوطنية الحقيقية ليست سوى نتيجة للتدين الحقيقي، ذلك أن مبادئ الوطنية لا تؤخذ إلا من العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية²³.

والتجديد الإصلاحي والوطني مرتبط أساسا بالإسلام، وكل من يرى أن الإسلام يخالف التجديد في الوطنية، يعتبره الطريس تجديدا كاذبا²⁴. وفي هذا السياق لن يذهب التهامي الوزاني بعيدا عن وجهة نظر الطريس، حيث يرى أن ارتباط الوطنية بالدين هو ارتباط وثيق، شبهه بارتباط الروح بالجسد والمعنى باللفظ، واعتبر كذلك أن الدين الذي لا وطن له يحميه دين ضائع، مستشهدا على هذه المسألة بوجودها في الديانة اليهودية التي يضطر أحبارها لأن يصبغوها بجميع الألوان حتى يعيش اسمها ويعيش الشعب²⁵.

وعن الطرق الصوفية التي شنت عليها الوطنية انتقاداتها لا يعني في نظر الطريس أنهم يخضعون لعداوة يشعر بها رجال العمل الوطني للطريقين، لأن كثيرا من الطرق في المغرب تعتبر محترمة ومعظمة لدى الحركة الوطنية، كما يتميز كثير من رجال الصوفية باحترام كبير وتقدير من رجال الوطنية المغربية، ذلك لأنهم لم يخونوا الأمانة الدينية الملقاة على عاتقهم. أما التي تحاربها الوطنية فيرى أن الأيدي الأجنبية تتصرف بها كما يتصرف الساحر بأدواته. ومن هذا المنطلق قاومت

21 - عبد الخالق الطريس، "من تراث الطريس"، مطبعة الرسالة، دد، الرباط، ص: 54.

22 - محمد بن عزوز حكيم، "أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة، حياته ونضاله"، ج1، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، 1987م، ص: 99.

23 - عبد الخالق الطريس، "الوطنية والطوائف الدينية"، جريدة الحرية، العدد 404، الأربعاء 20 نونبر 1940م، ص: 1.

24 - نفسه.

25 - التهامي الوزاني، "الإسلام والوطنية"، جريدة الريف، العدد 34، الاثنين 28 دجنبر 1936م، ص: 1.

الحركة الوطنية السرية والعلنية عبد الحكي الكتاني، فيما وقفت وقفة إجلال لذكرى محمد بن عبد الكبير الكتاني²⁶.

وعلى هذا الأساس، يرى الطريس أن الوطنية في خطها الديني ترمي دائما إلى تحقيق التآخي بين المسلمين داخل البلاد وخارجها متبعة لعمل الطرق، ثم القضاء على الرجعية وكل قوة مغربية تعترض الأمة في سبيل تطورها وبلوغها إلى الرقي والسيادة، بغية إرجاع المسلمين إلى حظيرة الدين الحق من خلال إشعارهم بعظمة الإسلام الحاضر، والقضاء على فكرة استغلال الاستعمار للمؤسسات الدينية، لأن هذا الاستغلال في نظر الطريس كان من أكبر الأخطار ضد وحدة البلاد وتطورها وحريتها²⁷.

وفي السياق نفسه، يعتبر التهامي الوزاني أن العمل الوطني لكل فرد من المسلمين في كل البلاد الإسلامية يخدم القضية الإسلامية الشاملة؛ فقد دعا في هذا الإطار كافة المسلمين المنتشرين في وطنهم الواحد أن يعملوا لصالح ذلك الجزء من الوطن الكبير، وذلك لأن الوطن الإسلامي الكبير لم يبق له قيادة موحدة تقود بأكمله، وتوحد الخطط، لذا على كل واحد أن يعمل من خلال منطقته حتى تتحرر "دار الإسلام" بأكملها²⁸.

5- ضرورة الاجتهاد ونقد النصوص غير المقدسة

ينتقد التهامي الوزاني بشدة الذين يقدسون الأشخاص الذين لا يتشبتون بالنصوص الدينية المقدسة، وبخاصة منها القرآن والسنة. وقد وقف الوزاني في هذا الصدد، على حالات تقديس الناس لكل شيء قيل عنه إنه من الدين، لدرجة أصبحوا يعتقدون بكل شيء كتب، مستدلا على صحة الخرافات التي يصدقونها كحوادث واقعية لكونها حسب رأيهم من الكتب التي لا يصح نقدها، لدرجة أن العلماء اعتادوا الرضا بكل ما هو مكتوب. ولذا ينتقد الوزاني غياب ملكة النقد لدى المغاربة قاطبة، الذين أصبحوا يصدقون كل ما هو مكتوب سواء أكان دينيا أم غيره، بل وحتى إن كانت من المتجاهرين بالكبائر ومن شاربى الخمر والحشاشين والوسخين الذين أصبحوا أولياء²⁹.

26 - عبد الخالق الطريس، الوطنية والطوائف الدينية، جريدة الحرية، العدد 404، 0 نونبر 1940م، ص: 1.

27 - نفسه.

28 - التهامي الوزاني، "الإسلام الوطنية"، جريدة الريف، العدد 34، م، س، ص: 1.

29 - التهامي الوزاني، "الواجب الحيوي والعواطف"، جريدة الريف، العدد 173، الثلاثاء 14 فبراير 1939م، ص: 4.

يظهر أن نظرة الوزاني للدين مفتوحة وغير مترممة، والدليل على ذلك نظرتة للدين الإسلامي على أنه دين الفطرة لكن البشر معرضون للخطأ والغلط لا يزول عنهم إلا برحمة الله. ولعل هذه النظرة والرؤية للدين لدى الوزاني تقف على مبدأ واحد، هو إله واحد وأوحد منزه عن الخطأ والغلط. لذا يعتبر الدين تاما من يوم نزول قول الله «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» معتبرا أن ما زاد بعد ذلك فنحن في حل منه³⁰.

6- الأخلاق والنظافة متلازمان مع الدين الإسلامي

حرص عبد السلام بنونة كثيرا على العمل الصحيح بالدين الإسلامي، حتى أثناء قبوله بمسؤولية كبرى من داخل الحكومة المغربية كتقلده لمهام الحسبة. هذا ما يتضح من قوله: "لا توجد عندي رغبة في الحسبة ولكن بعض شيوخي ألحوا علي في القبول لأجعلها تسير بمقتضى الشريعة"³¹.

وفي السياق نفسه، يرى التهامي الوزاني أن الله اختار لرسوله أفضل الأخلاق وأفضل الأعمال والأفكار، معتبرا هذه الأرضية بناء للفرد، والبناء لا يقوم على غير أساس³². وبالتالي يرى أن الشعائر الدينية لا تصح بدون أخلاق ونظافة، ولا يمكن الفصل بينهما وبين الدين، لأنها في نظره متلازمان ويكملان بعضهما البعض. ويؤكد في الوقت نفسه أن سنة الحياة نفسها تكون بشكلها العادي على ما يتفق مع الدين، حيث إن العباد أنفسهم، وبخاصة منهم أصحاب النفوس الطيبة، لا يستطيعون أن يعيشوا في جوف شخص خبيث فيه من الرائحة الكريهة ما يؤذي الأنوف. ويرى أن الشريعة الإسلامية منعت أصحاب الرائحة الكريهة من الصلاة³³.

والنظافة لا تعني فقط الالتزام بما أتى به الله في كتابه، بل ترتبط بشكل متلازم بسنة الرسول ﷺ وأفعاله، لهذا يدعو إلى الالتزام بهما معا حتى يتحقق المراد كما يجب في الدين. ومع أن السنة في نظره أكثر تفصيلا لمسألة النظافة، فإنه يرى أن الرسول ﷺ كان أنظف الناس، وحتى إن عرق فقد كانت تفوح منه رائحة المسك والعنبر والطيب، وكان التهامي الوزاني يحض دائما على السواك بلا عد، ويحض على تنظيف الأسنان ولا يكاد يوم يمر عليه دون أن يغتسل مرة وكان حريصا على التجميل.

30 - التهامي الوزاني، "موقفنا من اليهود"، جريدة الريف، العدد 170، الثلاثاء 17 يناير 1939م، ص: 1.

31 - محمد ابن عزوز حكيم، "أب الحركة الوطنية...."، ج 1، م، س، ص: 110.

32 - التهامي الوزاني، "الرurf"، مخطوط بالخزانة العامة والمحفوظات، ج 3، علة 5، محفظة 40، ص: 161.

33 - التهامي الوزاني، "مصلى يوم العيد"، جريدة الريف، العدد 321، 30 أكتوبر 1942م، ص: 1.

مؤكدًا بأن الدين الإسلامي لا يحتمل الأوساخ والأدران، فالدين بالنسبة إليه وحدة كاملة منسجمة مع بعضها، فدعا إلى تصفية الباطن من أمراض القلوب ونظافة الجوارح حسب القرآن والسنة³⁴.

ومن الأخلاق التي يجب على كل المسلمين الالتزام بها الصدق في القول، الذي يعتبره الوزاني ضروريا وأساسيا مهما كانت النتيجة لدى الفرد، لأن الدين الإسلامي أمر به وحث عليه؛ ومنها أيضا أن يوفي الفرد في الكيل والميزان. لذا ففي نظره أن الأخلاق القرآنية دليل الفرد على النجاح في الدنيا وشؤونها³⁵.

ومن ناحية أخرى، ربطت النخبة اليسر في العمل بالأخلاق، محاولة إظهار يسر الدين فدعت إلى ممارسة شعائره؛ فالتهامي الوزاني يتناول الزكاة على سبيل المثال بشكل مختلف، حيث لا يقدمها في الممارسة المادية بين الفقير والغني، أو بين الفقير والفقير، بل يبين أن الله فرض في كل شيء زكاة، على الجوارح زكاة، مثلما أوجب على المال زكاة، وأوجب على الزمان زكاة، وعلى القول زكاة، بل ويعتبر أن كل نعمة تصيب العبد فهي زكاة؛ لهذا فزكاة البدن بالحج والصيام، وزكاة الزمان بملء الأوقات بعبادة الله وحده، ثم زكاة القول في ذكر الله، وتلاوة القرآن والأمر بالمعروف أو الصدقة أو إصلاح ذات البين بين الناس. وفي المقابل يرى أن الشريعة الإسلامية خصصت شهر رمضان لأن يكون لله لدى كافة الشرائع الاجتماعية³⁶.

7- نقد عادات الطرقية والتبرك بالأضرحة

أ- الزوايا والطرقية نزلت بالإسلام وضياع الدين

كانت علاقة النخب بالزوايا والتصوف في البداية علاقة تناقض وصراع تام، حيث ظلت عدة نخب من عدة مناطق بالشمال كتطوان من "المقاومين لفكرة التصوف ورجالاته وأعمالهم، فكانت منهم معاكسات ومقاومات حتى أدى الحال ببعضهم للسجون والمحاكمات"³⁷، لكن الذهنية المغربية بنخبها وعامتها، ستغير من نظرتها لهذه الحالة في أغلب المرات، حتى تصبح الصورة الواضحة، وبخاصة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بمثابة علاقة روحية وضرورية بين الزوايا والمتصوفة وبين عامة الناس والنخب.

34 - التهامي الوزاني، "يكفي مع العمل علم يسير"، جريدة الريف، العدد 312، 28 غشت 1942م، ص: 1.

35 - التهامي الوزاني، "الأخلاق دعامة للنجاح"، جريدة الريف، العدد 314، 11 شتنبر 1942م، ص: 2.

36 - التهامي الوزاني، "الخير كله في شريعة الله"، جريدة الريف، العدد 315، 18 شتنبر 1942م، ص: 1.

37 - محمد داوود، "تاريخ تطوان"، الجزء 1، منشورات معهد مولاي الحسن، مطبعة مكتبة كريمة ديس، تطوان، دت، ص: 306.

وسيطغى على النخب الدينية الشمالية في فترة الحماية وقبيلها، وبخاصة في صفوف مريدي وشيوخ الزوايا الذين غلبوا على الساحة على غيرهم من النخب، الفكر الخرافي على فكر أغلبهم بما في ذلك الممارسة الدينية؛ ومنها ما كان يقوم به التهامي الوزاني عندما كان يقوم بجمع شعرات لحية أستاذه الفقيه أحمد بن حمزة، التي كان يأخذها ويقبلها ويضعها فوق عينيه وفوق رأسه، ثم يحتفظ بها في مكان آمن للتبرك بها، لأنها عنده أثمن شيء وأغلاء³⁸، أو خلال الممارسة التعليمية التي كانت تلقى الدروس فيها وسط طقوس احتفالية خاصة. "وإذا كان وقت الدرس كان بخور العود يعبق به المكان حتى إذا فرغنا من الدراسة أحضرت آنية الشاي، وقدمت صواني الحلوى، وفي هذه الأثناء يكون المزمرون يرددون الأذكار، وقطع الموسيقى الجميلة، وأبياتا من همزية البوصيري وكلام القوم"³⁹.

وهذا يوضح جوانب من تمثل النخبة بالشمال للزوايا في تلك الفترة، ولعل أبرز الكتابات الشهيرة التي عاجلت هذا الوضع في العشرينيات من القرن الماضي من زاوية إصلاحية نقدية، كتاب "إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة" لمحمد المكي الناصري الذي تعرض لانتقادات لاذعة من لدن عدد من الكتاب والمتصوفة في ذلك الوقت، جراء نقده لعدد من الظواهر والعادات والسلوكات، في مقابل إعطاء "علاج الأمة الناجح ودواؤها النافع". ولعل الصورة الواضحة في هذا الشأن في قوله: "علاج تلك الأدواء الفتاكة التي أصيب بها الدين الإسلامي ومحاربة البدع والأحداث يجب أن يكون من جهة النابتة الجديدة والناشئة الجديدة، لا من جهة الشيوخ علماء أو عامة، لأن هذا الصنف من الناس قد استحكمت فيهم الأمراض، فليس إلى شفائهم منها سبيل"⁴⁰. ولأهمية وكثرة انتقادات هذا الكتاب الإصلاحية القيم، كتب محمد بن اليميني الناصري كتابا للرد على منتقديه، جاء فيه: "وبعد هذا كله قام أخيرا أحد البله من الشباب الرباطيين، المتظاهرين بالانتصار للطريقين، فحاول تزييف ما في (الإظهار)"⁴¹.

38 - التهامي الوزاني، "الزاوية"، مراجعة وتقديم: عبد العزيز السعود، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة تراث 7، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2008م، ص: 18.

39 - نفسه، ص: 109.

40 - محمد المكي الناصري، "إظهار الحقيقة وعلاج الخليفة"، ط1، مطبعة النهضة، تونس، 1925م، ص: 42.

41 - محمد بن اليميني الناصري، "ضرب نطاق الحصار على أصحاب نهاية الإنكسار"، المطبعة الأهلية، الرباط، بدون تاريخ ولا صفحة.

وبالتالي، فحتى إن فرض على التهامي الوزاني في طفولته الانسياق في مجموعة من المظاهر الطرقية، نجده يحارب رفقة عبد الخالق الطريس هذه العادات الدخيلة على التصوف بكل الوسائل المتاحة والممكنة ومنها الكتابة والخطابة والتأطير لمحاربة كل مظاهر الانحراف الاجتماعي⁴².

هذه المعتقدات والطرق لدى النخب لم تكن حالة عامة لدى باقي النخب، بل انتقدتها وحاربتها نخب أخرى كان فكرها لا يقبل هذه الأمور، والتي وجدت ضالتها لدى عدد كبير من النخب الدينية، والعامة. هذه الأخيرة، كانت لها كل شروط تقبل كل هذه المعتقدات التي لم تكن غريبة على المجتمع المغربي، لذلك حين كان الشريف الريسوني يشتغل في الطب، ويبارس مهامته العلاجية، كان الناس يخلطون بين ما هو طبي وبين الولاية والكرامات، فينسبون علاجه لهم بالنية والبركة، فيقولون "متاع الله الله أسيدي عبد السلام"، ويحييهم "هي علوم وقواعد وتجارب وإرشادات لا دخل فيها لما يظنون أنه من الولاية أو الكرامات"⁴³. وكانت للتهامي الوزاني النظرة نفسها، فظل ينتقد هذه العادات معللا ذلك بأن الرسول ﷺ حارب هذه الأوهام والخرافات المتوارثة⁴⁴.

كما ظل العديد من الطرق كنقط حيوية تنطلق منها الوطنية والمقاومة في بعض الفترات، والتي لم تكن فيها تنظر إلى "الكفار" والأجانب نظرة ارتياح⁴⁵، حيث عمل في هذا الصدد أحد المتممين للزاوية الريسونية المعارض للمخزن العزيمي، وهو القائد الريسوني الذي عرف بمعاداته للمخزن والأجانب ولم يتفق بعد على طبيعة حركته، لكنه بالأساس عرف بإزعاج الأروبيين بالشمال، في المنطقة التي كانت تدخل ضمن نفوذه الروحي والعسكري أيضا.

فيما وجه إلى العديد من الطرق وأصحابها انتقادات لاذعة من قبل النخب التي كانت تراها تتقرب إلى المستعمر أو في بعض الأحيان تساعد. ويتضح هذا في ما عبر عنه التهامي الوزاني بخصوص الشيخ الحراق الذي ليس هو شخص عادي في الزاوية الحراقية، بل إنه جوهرها، بعد أن التقى بالماريشال ليوطي في المنطقة السلطانية في عز الحرب العالمية الأولى، وبعد أن بارك للشيخ في

42 - شهادة للأستاذ رضوان احدادو، 6 يونيو 2015م، تطوان.

43 - محمد داود، "تاريخ تطوان"، المجلد السابع، المطبعة الملكية، الرباط، ب.ت. ص: 117.

44 - التهامي الوزاني، "الرُفَر"، مخطوك بالخزانة العامة والمحفوظات، ج3، علة 5، محفظة 40، ص: 216.

45 - روم لاندو، "تاريخ المغرب في القرن العشرين"، ترجمة: نقولا زيادة، مراجعة: أنيس فريجة، منشورات دار الكتاب، البيضاء، ومؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت - نيويورك، 1963م، ص: 139.

خلقه، وحذره من بعض أتباعه الذين لا يسلكون طريقه، ويتحدثون عن "الشريف" الريسوني بما لا تحبه فرنسا، والذي طلب أيضا من الشيخ "تنبيههم إلى أن يسلكوا مسلكه، ولولا أن هذا القائل من أتباعك لتصرفت فيه المحكمة"⁴⁶.

ب- زيارة الأضرحة

كانت الأضرحة تمثل للنخب الموقف نفسه الذي تمثله النخبة للزوايا، حيث يكون الطرفان معنيين بهذا التمثيل، البعض ينساق مع التجربة عمليا، والبعض الآخر يعارض، لذلك فزيارة الأضرحة وتقديسها إلى منزلة العبادة كان حاضرا كذلك بشكل قوي لدى عدد من النخب اليهودية والمسلمة؛ فالأولى تجتمع فيما يسمى بـ "الهلولة" على أوليائها الصالحين، والثانية تجتمع على أضرحة أوليائها كذلك في إطار المواسم أو غير ذلك. وهي تجربة لا يمكن أن نعزلها عن الزوايا والطرقية كونها تدخل ضمن هذه الأخيرة، لكن طقوسها الخاصة ومنزلتها تبين أهميتها هي الأخرى، حيث كان للأضرحة مكانة خاصة لدى النخب الشمالية. لذلك نجد في إحدى القبائل الريفية مثلا، وبالضبط في ضريح "سيدي شعيب"، أهل الريف يقيمون مواسم خاصة لزيارة هذا الضريح، وبخاصة في عيد المولد النبوي الذي يجتمع فيه عدد كبير من القبائل الريفية، التي تذبج الذبائح⁴⁷.

ولم تسلم مواسم بعض المؤسسين منذ ما قبل الحماية بكثير، والتي تكون بالإضافة إلى الأعياد الدينية كالمولد النبوي، تكون كذلك لأعياد ميلاد أولئك المؤسسين والأولياء، التي لم تسلم من استنكار الفقهاء و"نقاد الاجتماع الديني"⁴⁸. ويعلل أحمد الرهوني سبب ذلك بقوله عن هذه المواسم: "يحضرها من الرجال والنساء العدد الكثير، ويقع ازدحام عظيم، ومنكر جسيم"⁴⁹.

وللاقتراب من الذهنية المغربية، وبخاصة لدى النخب التي كانت تخضع وتهب نفسها لهذه الأضرحة، يصور لنا الرهوني أسباب هذا التعلق الكبير بالأضرحة بقوله: "قال ابن عرضون وغيره: التوسل بأولياء الله، سبب في قضاء الحوائج، وكذا التوسل بآل بيته، عليه السلام"⁵⁰.

46 - التهامي الوزاني، "الزاوية"، م، س، ص: 87.

47 - العربي اللوه، "المنهال في كفاح أبطال الشمال"، مطابع الشويخ "ديسبريس"، تطوان، 1982م، ص: 16.

48 - إبراهيم حركات، "التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية"، مطبعة الدار البيضاء، 1985م، ص: 62.

49 - أحمد الرهوني، "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، ج 1، ط 2، منشورات جمعية تطاوين أسمير، مطبعة الخليج العربي، 2012م، ص: 242.

50 - أحمد الرهوني، "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، ج 7، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاوين أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2007م، ص: 126.

ومع اعتراف الطريس بإيمانه الشديد بالولاية والصلاح، وتحييده لزيارة القبور التي تضم السلف الصالح، والخشوع أمام سيرة ومكنون أصحابها في العلم والزهد وخدمة الصالح العام، يرى أن من العادات التي أضرت بالمجتمع المغربي أضرارا جسيمة ما يتصل بالأولياء والصالحين، معتبرا أن الأمة فقدت بريقها ومثلها الأعلى والقُدوة الحسنة بمثل هذه العقلية، مستهجننا كل ما يتنافى مع الدين في عادات الضرائح التي تكثر في المجتمع المغربي⁵¹.

ويعلل الطريس نقده لزيارة القبور والأضرحة والعادات السيئة المترتبة عنها، بأنها متنافية مع الدين الإسلامي الذي يرى فيه أنه يتنافى مع صبغتها الهمجية ويتعارض مع الاتجاه الذي تسير عليه الأمة، كما اعتبر الذبائح التي تذبح على قبور الأولياء إشراكا كليا بالله، ولا تزيد إلا في تضييع أموال المسلمين. وفي المقابل، لا ينتقد كل الطرق والعادات التي تصاحب زيارة القبور، حيث إنه يثمن الطوائف التي تقتصر على ذكر الله، والتي تملك زمام نفسها ولا يسخرها البعض لمحاربة الأمة والنهضة، والتي لا تقف على ذلك فحسب بل تسعى إلى أن تغرس في النفوس حب التقوى والطهارة والاستخفاف بالمادة، كما تعمل على تحبيب أنصارها في التعاون والإيثار، وتصونهم عن تضييع الوقت في العبث والفراغ⁵².

أما الطوائف الأخرى فيرى ضرورة محاربتها وشن الغارة عليها حتى تستريح البلاد من مفسادها، بعد أن تركت أثرا سلبيا في المجتمع، وخربت العقلية المغربية بعد أن غرست فيها فكري السحر والجنون⁵³؛ فدعا إلى التخلص من هذا التأثير الإفريقي على المجتمع، وإلا فستنزوي العقلية المغربية وتتقيد بقيود وثنية جاهلية تمنعها من التطور والرقى، معتبرا أن ربط هذه العادات بالدين بإدخالها في المجتمع المغربي ستنخر عظامه، والقضاء عليها سيحرر الأمة وينهض بها⁵⁴.

أما التهامي الوزاني، فموقفه من هذه المسألة واضح وغير بعيد عن موقف الطريس، إلا أنه يتناولها من زاوية أخرى، وتحديدًا الزاوية الاقتصادية والدينية، حيث يرى أن ذلك يخالف الدين الإسلامي الذي يتعارض مع الإسراف الذي لا ينتفع به والمحرم شرعا⁵⁵.

51 - عبد الخالق الطريس، "في الإصلاح الاجتماعي 3"، الحرية العدد 210، الأربعاء 7 فبراير 1940م، ص: 1.

52 - نفسه.

53 - نفسه.

54 - نفسه.

55 - التهامي الوزاني، "المقابر"، جريدة الريف، العدد 87، الثلاثاء 13 يوليوز 1937م، ص: 1.

ج- التربية الدينية وتشجيع تأدية الشعائر الدينية

تنبّهت النخبة المغربية بالشمال لضعف التربية الدينية والاهتمام بها، وحث خطبائها وفقهاؤها على ضرورة الاهتمام بها لدى الناشئة عملاً بقوله "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، وقد كان من أبرز ما نادى بالتربية الدينية أحمد الرهوني الذي يؤكد عليها في خطبة له بتطوان جاء فيها: "... فاشتغلوا، عباد الله بتعلم الدين، إن كنتم تعقلون. وعلموها لأولادكم، إن كنتم من عذاب ربكم تشفقون، وأخلصوا فيه النية، فإن جميع ما ورد في فضل العلم، إنما هو في حق المخلصين، واعملوا بما تعلمون، لتكونوا من عباد الله المخلصين، وإلا فاعلموا أن العلم يهتف بالعمل، فإن وجدته، وإلا ارتحل"⁵⁶.

وستسير نخبنا المثقفة في دعواتها لإصلاح الدين لدى الأمة، مدركة أن التربية الإسلامية ضعيفة «حد الجنون» على حد تعبير التهامي الوزاني الذي قدم في مشروعه الإصلاحية التربية على الإصلاح نفسه، كما قدم الإصلاح على الاستقلال⁵⁷، الذي يرى أن منشأ هذه التربية يجب أن يكون في البيت، لأن التربية في البيت مهمة بالنسبة إليه لدرجة إن لم تتوفر التربية في البيت، فلا ينتظر أن تكون خارجه، مستشهدا بما كانت عليه التربية الدينية في البيوت التي كانت تعرف صلاة جماعية للعائلة الواحدة المكونة من الأبناء والخدم وسيد الدار الذي لا يكتفي بإمامة العائلة، بل يخصص وقتا وافرا ليحدث أهله عن الدين وشؤونه، فيقرأ عليهم كتب الوعظ، إلى أن تسيل الدموع وتخشع القلوب، وإن كان أميا يكتفي بنقل ما سمعه من الواعظ أو المحدث أو المدرس⁵⁸. وضعف التربية الدينية، لا يعني أن الأبناء لا يحملون في حبهام للدين الإسلامي، بقدر ما لا يجدون من يشجعهم على تأدية شعائر دينهم⁵⁹.

نستنتج من خلال ما سبق أن الأفكار الإصلاحية التي شغلت النخب المغربية تكمن في خطورة تراجع الدين الذي اعتبر البعد عنه سابقا سببا في العديد من المشاكل التي تتخبط فيها البلاد،

56 - أحمد الرهوني، "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، ج10، ط2، منشورات جمعية تطاوين أسير، مطبعة الخليج العربي، 2001م ص: 114.

57 - وفاء الشراوي، "رسالة التهامي الوزاني إلى الفقيه داود (1955) دراسة وتحريج"، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر، بجامعة عبد المالك السعدي، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تحت إشراف عبد الحفيظ حمان، السنة الجامعة 2007م، ص: 56.

58 - التهامي الوزاني، "نحن هم المقصرون"، جريدة الريف، العدد 72، م، س، ص: 4.

59 - م، س، ص: 4.

فحاولت جاهدة أن تقدم النصح والإرشاد للرجوع إلى الصواب الاجتماعي خطاباتهم وكتابتهم من خلال ثقافتهم الدينية، فكانت مرجعيتهم الفكرية والتعليمية الأرضية التي سارت عليها في تبنيها الإصلاحي، بالإضافة إلى تجاربها في الحياة كما أسلفنا سابقا.

اتضح لنا جليا أن الإصلاح الديني لدى النخب الثلاث لا يرتبط بممارسة العبادات فحسب، بل يعتبر الدين الإسلامي دين معاملة وفكر، كما رأت أنه لا يمكن الرجوع بالدين الإسلامي إلى قوته دون التوفيق بين الناحيتين النظرية والعملية في المبادئ الإسلامية، حيث إن هذه النقطة اعتبروها النقطة الإصلاحية التي سار عليها الإصلاح الديني في الأمم الإسلامية التي استيقظت من سباتها الطويل، وتنبهت من غفلتها، وصغت لأقلام مصلحيها.

دور أعلام الأطلس المتوسط في مقاومة الاستعمار أحمد الحنصالي أنموذجا

ذة. سعاد رجاد

كلية الآداب سايس - فاس

لا شك أن حاضرننا هو نتاج ماضينا بل هو ثمرة ماضينا المروي بدماء شهدائنا ومقاومينا، دماء من حملوا على عاتقهم، اختيارا من أنفسهم لا جبرا من أحد، حمل هم وطنهم، والدفاع عنه والذود عن حياضه، في وجه من اعتبره مشاعا ليس بملكية أحد من العالمين، يصول ويجول في سهوله ووديانه، ينهب من خيراته ويستحكم في رقاب ساكنيه الذين اعتبرهم بلا ولاء بل خونة ومستضعفين، هؤلاء الذين تحملوا مسؤولية الدفاع عن وطنهم بالمال والنفس هم حقا مجاهدون من طينة من يصدق في حقهم قوله تعالى ﴿إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾¹.

بناء على هذا المعطى، ومن باب أن من لا يعرف تاريخه وماضيه لا يفهم حاضره ولا يحسن صناعة مستقبله، وحيث إن الإنسان الذي لا يدرك عراقة تاريخه ومجد أجداده فبلا شك سيكون بلا هوية، فالتراث والتاريخ ومجمل ما يحتويه من موروثات هو هويتنا الأصلية وهو الجذور الحقيقية التي نستمد وننهل منها المذاق الحقيقي لعلاقتنا بالحياة. وحيث إن "فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقوال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال... ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول،... وباطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها

1 - سورة الحجرات، الآية 15.

دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع أسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق².

نظرا لكل هذا، ورغبة منا في معرفة ماضيينا الجليل من أجل قراءة حاضرننا واستشراف مستقبلنا، اخترنا تسليط الضوء على نقطة من النقط المغمورة للمقاومة في وطننا الحبيب، والتي لم تحظ بكل الاهتمام الذي يتناسب والدور الذي لعبه مجاهدوها في التصدي لقوات الاحتلال خلال هذه المرحلة، ولا مع الأهمية التي كانت توليها تلك السلطات لهذه الجهة التي كانت تعتبرها الحد الفاصل بين ما كانت تسميه بـ "المغرب النافع" و "المغرب غير النافع"، والتي لم تأخذ من الدراسات والمشاريع البحثية إلا اليسير وهي منطقة الأطلس المتوسط، ذات الظروف الطبيعية والمادية الصعبة.

عسى أن ننفذ إلى بعض تفاصيل جهاد وكفاح هؤلاء الأعلام، ونميط اللثام عن بعض الجوانب المشرقة من تلك المقاومة ونحرر بعض مواقف رجالاتها العظيمة خدمة للحق وحباً لهذا الوطن والمجاهدين من أجل تحريره ورفعته، وأخص بالذكر أحمد الحنصالي - وهو ممن اعتبروا أفذاذا في المقاومة - ونثير انتباه ذوي الاختصاص إلى هذه المنطقة التي لم تكن مواجهة أبنائها لقوات الاحتلال أمراً عادياً، ولو بالنظر فقط إلى الفترة التي استغرقها احتلالها والتي تجاوزت 22 سنة.

- فكيف كانت المقاومة في هذه المنطقة؟
- وكيف استطاع مجاهدوها المقاومة وأخص بالذكر أحمد الحنصالي، في ظل الظروف المناخية والجغرافية التي كانوا يعانونها؟
- وكيف استطاعوا أن يضعوا بصمتهم في تشكيل تاريخ الدولة الحديثة بإمكاناتهم الهزيلة؟

الجغرافيا والإرادة صانعة تاريخ الأطلس المتوسط

عندما احتل ما كان يسمى في نظر الاستعمار بـ "المغرب النافع" المكون من السهول والهضاب والمدن الرئيسية، وبعدما تمكن الجيش الفرنسي من ربط المغرب الشرقي بنظيره الغربي عبر تازة في ماي 1914م، توجهت أنظار الإدارة الاستعمارية نحو منطقة الأطلس المتوسط، لتطويقها وكسر شوكة مقاومتها في أفق فتح الطريق بين الشمال والجنوب عبر هذه القلاع الصامدة والتي شكلت إحدى المناطق التي اتخذها المقاومون مركزاً للكفاح ضد الاستعمار.

2 - تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة 2، 1988م الجزء 1، 2011م، ص 6.

فتميزت حروب هذه المناطق بالاستماتة النادرة رغم النقص في العتاد والمؤن والظروف المناخية والجغرافية القاسية، فكان ديدن المجاهدين إما النصر أو الشهادة.

يقول الكاتب الفرنسي هانري دوبوردو: "...عملت الطبيعة على إنشاء جدران صخرية آوى إليها المجاهدون... ألف من البنادق بأيدي ماهرة ومعهم نساء أكثر منهم شراسة واستعدادا للقتال وأخذ مكان كل رجل استشهد في المعركة، ويقمن بإذكاء حماس المقاومين عندما يصابون بالتعب أو يغالبهم النوم ويعارضن كل من يتحدث عن الاستسلام... وكان أكثر النساء والرجال يستخدمن الأحجار من أعلى للدفاع عن النفس"³.

المقاومة في الأطلس ربما كانت أكثر معرفة وإتقانا لفنون الحرب منها في الصحراء. فقد كان الأتلسيون محاربين وكثيرا ما كانت المشاكل تحل بين القبائل بالحرب، ثم "إن الجبل وكهوفه ومغاوره وارتفاع قممه يساعد -بطبيعته- على الاعتصام ومناجزة العدو الذي لم يمارس الحرب في الجبال،... لذلك كانت الجبال مركزا استراتيجيا للهجوم والدفاع. وحرب الأطلس استخدمت السيطرة على منابع المياه باحتلالها أو بالإشراف عليها. وقد كان هذا المعطى مع المقاومين تارة وضدهم تارة أخرى، بحيث "كان العدو لا يستطيع الوصول إلى منابع المياه إلا بعد معركة قد يكون الخاسر فيها حتى إذا أشرف عليها. وكان في موقع استراتيجي وضع المقاومين في حرج، فهم يحاربون ويضحون من أجل الماء أيضا"⁴.

حرب الأطلسي كانت فقيرة في العتاد والمؤن. بدأت بالسلاح الذي يوجد لدى القبائل، ولكن ما غنمه المجاهدون من عدوهم كان يسد بعض النقص. ثم إنهم "كانوا رماة ماهرين يقتصدون في استعمال رصاص البندقية إلا عندما يتأكدون من الهدف"⁵.

حروب الأطلس إذن أكدت لجيش الاحتلال أن السلاح الحديث والقوي - بما فيه الطائرات - قد يجدي في السهول، ولكنه يقف عاجزا عن النفاذ في الجبال. ولذلك كانت الحرب صعبة المراس طويلة النفس كثيرة التضحيات⁶.

3 - قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، عبد الكريم غلاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة 1، 2005م، الجزء 3، ص 243.

4 - نفسه.

5 - نفسه.

6 - نفسه.

كانت هذه قراءة سريعة للأوضاع الداخلية وللظروف القاسية البيئية التي عرفها الأطلس المتوسط آنذاك، والتي لم تزد مقاومتها، إلا إصرارا وثباتا من أجل الدفاع عن أراضيهم بمواجهة المستعمر الفرنسي، هذا الأخير الذي كان يرى في الأطلس "باب المغرب الذي لا بد لفرنسا من احتلاله" le Maroc Indispensable⁷ على حد قول الجنرال كيوم، لكن سرعان ما بات يحسب له ألف حساب لشراسة مقاوميه، وهو ما أكدته كيوم بقوله: "يشكل الأطلس، أخطر التهديدات في شمال إفريقيا"⁸.

المقاومة في الأطلس المتوسط وجهود المستعمر

المقاومة إجمالا هي عملية رفض الظلم والاحتلال والتدخل الاستعماري بجميع الوسائل المتاحة، بما فيها الوسائل العسكرية، والسياسية، والإعلامية وغيرها. ويرتبط مفهوم المقاومة بمفهوم الجهاد، فمقاومة الاحتلال الأجنبي تعتبر جهادا في سبيل الله، وتتخذ المقاومة شكلين: المقاومة الشعبية والتي يقوم بها رجال الدين والزوايا وعامة الناس، والمقاومة السياسية التي تتولاها النخبة عبر العمل الجمعوي والحزبي والنقابي... ستتطرق من خلال هذا البحث أساسا للمقاومة المسلحة في منطقة الأطلس المتوسط مع التركيز على نموذج اعتبر رمزا في مقاومة الاستعمار وهو أحمد الحنصالي، وكذا الأبعاد التي اشتغل عليها المستعمر من أجل الظفر بهذه المناطق.

البعد الوطني للمقاومة الأطلسية

كانت المدرسة الفرنسية الاستعمارية ترى في المغرب بنية غير متجانسة تتكون من خليط من القبائل المتناحرة المفتقدة دوما إلى ما يوحدتها، وكانت الإدارة الاستعمارية تحاول أن تعمل بمبدأ "فرق تسد" لكنها لم تنتبه إلى أن المغاربة رغم تنوعهم إلا أن أسباب قوتهم واستمرار مقومات وحدتهم هو إحساسهم بانتمائهم إلى مجال ترابي واحد، كما أنها ترتبط فيما بينها بروابط عقدية مشتركة هي رابطة عقيدة الإسلام والوعي الوطني، الذي هو وعي لم تكن تحكمه القومية أو السياسة أو الإيديولوجية وإنما كان وعيا شعبيا عفويا عبارة عن ردات فعل دينية، ولعل هذه الصفة ليست جديدة على المغاربة فقد قاوموا الغزو الأجنبي قبل ذلك بمئات السنين.

7 - Gille. A. Guillaume, homme de guerre, France Empire, Paris 1973, p 70

8 - Gille. A. Guillaume Les berbères marocains et la pacification de l'Atlas centrale, 1912-1934, demi junior Paro, 1946, p 74, Paris 1973, p 71

وبالتالي فإن تشويه حقيقة الشعور الوطني لم يكن سوى محاولة يائسة من قبل مؤرخي الاستعمار لتنال من شرعية المقاومة التي وقفت باستماتة وعناد أمام مخططاتهم بإشهار السلاح عليهم، وبالتالي فندت زعمهم أن "المغرب ليس أمة: إنما بمفرده عشرة بلدان أو عشرون مستعدة لينقلب بعضها على البعض الآخر خالقة بذلك أكثر أشكال الفوضى تعقيدا"⁹. كما فندوا فكرة أن وطنية المغربي لا تتعدى أفق خيامه وأفق السهول التي ترعى فيها القطعان.

وهذا القول وغيره من الإشاعات التي أراد المستعمر نشرها لكن تبين له مما لا يدع مجالا للشك أن في المغرب شعبا متوقدا حرا ممانعا، تاريخه القديم يفيد بأنه طرد من أرضه كلا من البرتغال والإسبان والإنجليز وأنه زرع الأتراك...

البعد الديني في المقاومة الأطلسية

رغم محاولة فرنسا إفراغ استعمارها للمغرب من أي حمولة دينية لكي يضمّنوا غزوا سلميا للمغرب ليستثيروا المقاومة المغربية التي اعتبروا عداها للفرنسيين هو صنيع جماهير متعصبة بالإسلام. فإن الدوافع الأساسية لهذا الغزو هو شن حرب دينية مقدسة على أراضيها والعمل على إعادة صياغة قيم ومعتقدات مجتمعه وفق ما تميل إليه عقيدتهم، وكانت مخططاتها جادة لتمرير ذلك باستراتيجيات مختلفة جمعت بين الغزو العسكري والغزو السلمي لتفكيك وحدة الشعب المغربي وتجزئ ما هو مجزأ منه وتفكيك وحدة التكتلات الأمازيغية وفصلها عن نظيراتها العربية، وذلك بتوظيف ما توصلت إليه البحوث الاجتماعية والإثنوغرافية من خلال إثارة النعرات اللغوية والقبلية ... كما استندت إلى خطاب استعماري يستند إلى أطروحة مفادها أن "إسلام البربر سطحي لذلك ينبغي أن يتم فصلهم عن محيط العروبة والإسلام"¹⁰، تمهيدا لدمجهم في الحضارة الغربية وقيمها.

ولما فشلت فرنسا في خطتها اتجهت إلى انتقاد إسلام الأمازيغ بأبشع عبارات النقد والاستهجان وبأسوأ النعوت والذم والتحقير كنعتههم بالسذاجة والغفلة والإيمان بالغيب. لكن تشبع هذه القبائل الراسخ بقيم العقيدة الإسلامية وأحكام الشريعة جعلها تتمسك بالدين الإسلامي

9 - المقاومة المغربية ضد الحماية الفرنسية 1952م-1956م، عبد الرحيم الوردغي، دار ابن خلدون، 1982م، عمان، الطبعة 2، ص 89.

10 - كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، أحمد المنصوري، تحقيق محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة الرباط، الطبعة 1، 2004م، ص 91.

ومبادئه ووحدته الوطن، مما جعل فرنسا تفقد أعصابها ... فمرت إلى مرحلة التهجير القسري لآلاف الأسر والعائلات وقصف القرى والمداشر الآمنة بالطائرات¹¹.

البعد العلمي في المقاومة الأطلسية

كانت قوات الاستعمار تحاول استمالة العلماء ومهادنتهم قصد تحييدهم واحتواء مواقفهم حتى لا يقوموا بما تلزمهم به واجباتهم الدينية، لكن هذه الخطة المكشوفة فشلت بشكل ذريع، فمرت إلى تضيق الخناق عليهم ومحاصرتهم واعتقالهم ... وقد كان تخوف فرنسا من هؤلاء بينا فيما قاله ليوطي المقيم العام: لا أخاف على وضعيتنا إلا من أصحاب هذه الجلايب والبرانس، الذين يترددون على القرويين، ليتحلق الطلبة حولهم، فيبثوا فيهم من روحهم الإسلامية المتعصبة، قبل أن يلقنهم دروسا في الشريعة الإسلامية¹².

وكان هذا التخوف الذي أبداه أمثال المارشال ليوطي يترجم إلى قرارات صارمة. يقول بول مارتي في كتابه (مغرب الغد): "كل تدخل من قبل الفقيه وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامة تامة"¹³.

لم يكن علماء الأطلس بمنأى عن الحراك الجهادي وموجباته الدينية وأجوائه الوطنية. كما لم تقف مساهمتهم في الدعوة والتذكير بفرضية الجهاد، بل خاضوا حروبا بأنفسهم، فحوصر منهم كثيرون وقتل منهم عدد وضيق الخناق على من بقي حيا.

ورغم ما بذلته القوات الفرنسية لتعزيز نفوذها ونشر قواتها في الأطلس المتوسط، ومحاولات استمالتهم للعلماء، إلا أن محاولاتها باءت بالفشل، بحيث لاقت مقاومة شديدة من أهلها ممن أشربوا روح الانتماء والولاء للوطن والدين استعصى معه إحكام السيطرة على أراضيه في وقت وجيز.

أعلام المقاومة في الأطلس المتوسط

عرف المغرب خلال فترة الحماية انطلاق مقاومة مسلحة، جاءت كردة فعل على شروع فرنسا في تطبيق سياستها الاستعمارية، التي كساها معظم الكتاب الكولونياليون الفرنسيون بثياب إيديولوجية التهدة، وهي النقطة التي استغلها المستعمر كمحاولة لتضليل الشعب المغربي عن

11 - للمزيد من التفصيل ينظر كتاب كباء العنبر من عطاء زيان وأطلس البربر، مرجع سابق.

12 - ذكريات الدراسة في فاس، قدور الورطاسي، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، ص 50.

13 - مغرب الغد، بول مارتي، باريس، 1925م، ص 241.

حقيقة الاحتلال، وتبرير غزو مختلف تراب الوطن، باعتباره تهدئة لمجموع القبائل التي تقطن مناطق السبية، وهي القبائل التي اعتبرها المستعمر قبائل سبية تعيش تطاحنات وتمردات خارجة عن أي وصاية مخزنية، وهو ما كان في ظل سياسته الاستعمارية يستوجب إخضاعها لفرض الأمن والأمان المزعوم غيابهما. وقد استمرت المقاومة المسلحة التي قادتها مختلف مناطق المغرب، منذ بداية الغزو الاستعماري حتى سنة 1934م، إذ استبدأ بعدها مرحلة جديدة من الكفاح السياسي تمحورت حول المطالبة بالإصلاح، غير أن عدم تجاوب الإدارة الاستعمارية ومطالب الحركة الوطنية في الإصلاح، سيجعل هاته الأخيرة تتجه نحو الكفاح المسلح الذي سيتأجج بشكل كبير بعد نفي السلطان محمد الخامس في غشت 1953م.

وفي هذا السياق العام يندرج حديثنا عن رمز المقاومة الأطلسية، وهو أحمد الحنصالي. فمن هو هذا الرجل؟ وماهي الأسس المشكلة لشخصيته النضالية؟؟

أحمد الحنصالي الثائر الهادي

نشأته وحياته:

اعتبر أحمد أحنصال من طرف معظم المهتمين بتاريخ المغرب في فترة الحماية، أول من أطلق رصاصة تنادي بالكفاح المسلح ضد المستعمر الذي تعنت عن الخضوع للمطالب السياسية للحركة الوطنية في الإصلاح، وهذا ليس غريبا عن شخص ترعرع في كنف زاوية أحنصال التي قادت مقاومة شرسة ضد المستعمر الفرنسي، منذ أن وطأت قدمه منطقة أزيلال.

ينتمي أحمد أحنصال إلى زاوية أحنصال وهي الزاوية التي تم تأسيسها خلال القرن الثالث عشر الميلادي على يد الشيخ "دادى سعيد أحنصال"، زاوية كان لها ثقل داخل مجتمع الأطلس، خاصة الأطلس الكبير المركزي من خلال ما كانت تلعبه من أدوار، "كالتحكيم بين القبائل المتنازعة، وتعليم الطلبة والمريدين، وإطعام وإيواء عابري السبيل...، غير أن ثقل هذه الزاوية سبرز بشكل واضح، خلال فترة الغزو الفرنسي للمنطقة، إذ سيقود شيوخها وشيوخ فروعها، مقاومة شرسة كبدت المستعمر الفرنسي خسائر فادحة، منذ أن وطأت قدماه مجال قبيلة أيت مصاد، واستمرت هاته المقاومة، ما بين سنة 1915م وسنة 1933م. وقد قادها في البداية سيدي محّا أحنصال،

شيخ زاوية أحنصال وسيدي الحسين أوتامكا شيخ زاوية تامكة، وهي فرع لزاوية أحنصال، ليأتي بعد ذلك سيدي أحمد أحنصال رائد الكفاح المسلح¹⁴. فمن هو هذا الرجل؟.

يرجع نسب أحمد الحنصالي إلى أسرة شريفة كما ذكرنا آنفا، حيث كان جده سعيد الحنصالي من الشرفاء الذين تقع زاويتهم شرق مدينة أزيلال. والده يسمى موحى، ووالدته تسمى عائشة. وقد ازداد الشهيد الحنصالي في العشرينات بزاوية أحنصال، نشأ يتيم الأبوين وهاجر في سن مبكرة إلى دوار آيت احبيبي بقيادة تاكزيرت إقليم بني ملال، حيث اشتغل راعيا ما يقارب ثمان سنوات عند عائلة آيت زايد أورحو، ثم خماسا بدوار آيت وودي، قبل أن يتوجه إلى بونوال حيث كان يرعى البقر عند المسمى موحى والعيد ثم اشتغل بعدها عاملا مداوما وكان مستقرا مع المخزني أسعيد أوخلا الذي كان مكلفا بحراسة المركز الفرنسي على المنطقة¹⁵.

أحمد الحنصالي المقاوم الأول قاهر المستعمرين

أحمد الحنصالي مجاهد من طراز فريد صاحب القولة الشهيرة "في زمن الذل لا يقاوم الاستعمار إلا بالسلاح". قولة قالها أسد الأطلس المتوسط، وبقيت لمن بعده نبراسا ومنهاجا في زمن طغى فيه الذل وفنيت فيه الكثير من الرجال.

ويعتبر أحمد الحنصالي المقاوم الأول بمنطقة الأطلس المتوسط الذي تحدى حاجر الصمت والتردد، وتخطى ظروف الحيرة والانتظار، ومزق مخانق التطويق الاستعماري العنيف. فبفعل تصرفات الإدارة الاستعمارية، تولدت لدى أحمد الحنصالي الرغبة الجارحة في الجهاد والكفاح، فاستطاع بطريقة أو بآخرى الاستيلاء على بندقية أحد المخزنية وبعض الذخيرة في بونوال، وبعد اتصاله بصديقه موح أو سميحة الملقب بباسيدي، اتجه صوب منطقة بين الويدان. وفي يوم 13 ماي 1951م أطلق رصاصته الأولى في المرتفعات الفاصلة بين أفورار وبين الويدان، وقد أسفرت هذه العملية عن مقتل أربعة فرنسيين، بعدها توجه نحو أزيلال، حيث عمل على تنفيذ عملياته الثانية عند قنطرة أمرصيد، قتل خلالها فرنسيا واحدا وجرح اثنين، وكان ذلك في صباح الثلاثاء 15 ماي 1951م. واستمر في أعماله الثورية والفدائية في أمكنة ومواقع مختلفة متباعدة عن بعضها البعض، من عشرة إلى مائة وخمسين كلم. وخلال هذه الرحلة الفدائية استطاع الشهيد قتل العديد من حراس

14 - للتفصيل ينظر ذكريات ومذكرات، الحاج أحمد معنينو، مطبعة سبارطيل، طنجة، الجزء 7، ص 44.

15 - المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال، الوثيقة الأولى، ص 103.

الأمن والمتعاونين معهم، حتى ظنوا أن هناك تنظيماً خطيراً يحارب الفرنسيين، لذلك تدخلت السلطة الفرنسية للبحث عن الحنصالي ومطالبة متابعة خطواته وعملياته في شعاب وغابات القصيبة وبني ملال واكتشاف مخبئه¹⁶.

فكانت البيانات التي تصدرها السلطات الاستعمارية تخبر في كل مرة عن إجراء جديد تتخذه هذه السلطات لضمان إنجاز عملية مطاردة أحمد الحنصالي في منطقة جغرافية ضيقة. وهكذا أعلنت السلطات الاستعمارية تباعاً عن إجراءات تظهر مدى الهلع الذي أصابها من عمليات أحمد الحنصالي، فأعلنت عن إخلاء جميع المساكن المعزولة وتجميع سكانها من رجال تعليم وحراس غابويين وعمال ومستخدمين في أورش الطرق وأورش مختلفة في مساكن موحدة. كما أعلنت السلطات الاستعمارية عن تنظيم قوافل للسيارات والشاحنات والحافلات تحت حراسة أمنية مشددة وعدم السماح بالتحرك وحيداً لكل مستخدم طريق. وكانت السلطات الاستعمارية قد منعت التخيم في تلك المنطقة المحاصرة، وخصوصاً بالقرب من سد بين الويدان، ومنعت جميع الأوربيين، وخصوصاً الفرنسيين، من التخيم نهائياً، كما منعت الفرنسيين المقيمين بالمدن والقرى المغربية بجهة تادلة أزيلال من الخروج ليلاً، وأعلنت حظر التجول بالمنطقة منذ الساعة السادسة مساءً، رغم أن الوقت كان في بداية الصيف حيث تغرب الشمس بعد السابعة والنصف في عموم المنطقة المحاصرة. ولضمان سريان جو من الرعب لدى السكان، ومن أجل تعاونهم، تم تجنيد مئات الضباط ورجال "الكوم" في اليوم الأول من أجل البحث عن أحمد الحنصالي، طمعا في استسلامه بعد إنهاك قواه. كما وجهت السلطات الاستعمارية عبر صحافتها وعبر المتعاونين معها من كبار القواد والشيخ والمقدمين والمخازنية تحذيرات إلى كل من آوى الحنصالي أو تعاون معه أو تستر عليه أو تستر على مكانه مقابل الإعلان عن جائزة بمليون فرنك وتجنيد خمسة آلاف رجل لتوقيف أحمد الحنصالي.

شكل إذن الحنصالي تهديداً لأمن المستعمر في الأطلس المتوسط لدرجة نعتته بأسوأ النعوت كـ "قتال تادلة" أو "قاطع الطريق" أو "الوحش"¹⁷.

16 - مجلة المقاومة وجيش التحرير، عبد القادر السكاك، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، عدد 24، سنة 1990م، ص 29، 30.

17 - المقاومة بجهة تادلة أزيلال (1908م-1956م)، السياق والخصوصية، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2000م، ص 215.

وشبهه المؤرخ الفرنسي ch. A Julien. الذي عاش هذه الفترة من موقع المسؤولية، بالأب Million¹⁸ الذي كان يقاوم ضد المستعمر الألماني لبلده، فلما أُلقي عليه القبض ظهر مرتاحا ومعتزا بما أقدم عليه، "فلم يخف هذا الارتياح وهذا الاعتزاز أمام المحتلين الألمان خلال استنطاقه، موضحا إليهم أن ما صدر عنه ماهو إلا رد فعل طبيعي ومشروع ضد المحتلين لأرضه"¹⁹.

وفي يوم 23 يوليوز 1951م تم القبض عليه بعد سنتين من انطلاق ثورته تقريبا في سد بين الويدان، حيث اعتقلت السلطات الفرنسية العديد من سكان المناطق الجبلية التي تنقل فيها الثائر أحمد الحنصالي والتي باشر منها ثورته ممن اشتبه فيهم، أمثال سيدي موحا احساين المعروف بولد سميحة وهو صديقه الذي كان يناهز عمره ستين سنة. وفي يوم الاثنين 16 فبراير 1953م، وبعد سنتين من السجن أصدرت المحكمة العسكرية في حق هذا البطل المقاوم الأول ورفيقه الحكم بالإعدام، ونقلوه إلى زنزانة فردية في انتظار التنفيذ. وفي اليوم الموعد، أخرجوه مكبلا إلى ساحة المعتقل فقال: "يا أسى عبد الرحيم بوعبيد، إلى اللقاء عند الله". وفي يوم 26 نونبر 1953م تم تنفيذ الحكم بالإعدام في حق الشهيد رميا بالرصاص، وكان بذلك أول حكم ينفذ في حق المقاوم المغربي بغية التخويف والترهيب والحد من نشاط المقاومة²⁰.

شهادات في حق رائد الكفاح المسلح

في سجن أغيلة بالدار البيضاء حيث كانت تجرى معه تحقيقات حول أعماله، وعندما كان يستنطق عن الدوافع التي تحكمت في أفعاله، كان يقول: "هكذا أراد الله، لقد سمعت صوتا من السماء يدعوني إلى القيام بما أقدمت عليه"²¹. ويضيف Guy Delanoë: "إن الحنصالي يعتبر من طرف المغاربة رائد الفداء في المغرب، ومما يدعم هذا الرأي أن الشارع الكبير الذي يؤدي من وسط مدينة الدار البيضاء إلى مينائها حمل اسم: الحنصالي هذا"²².

18 - وهو فلاح نورماندي لم يكن يعرف عنه شيئا يذكر قبل سنة 1870م، إلا أنه بعد اجتياح الجنود الألمانية للأرض الفرنسية، أقدم الفلاح Million على قتل جندي ألماني كان في فندقه يستنشق الدخان المتصاعد من غليونه، فكانت هذه العملية الأولى صعبة بدون شك، غير أن الأب Million سرعان ما نفذ الإعدام في خمسة عشر ألمانيا آخرين.

19 - Charles-André Julien, Le Maroc face aux impérialismes, 1415-1956.1980. Paris. P 38

20 - الرواية الكاملة لثورة أسد تادلة الشهيد أحمد الحنصالي ضد الاحتلال الفرنسي، عيسى العربي، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2005م، ص 65.

21 - Guy Delanoë, Lyautey, Juin, Mohammed V, fin d'un protectorat Tome, I Editions L'Harmattan. Paris, 1988, p 128.129. 130

22 - المرجع السابق.

وقد تناولت أفواه وأقلام الكثيرين من المغاربة والأجانب بطولات هذا الشهيد، الذي قام بمفرده بهذه الثورة. يقول نويير الأموي: "هذا الذي لم يعرف للمدرسة أو للسربون أو لهارفارد طريقا، فلاح بسيط اسمه موشوم في الذاكرة، إنه أحمد الحنصالي، الذي اهتدى بغريزته الفكرية، وحسه الوطني، إلى أن لا لغة يسمعها المستعمر الأجنبي غير لغة العنف المشروع... فأطلقها رصاصا في ربوع وأعالي الأطلس"²³.

"الثائر الهادي"، كما وصفه عبد الرحيم بوعبيد، عايشه في زنزانة تضم 13 معتقلا بينما سعتها مخصصة لشخص واحد، كان مؤمنا بقضيته مرددا: "الاستعمار لا يمكن قتاله إلا بالسلاح، ويجب وقف تعامل بعض المغاربة الضعفاء - الجبناء - مع فرنسا".

كان يعود من التحقيق العسكري وكله ثقة بنفسه، لم يحاول أن يخفي الحقيقة عن المحققين، بل كان يعترف أنه قام بعمله بدافع دينه ووطنه، ثم أضاف أنه سأل مرة بماذا ينفذون حكم الإعدام على المحكوم عليهم؟ وعندما أجابه المحقق بأنه ينفذ برصاص البنادق، ابتسم الحنصالي، وقال: "ليكن، فبمثل هذا الرصاص قتلناهم"²⁴.

في ساحة المعتقل توجه بشجاعة لتنفيذ حكم الإعدام في حقه، قائلا: "يا السي عبد الرحيم... إلى اللقاء عند الله". وخلال محاكمته كان ينظر بهدوء إلى المكان، وكأنه أدى واجبا وطنيا ولم يعد يخشى شيئا²⁵.

وعن هذه الليلة بينما يخرج مع صديقه أبو سميحة إلى ساحة الإعدام، وهي ليلة 26 نونبر 1953م يقول أحمد المعنوني: "يسرني أن أسجل منفعة أو مفخرة لهذا الشهيد وصديقه ليلة الخروج بهما من غيبلة بالبيضاء للإعدام، حيث كنت ضمن قافلة من الساكنين بمقر "أكرمناه" وجاءنا الخبر نهارا أن الشهيد الحنصالي ورفيقه أو سميحة، سيخرجان آخر الليل من السجن بمكان الإعدام، فبتنا ليلتنا ساهرين ننتظر مرورهما، وحوالي الساعة الرابعة صباحا، فتحت أبواب الزنزانة وأخرجنا مكبلين بالحديد، ومرا أمامنا ونحن ننظر إليهما من بين قضبان الباب الحديدي، وودعناهما بصالح الدعوات، وبكيننا لفقدان أبطال كرام جادوا بأرواحهم في سبيل إنقاذنا من هول المستعمرين"²⁶.

23 - المقاومة بجهة تادلة أزيلال (1908 - 1956م)، السياق والخصوصية، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2000م، ص 220.

24 - تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، عبد الكريم غلاب، الطبعة 2، الرباط، 1987م، الجزء 2، ص 519.

25 - المقاومة بجهة تادلة أزيلال (1908 - 1956م)، السياق والخصوصية، مرجع سابق، ص 216.

26 - ذكريات ومذكرات، الحاج أحمد معنيو، مطبعة سبارطيل، طنجة، الجزء 7، ص 44.

لقد جاء سيدي أحمد الحنصالي في وقته ليتحدى حاجز الصمت والتردد، وليعلن بداية عهد جديد من الكفاح الوطني بأسلوب جديد، عهد العنف الثوري المشروع وأسلوب الكفاح المسلح والاستشهاد في ساحة المعركة. فقد كان رائد العمل الفدائي بالمغرب، وقد سار على نهجه وسيرته، رجال ناضلوا بأرواحهم في سبيل استقلال هذا الوطن.

خاتمة

حضور هذه المقاومة الشرسة المتمثلة في أحمد الحنصالي، كنموذج وكرمز، والراسخة في أبناء الأطلس المتوسط وفي أبناء هذا الوطن الحبيب من أجل الكفاح ضد المستعمر الغاشم، لم يكن حضورا اعتباطيا أو عرضيا إنما كان ناتجا عن وعي وطني. ولم يكن هذا الوعي تلقائيا بل هو وعي ديني وروحي في طبيعته وجوهره، بعيدا عن الأيديولوجيات المذهبية أو الهوية العرقية... حضور يستند إلى وحدة المصير المشترك التي تستمد روحها وقوامها قبل كل شيء من مشترك العقيدة الإسلامية الجامعة، ومشارك الغيرة الوطنية الواصلة، ثم إلى وحدة القضية القومية المدافع عنها.

وفي هذا يقول المؤرخ الأمريكي روم لاندرو: "مهما بلغ نموذج التاريخ المغربي من الاضطراب، فإن عنصرا واحدا ظل واضحا فيه كل الوضوح، وهو الذي صاغ أحداث التاريخ فيه، إنه ديناميكيته الدينية التي أشعلت ثوراته وحركة غالب إصلاحاته"²⁷.

27 - تاريخ المغرب في القرن العشرين، روم لاندرو، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، 1980م، ص 175.

ثورة الملك والشعب ملحمة وطنية متميزة

ذ. محمد زين العابدين الحسيني
الرباط

مما لا شك فيه أن المغرب شهد عبر تاريخه العديد من الأحداث ذات الأهمية البالغة، لما حملته من قيم وبطولات وتضحيات، واتصفت بالتلاحم بين القادة والشعب. وهي أحداث قل نظيرها، ويعد يوم 20 غشت 1953م من المحطات الرئيسية، ذات الدلالات العميقة، لما لها من تميز على العديد من المستويات، وباعتبارها ملحمة وطنية شكلت منعطفًا حاسمًا في تاريخ المغرب المعاصر، خصوصًا وأن المغرب كان خلال هذه المرحلة خاضعًا للحمايتين الفرنسية والإسبانية من جهة، ومثقلًا بأغلال ما شهده خلال القرن التاسع عشر من ضغوطات إمبريالية من جهة ثانية. ومما يؤكد هذه الأهمية ما ورد في خطاب بطل التحرير محمد الخامس طيب الله ثراه بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة الملك والشعب: "إذا كان الناس يتفاضلون بأعمالهم الصالحة ويسمو بعضهم على بعض بضروب البر وصنوف الخير، فإن الأيام تتفاضل أيضًا بما يقع فيها من الوقائع الخطيرة والأحداث الجلى، ولا ريب في أن يوم 20 غشت هو من أيامنا الوطنية الخالدة، إذ هو اليوم الذي انبثقت فيه فكرة الثورة الشعبية، واسترد المغاربة ثقتهم بأنفسهم، وتحرروا من ربقة الخوف... فكان يوم يقظة وانبعاث"¹.

وإن الحديث عن كون ثورة الملك والشعب تشكل ملحمة وطنية متميزة، يقتضي ضرورة الحديث عن تميز هذا الحدث على ثلاثة مستويات، أولها ارتباطه بالعديد من الأحداث المتميزة، بدءًا بمشاركة الجنود المغاربة خلال الحرب العالمية الثانية لتلبية لنداء بطل التحرير محمد الخامس طيب الله ثراه، ووصولًا إلى خطاب طنجة سنة 1947م. وثانيها تميز مجريات الأحداث التي شكلت ثورة الملك والشعب بدءًا بالنفي وانطلاق الحركة الفدائية. وآخرها تميز ما أسفرت عنه من نتائج أبرزها عودة بطل التحرير وحصول المغرب على الاستقلال والقيام بالجهاد الأكبر من أجل التنمية وبناء الدولة المغربية المستقلة.

1 - ألقى بالرباط بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة الملك والشعب، الثلاثاء 13 محرم 1377هـ، 20 غشت 1957م، انبعاث أمة، محمد الخامس، ملك المغرب: مطبوعات القصر الملكي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، 1977م. ص 56.

ومن ثم فإن ثورة الملك والشعب ارتبطت بنفي بطل التحرير محمد الخامس طيب الله ثراه، وأفراد الأسرة الملكية، وهي تضحية واكبها المغاربة بانتفاضة شعبية تبلورت في ظهور الحركة الفدائية، مما آل إلى رجوع بطل التحرير، وحصول المغرب على الاستقلال على مراحل، والانتقال من مرحلة الجهاد الأصغر إلى مرحلة الجهاد الأكبر.

1- ارتباط ثورة الملك والشعب بالعديد من الأحداث المتميزة

شهد المغرب منذ تعرضه للحماية ظهور مقاومة مسلحة تطورت فيما بعد إلى حركة وطنية، ومنذ الثلاثينات اتخذت طابعا أكثر تطورا خصوصا بعد إصدار سلطات الحماية الظهير البربري، الاستعماري. وهي أحداث ساهمت في بلورة ما ميز ثورة الملك والشعب من تطورات، وقد بين الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه ذلك بالقول:

" فإذا رجعنا إلى 20 عشت 1953م، فإنه لم يكن وليد يومه، ولا وليد أمسه، بل هو قبل كل شيء وبعد كل شيء، تركم من الظلم من الاستعمار ومن الاستعباد... وسارت الأحداث، وأرادت مشيئة الله أن أساير كذلك شخصيات تلك الأحداث أو البعض منها، وجاءت سنة 1944م، وجاءت المطالبة بالاستقلال، وجاءت سنة 1952م، وإلقاء القبض على جميع الوطنيين والحركة السياسية، وجاءت أحداث 20 غشت والملك في قصره في عزلة تامة"².

وإن الانطلاق من كون ثورة الملك والشعب ارتبطت بتراكم العديد من الأحداث فإنه يمكن استحضار البعض منها على سبيل المثال في هذه المناسبة، ومن بين هذه الأحداث ذات الدلالات العميقة مواقف بطل التحرير التي كانت بمثابة رسائل واضحة لكل ذوي الضمائر، للتحسيس بما كان يعانيه المغاربة من السلطات الاستعمارية، وفي هذا الصدد يمكن الحديث عن النداء السلطاني سنة 1939م من أجل مشاركة الجنود المغاربة في الحرب العالمية الثانية، والذي جاء فيه: "فمن اليوم الذي اتقدت فيه نيران الحرب والعدوان إلى اليوم الذي يرجع فيه أعداؤنا بالذل والخسران يتعين علينا أن نبذل لها الإعانة الكاملة ونعضدها بكل ما لدينا من الوسائل غير محاسيين ولا باخلين فقد كنا معاهدين لفرنسا ومشاركيها في ساعة الرخاء، ومن الإنصاف أن نشاركها اليوم في ساعة الشدة والبأساء حتى يكمل النصر أعمالها ويزهر سرور النجاح أيامها والله ولي النصر والتوفيق"³.

2 - من خطاب الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لثورة الملك والشعب، بالرباط يوم الجمعة 30 شوال 1402هـ، 20 عشت 1982. انبعث أمة، الحسن الثاني، ملك المغرب، مطبوعات القصر الملكي، الجزء السابع والعشرون، 1982م. ص ص 266 - 267.

3 - رسالة موجهة من طرف السلطان محمد بن يوسف إلى الأمة المغربية بمناسبة الحرب العالمية الثانية، محررة يوم 3 شتنبر 1939 تليت بجميع مساجد المملكة.



ولعل ما يؤكد ذلك ما ورد في الكلمة التي ألقاها بطل التحرير طيب الله ثراه في مأدبة الغذاء التي أقامها الجنرال دو كول على شرف جلالته بقصر الرئاسة الفرنسية، حيث قال: "إن مثل الحرية والمساواة والإخاء والتقدم والعدالة والحضارة الحقبة التي ما فتئت تذكى فرنسا مراحل تاريخها المجيد هي أكبر ضمانة لنجاح العمل الذي نواصل القيام به جميعا"⁴.

ومن ثم أصبحت السلطات الاستعمارية بالمغرب محرجة أمام المغاربة من جهة، وذوي الألباب من الفرنسيين، من جهة ثانية، ومما يدل على ذلك، ما صرح به المقيم العام الفرنسي نو كيس بالمغرب: "إن مصالحنا أصبحت الآن مشتركة وقلوبنا موحدة إلى الأبد. وقد زادت الأحداث التي نعيشها

4 - من خطاب السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، أثناء مأدبة الغذاء التي أقامها الجنرال دو كول في 16 يونيو 1945م، ورد في خطب وندوات جلالة الملك، ص: 249.

جميعا من متانة وحدتنا وقوة تضامننا... وأعبر في نفس الوقت عن اقتناعي بأن النصر النهائي في هذه الحرب سيكون حليف الحق والحضارة"⁵.

غير أن موقف سلطات الحماية - رغم هذه التصريحات - لم يكن في المستوى المطلوب، حيث واجهت المغاربة بشتى أنواع العنف والتعسف، مما حدا ببطل التحرير إلى القول: "لقد شهدت أرض الوطن خلال الأشهر الأخيرة أياما رهيبة وأهوالا عاصفة سالت فيها دماء الأبرياء، وامتألت المعتقلات والسجون... أيها الشعب الوفي إننا نهب بك أن تواصل الكفاح وتضاعف الجهود"⁶. وهو ما جعل سلطات الحماية تنظر إلى السلطان عنصرا لا يمكن الاعتماد عليه لتمرير مخططاتها تجاه المغاربة في العديد من المجالات، وفي نفس الوقت تعتبره سلطانا شرعيا تصعب إزاحته من الساحة المغربية.

والملاحظ أن سلطات الحماية ستزداد يقينا بكون التطورات المتلاحقة لن تزيد السلطان إلا شعبية أكثر ورسوخا في نفوس المغاربة، خصوصا عند انعقاد اللقاء في مؤتمر أنفا بين روزفلت وتشرشل وبطل التحرير وسمو الأمير مولاي الحسن آنذاك، بعد انصراف الحضور ومن بينهم الجنرال نويس، وفي هذا الشأن يقول الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، في كتاب التحدي: "وهكذا وجدنا أنفسنا مجتمعين، ف - د روزفلت، وتشرشل، وروبرت مورفي، ووالدي، وأنا. وبعد حديث دار عن الحالة العامة، أخذت المحادثة شكل حوار بين الرئيس ووالدي... وفي الواقع أكد الرئيس الأمريكي أن النظام الاستعماري قد عفا عليه الزمن، وبالتالي أصبح محكوما عليه بالزوال في رأيه، لكن تشرشل أكد على ضرورة التدقيق في وجهة النظر هذه... ولكن روزفلت علق حالا على ذلك قائلا: إننا لم نعد الآن في سنة 1830م ولا في سنة 1912م، وتطلع إلى اليوم الذي سيصل فيه المغرب بيسر إلى الاستقلال وفقا لمبادئ الحلف الأطلسي، متمنيا أن يكون هذا اليوم قريبا يوم أن تضع الحرب أوزارها"⁷.

كما ستزداد هذه السلطات تأكدا من مواقف السلطان عندما تم تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944م، وهي الوثيقة التي صدرت بعد عشر سنوات من وثيقة المطالبة بالإصلاح المعروفة بمذكرة مطالب الشعب المغربي، سنة 1934م.

5 - المقيم العام الفرنسي نويس، يوم 21 شتمبر 1939م.

6 - من خطاب السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، ورد في: انبعاث أمة، الجزء الثالث.

7 - مقتطف من كتاب التحدي، الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه.



وهي وثيقة أثبتت التلاحم بين السلطان والوطنيين حيث إن تقديمها في 11 يناير 1944م كان بمباركة من السلطان ووفقا لتوجيهاته، ومما يؤكد ذلك ما قاله الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه بشأنها: "وفي اليوم الذي كانت ستها في وثيقة الاستقلال أرسل المحررون الوثيقة لسيدنا رحمه الله، والسيد محمد لغزوي آنذاك في الدار البيضاء، سنة 1944م، أرسلوها له خفية ليقرأها ويعيد نظره فيها... فكان جواب محمد الخامس، اذهب وقل لهم: لا ينفع اليوم مع الفرنسيين إلا طلب الاستقلال، نحذف طلب الإصلاح ونطالب بالاستقلال"⁸، وحول نفس الموضوع: "ترأس (بطل التحرير) يوم 13 يناير مجلسا موسعا حضره العلماء وشخصيات غير منتمية لحزب الاستقلال وكبار الباشاوات والقواد، وانتهت المناقشات إلى اتفاق شامل حول الوثيقة، ومن جهة ثانية، وردت على القصر الملكي رسائل تأييد ومساندة من الأحزاب السياسية الأخرى، كالحركة القومية التي كان يرأسها محمد بلحسن الوزاني، وحزب الإصلاح الوطني بالشمال... أما من جهة ثالثة فإن السلطان توصل بعرائض شعبية تؤيد هذه الحركة، وفي هذا كله تأكيد للفكرة القائلة بأن وثيقة الاستقلال تكون بحق

8 - من خطاب الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لثورة الملك والشعب، بالرباط يوم الجمعة 30 شوال 1402هـ، 20 عشت 1982م. انبعث أمة، الحسن الثاني، ملك المغرب، مطبوعات القصر الملكي، الجزء السابع والعشرون، 1982م. ص 268.

تعبيرا عن الإرادة العامة للبلاد... وكان تقديم الوثيقة للسلطان وهو أعلى سلطة في البلاد، قد تم قبيل استقبال جلالاته للمقيم العام بلحظات، وذلك ليكون جلالاته أول من يتحدث رسميا ومباشرة بشأن الوثيقة مع ممثل فرنسا⁹.

وقد ضمت هذه الوثيقة تصديرا تضمن عدة حيثيات داخلية وخارجية، وقرارات خاصة بالسياسة العامة والسياسة الداخلية، من بينها :

- المطالبة باستقلال المغرب.

- الالتماس من السلطان السعي لدى الدول المعنية للاعتراف بهذا الاستقلال.

- طلب انضمام المغرب للدول الموافقة على ميثاق الأطلسي.

والملاحظ أن هذه المطالبة بالاستقلال كانت بشكل مزدوج إذ كانت تهدف إلى تحقيق الاستقلال برعاية السلطان من جهة، وأن يكون شاملا للتراب الوطني بكامله، من جهة ثانية، علما أن المغرب كان مقسما إلى مناطق خاضعة للسلطات الفرنسية، وأخرى للسلطات الإسبانية، وأخرى دولية. وهو الأمر الذي جعل خصوم الوحدة الترابية فيما بعد يسقطون في إصدار أحكام تثبت أميتهم وجهلهم أو تجاهلهم للحقائق التاريخية.

على أن زيارة السلطان لمدينة طنجة بمعية أفراد من الأسرة الملكية وإلقاء خطب بها، زاد من تعميق الهوة بين السلطان وسلطات الحماية، التي لم تكن تتوقع النتائج التي أسفرت عنها، خصوصا وأن التوتر أخذ يطبع العلاقات المغربية بسلطات الحماية إثر زيارة السلطان لمدينة فاس زيارة رسمية، وإثر التعاطف الأمريكي مع المغرب بشأن استقلاله. وموقف إيريك لابون المقيم العام الفرنسي الذي كانت مواقفه أحيانا لا تروق السلطات الفرنسية. وقد تمت الرحلة في 9 أبريل 1947م، وكان فيها بمعية السلطان الأميران مولاي الحسن، ومولاي عبد الله، والأميرة للاعائشة. والعديد من الشخصيات. وخصص له استقبال رسمي وشعبي، وقد صرح الخليفة بتطوان بالمناسبة : "إن لشعبنا تاريخا مجيدا وإن صاحب الجلالة السلطان أمير المؤمنين لأجدر أن يقوده إلى أهدافه، وأن يرد له سالف مجده، إن المغرب أمة واحدة، وله سلطان واحد، وفي عهده يتسنى مدارج الرقي"¹⁰.

9 - محمد الإدريسي العلمي، وثيقة الاستقلال: استمرارية قانونية رائعة، مذكرات من التراث المغربي، الجزء السادس، كفاح الملك والشعب، ص 128.

10 - من تصريح صاحب السمو مولاي المهدي، خليفة تطوان، ورد في مذكرات من التراث المغربي، الجزء السادس، كفاح الملك والشعب، ص 168.

والملاحظ أن خطاب طنجة كان مفاجئاً للسلطات الاستعمارية لكونه تعرض لجوانب تظهر أن وجودها بالمغرب غير مرغوب فيه، وأن ما تدعيه أمام العالم لا أساس له من الصحة، ومن ثمة تناول الخطاب التقسيم الذي تعرض له المغرب: "ولم تقتصر الكوارث النازلة بنا على إبعاد المشرقي عن المغربي، بل أثبت إلا أن تمزق وحدة بلاد كانت تصول بالاتحاد، وتزدان بتماسكها بين البلاد ... فسلبنا بعظيم غفلتنا أشرف الحقوق، وتمزقت وحدة بلادنا"¹¹. ووصف صاحب السمو الملكي مولاي الحسن آنذاك فترة الحماية بالعديد من الأوصاف حيث قال: "لقد أتى على المغرب حين من الدهر انطفأت فيه مصابيحها، فساد الظلام، وتعطل السير، وضل الناس السبيل، وعجزت بصيرتهم عن تبين الهدف الأسمى فأمسوا حائرين، تتلاطمهم الأمواج وتتلاعب بهم الأهواء، حتى كاد اليأس يستولي على النفوس"¹². وكان خطاب سمو الأميرة للاعائشة بدوره يسير في نفس الاتجاه، حيث وصفت مرحلة الحماية بعدة أوصاف: "ففي أي طور يا ترى يحيا مغربنا العزيز المفدى؟ ألا زال مكتوف الأيدي يهوي في قعر الظلام، على بصره غشاوة ... فلا حاجز يقف في طريق نهضتهم، ولا صاد يعوقهم عن إدراك بغيتهم، ولا صعوبة تردهم عن سعيهم، بل هم إلى النجاح سائرون، وإلى قمة المجد صاعدون، وعلى أمانهم محصلون، ضمنوا الظفر باجتماع شروط ثلاثة: العقيدة الثابتة، والهدف الجلي، والقائد الخبير المسموع الكلمة، تجتمع عليه الأمة"¹³.

وقد توجت هذه الخطب بالتصريحات التي أدلى بها السلطان أمام سفراء وقناصل الدول الأجنبية بمدينة طنجة، والتي أكد فيها على أنه إذا كانت الأمم تطالب بحقوق تناسب الوقت الحاضر، فمن الحق أن ينال الشعب المغربي حقوقه الشرعية، وأن يقع تحقيق ما يتمناه، ويتمناه الشعب المغربي من المطامح التي يتوق إليها كسائر الأمم¹⁴.

ومن ثمة فإن زيارة السلطان لمدينة طنجة شكلت عنصر تشويش واضح لسلطات الحماية التي كان موظفوها يعبرون في تقاريرهم عن استيائهم من المواقف السلطانية، وفي هذا الصدد كتب أحد موظفي الإقامة العامة في تقريره ما يلي: "إن السلطان يسلك منذ أمد غير قريب سياسة فيها كثير من

11 - من خطاب السلطان بمدينة طنجة، ورد في مذكرات من التراث المغربي، الجزء السادس، كفاح الملك والشعب، ص ص 171 - 172.

12 - من خطاب صاحب السمو الملكي مولاي الحسن بمدينة طنجة، ورد في مذكرات من التراث المغربي، الجزء السادس، كفاح الملك والشعب، ص: 174 - 175.

13 - من خطاب سمو الأميرة للاعائشة بمدينة طنجة، ورد في مذكرات من التراث المغربي، الجزء السادس، كفاح الملك والشعب، ص 176.

14 - يمكن الرجوع لتفاصيل عن هذه التصريحات إلى جريدة العلم، بتاريخ 11 أبريل 1947م.

الأناة والمهارة تهدف إلى تفكيك جهاز الحماية وزعزعته، يجب على الإقامة ألا تبدي أي نوع من أنواع الضعف من أجل استرجاع السلطة... إن السلطان يحسن تدبير أموره وتصريف آثارها، وسيستغل لذلك كل أسباب العناد والاحتياي والتهديد والاستقواء، وسيستغل كذلك الحجب القانونية الواهية ومعرفته ببعض الشخصيات الباريسية كما سيشار إلى العلاقات الدولية. لكنني مقتنع بأن السلطان سيستسلم في نهاية الأمر إذا خاطبناه خطابا لا ضعف فيه ولا تردد ولا شك"¹⁵

وهكذا تراكمت العديد من الأحداث لترسم حدثا متميزا تمثل في نفي بطل التحرير وأسرته الشريفة، واندلاع الحركة الفدائية الشعبية، فكانت بحق ملحمة وطنية تضافرت فيها جهود وتضحيات بطل التحرير وشعبه الوفي.

2- ثورة الملك والشعب حدث متميز بمجرياته

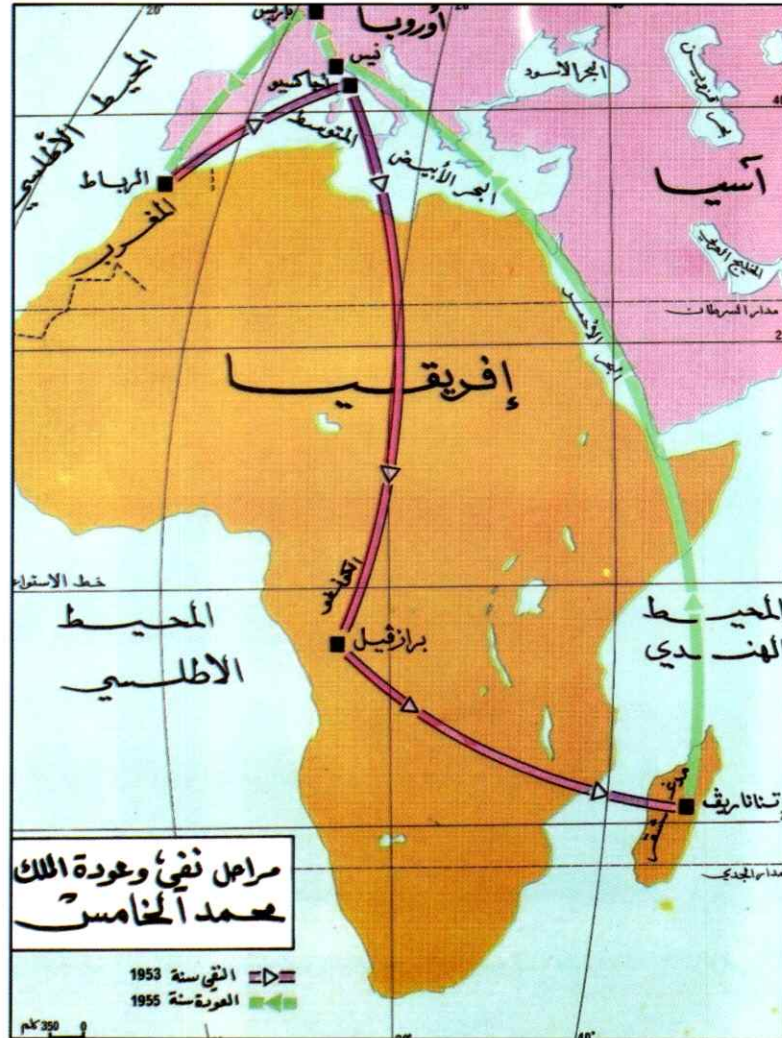
إن نفي بطل التحرير مهدت له السلطات الاستعمارية عبر العديد من الخطوات والمراحل، وذلك كي لا تثير معارضة أكثر لوجودها في المغرب. وتبين الخطاطة المرفقة بعض هذه الخطوات:



15 - من تقرير "ليون مارشال" أحد موظفي الإقامة العامة بالمغرب، ورد في مذكرات من التراث المغربي، الجزء السادس، كفاح الملك والشعب، ص 180.

ويصف الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه بشكل دقيق حادث النفي بالقول: "ففي 20 غشت 1953م، وهو ليلة عيد الأضحى، كان الرباط تحت حالة الحصار... ويصل الجنرال كيوم محاطا بالقوات الفرنسية الخاصة، المسلحة بالرشاشات،... والمقيم العام يتوجه إلى الملك قائلا له باختصار: "إذا لم تتنازلوا حالا عن العرش بالرضى فأني مكلف بإبعادكم عن البلاد صيانة للأمن"... أجاب الملك بكلمات متمهلة: "إني ملك المغرب الشرعي ولن أخون أبدا الأمانة التي أئتمني عليها شعبي الوفي، المخلص، إن فرنسا قوية فلتفعل ما تشاء"¹⁶.

وفعلا أقدمت سلطات الحماية على نفي بطل التحرير انطلاقا من مطار الرباط - سلا، نحو كورسيكا ثم الكونغو، فمدغشقر.



وقد لخص الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى 46 لثورة الملك والشعب موقف السلطان الثابت وتضحيات الشعب المغربي بالقول: "وبإيمان ثابت أبى أكرم الله مثواه أن يقبل حل التنازل الذي اعتبره خيانة للأمانة التي ائتمن عليها شعبه الوفي وفضل المنفى فكان أن اقتيد مع أسرته الشريفة إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر من 20 غشت 1953 إلى 16 نونبر 1955. وكان الشعب المغربي المخلص على امتداد هذه الفترة مفعما بروح محمد الخامس الجهادية، فأجمع على رفض ما أراد الاستعمار إجباره عليه وصمم بإصرار على متابعة نضاله بالتضحية والفداء حتى يرجع ملك البلاد الذي غدا رمزا لجميع القيم الدينية والمبادئ الوطنية. لقد كان التجاوب عميقا بين الأمة وقائدها المبعد وهو تجاوب قواها لمقاومة المحاولات التي توسل الاستعمار بها لإضفاء المشروعية على مؤامراته. وكان المغاربة يشعرون في يقين بأن محمدا الخامس - وهو في غربته - كان متربعا على عرش قلوبهم كافة"¹⁷.

ومن ثمة فإن نفى بطل التحرير لم يكن بداية لنهاية المقاومة، وإنما كان بداية لمقاومة ذات طابع جديد تمثل في الحركة الفدائية، مما أرغم سلطات الحماية على فتح مفاوضات مع بطل التحرير وعودته إلى أرض الوطن، لخوض جهاد آخر عبر عنه بالجهاد الأكبر، من أجل التنمية والتطور في جميع الميادين، وبناء المغرب الجديد. وقد عبر عن ذلك الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه بالقول: "وكنت أظن أن انتفاضة أو ثورة الملك والشعب بعدما رجعنا من المنفى كانت تتويجا، وأنه لم يبق بعدها إلا أن نخوض الجهاد الأكبر كما قال والدي رحمة الله عليه، بعدما انتصرنا في الجهاد الأصغر، ولكن الله سبحانه وتعالى، وكأنه يريد أن تبقى جذوة الوطنية حية نيرة في أفئدتنا وقلوبنا وأكبادنا وحفدتنا، أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطينا فرصا أخرى ليرى هل سننتفض، أم سنبقى قاعدين مع القاعدين"¹⁸.

3- ثورة الملك والشعب حدث متميز بنتائجه

رغم المحاولات التي بذلتها سلطات الحماية من أجل تمرير مؤامرة النفي دون مواجهة، عن طريق تنصيب بن عرفة، وتشديد الحراسة على القصر، واعتقال الوطنيين... فإن المقاومة ستشهد تطورا جديدا تمثل في الحركة الفدائية، التي لخص بداياتها الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه في كتاب التحدي بالقول: "وما إن مرت فترة الذهول الأولى حتى شرع الشعب المغربي يخوض صراعا لا

17 - من الخطاب الذي ألقاه جلالة الملك محمد السادس أيده الله بمناسبة الذكرى 46 لثورة الملك والشعب 20 غشت 1999 م.

18 - من خطاب الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لثورة الملك والشعب، بالرباط يوم الجمعة 30 شوال 1402 هـ، 20 غشت 1982 م. انبعث أمة، الحسن الثاني، ملك المغرب، مطبوعات القصر الملكي، الجزء السابع والعشرون، 1982 م. ص 268.

هوادة فيه اكتسب صبغة اضطرابات جارفة. كان من مظاهرها الأولى أنه اندفع في 11 شتنبر 1953م علال بن عبد الله بشجاعة خارقة في هجوم قام به على ابن عرفة¹⁹.

وعبر عنها بطل التحرير خلال مرحلة النفي بالقول: "إن مشاعري نحو فرنسا لم تتبدل... وبوصفي الملك الشرعي للمغرب فإني وأنا في المنفى المفروض علي أتمزق أسفا لتأكيد أن شعبي يتألم ويعاني، فأعمال القمع تزداد فظاعة يوما بعد يوم، والسجون صارت مملوءة، ودم المغاربة والفرنسيين يسفك²⁰".

إن بطل التحرير طالب بالاعتراف لكل الفدائيين بما قدموه من تضحيات من أجل الوطن، خصوصا وأنه كان يلمس حقيقة التضحية عند قبوله النفي والإبعاد عن الوطن. وقد أكد على ذلك في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة الملك والشعب حيث قال: "إن الأمة المغربية جمعاء مدينة لأولئك الشهداء الأبرار، مدينة للدماء الزكية التي سقوا بها شجرة الحرية، وللأرواح الطاهرة التي جادوا بها ليحيا الوطن عزيزا مكرما، وإن الأسرة الملكية التي شقت لهم طريق النضال، واقتسمت وإياهم الكفاح، لتستمر الرحمة عليهم من الإله العلي القدير" وقدم بعض ما يمكن أن يذكر بتضحياتهم بالقول في نفس الخطاب: "وتخليدا لذكرى شهدائنا الأبرار، تقرر مبدأ إطلاق أسمائهم على ساحات بعض المدن، وشوارعها، ودخل هذا القرار في حيز التنفيذ، فمنذ اليوم، ستتولى طرق بعض مدن مملكتنا بأسماء الشهداء، من أمثال علال بن عبد الله، ومحمد الزرقطوني، ومحمد الحنصالي، والحاج عمرو الريفى، وحماد الفطواكى، وفاطمة الزهراء، وعبد الله الشفشاوني... وغيرهم، حتى نوفي أولئك المخلصين حقهم من التمجيد والتكريم... وقد أبينا إلا أن نظهر اليوم هذه العناية بإزاحة الستار عن اللوحة التذكارية المقامة في المكان الذي سقط فيه المغفور له علال بن عبد الله ذلك البطل الصنديد الذي برهن على أن العرش منبعث من صميم الشعب المغربي، وأنه رمز كيانه وضمان وجوده وسيادته، فهب يفتديه ويفتدي الأمة المجسمة فيه بروحه... وبالإضافة إلى ذلك، فنحن مهتمون غاية الاهتمام بشؤون المقاومين على العموم، وقد عزمنا على أن نؤلف لهم تحت رعايتنا السامية، جمعية نظامية يعترف بمنفعتاتها العامة، ويعهد إليها بالسهر على مصالحهم المادية والمعنوية²¹".

19 - المصدر السابق نفسه ص 95.

20 - من جواب محمد الخامس طيب الله ثراه للمقيم الفرنسي بالمغرب نقلها د ديواروكبير، التحدي، ص 98.

21 - انبعاث أمة، محمد الخامس، ملك المغرب: مطبوعات القصر الملكي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، 1977م. ص 57.

ومن ثمة فإن هذه التضحيات لم تذهب سدى، إذ بعد سنتين من النفي، تم تدشين المفاوضات المغربية الفرنسية، والمغربية الإسبانية، وتم رجوع بطل التحرير، للشرع في بناء المغرب الجديد، واستكمال الوحدة الترابية، واعتبر ذلك بمثابة جهاد أكبر بعد الرجوع من الجهاد الأصغر، وهو ما دشنه بطل التحرير بالعديد من المنجزات في كل الميادين، واستمر مع الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، الذي أكد أنه بالنسبة لبناء المغرب الحديث: "كان أفضل دليل على الحب والوفاء باستطاعتنا تقديمه، هو أن نكظم الألم الذي نستشعره، وأن نتابع بعون الله العمل الضخم الذي كان قد تعهده"²².

وهو ما تبلور في العديد من المنجزات تلخصها الخطاطة التالية:



وما زالت ثورة الملك والشعب مستمرة مع جلالة الملك محمد السادس أيده الله، من أجل مواجهة خصوم الوحدة الترابية وتحقيق التنمية والرفاهية، وجعل المغرب في مصاف الدول المتقدمة. وقد بين ذلك جلالة الملك محمد السادس أيده الله في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، حيث قال: "لقد شكلت هذه الثورة نقطة تحول بين مرحلتين جهاديتين تميزت

الأولى بالكفاح الوطني الذي خاضه جدنا - نور الله ضريحه - ضد الاستعمار البغيض من أجل التحرر واستعادة السيادة مدركا أن بلوغ هذا الهدف مشروط بقيام إصلاح فكري ينطلق من التشبث بالعقيدة ويتخذ التعليم سبيله لتوعية جديدة.

وبهذا أمكن خوض النضال السياسي الذي برز في المواقف البطولية التي كانت لجلالته في مواجهة أعنف التحديات التي كانت تصدر من الاستعمار والتي بلغت مداها بنفيه وأسرته الشريفة بعيدا عن الوطن في تأمر على الشرعية والمشروعية.

وبفضل صموده - أكرم الله مثواه - وما لقي من مساندة قوية بلورها الشعب الأبى في افتداء ملكه وجعل تحرر المغرب رهينا بعودة ملكه الشرعي ورمز سيادته فشلت المؤامرة وعاد الملك المجاهد يحمل بشرى انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية.

وكان بعد هذا أن بلغ الجهاد مرحلته الثانية مرتبطة بالشروع في بناء مغرب حديث، لم تلبث بعد وفاة القائد المحرر أن واصلها خلفه ووارث سره والدنا المنعم جلالة الملك الحسن الثاني قدس الله روحه فبنى وشيد وحدث وجدد، وبوأ المغرب على عهده الزاهر الزاخر مكانة مرموقة تدعونا اليوم - وقد حملنا الأمانة - إلى متابعة المسير بإيمان راسخ وخطى ثابتة وبعزم قوي على الإصلاح والتغيير وتحثنا على الدعاء بالمغفرة والرضوان لجدنا ووالدنا المكرمين وجميع شهداء الوطن الأبرار وسائر المقاومين والمجاهدين الذين قدموا تضحيات جسيمة وافتدوا بالنفس والنفيس هذا المغرب الذي ننعم جميعا به في ظل الحرية والعزة والكرامة²³.

وفعلا فإن ثورة الملك والشعب تعد حدثا متميزا بكل المقاييس، لما تركته للأجيال اللاحقة من دروس وعبر، قل نظيرها، وكانت نبراسا لكل الوطنيين. فحق لصانعيها أن يخلدوا ويتخذوا قدوة للأجيال لما قدموه من تضحيات، وما جسدوه من قيم سامية، وهو ما أكدته خطاب بطل التحرير بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة الملك والشعب حيث قال :

"إن تمجيد الشهداء والعناية بالمكافحين، ليتطلبان منا أن نحافظ على التراث الذي افتدوه بأرواحهم، ورأوه أغلى من أولادهم، وأعز من والديهم، فيجب على الأمة المغربية أن تضع نصب عينيها صيانة الأمانة التي خاض ملكها المعركة من أجلها، ألا وهي حماية الحرية والاستقلال وجمع الكلمة لتحقيق التقدم المادي والمعنوي لهذا الوطن الكريم. لقد كانت ثورة الملك والشعب لتحرير المغرب من الاستعباد، وإنقاذه من الاستبداد، وإيصاله إلى مصاف الدول الراقية العظيمة. وقد

23 - من الخطاب الذي وجهه جلالة الملك محمد السادس نصره الله بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين لثورة الملك والشعب، 20 غشت 2000م.

تحققت أهدافها الأولى والله الحمد، بفضل تضحية الأسرة المالكة والشعب المغربي من ورائها، وبقيت الأهداف الأخرى التي هي أبعد مدى وأكبر أثراً، وهي تتطلب منا أن نبذل من الجهد أكثر مما بذلناه في الماضي، لبناء صرح الاستقلال بكل ما يقتضيه من تحرر في ميادين السياسة والاقتصاد، وتدعيم أركان الأمن والاستقرار، وتمتين عرى الوحدة، حتى نستطيع أن نحقق لهذا الشعب في ثقة وهدوء، ما كنا حريصين على إنجازهِ عشرات السنين²⁴.

وهكذا فإن هذه الملحمة التاريخية، حسب ما ورد في خطاب جلالة الملك محمد السادس أيده الله، بمناسبة ذكرى 20 غشت سنة 2015م: "ليست مجرد حدث عابر، وإنما هي مسيرة متواصلة، لرفع التحديات، على تعاقب الأجيال والأزمان. سلاحنا الأساسي في تحقيق ذلك، التحلي بقيم الوطنية، المرتكزة دوماً على التضحية، من أجل سيادة المغرب وعزته، واعتبار التثبث بمقدساته وثوابته، وصيانة حقوق مواطنيه، وأمنه واستقراره، والدفاع عن وحدته الوطنية والترايبية، ومواجهة أدنى مس بها، جوهر حب الأوطان، الذي جعله جدنا المصطفى، عليه الصلاة والسلام، من الإيمان. بيد أن الوطنية التي تمثلت بالأساس، بالنسبة لجيل التحرير، في مقاومة الاستعمار القديم، تقوم بالنسبة لأجيالنا المعاصرة، على التعبئة الشاملة وتحرير الطاقات، لمكافحة المعضلات الصعبة للأمية والفقر، وبطالة الشباب، واتساع التفاوتات الاجتماعية والمجالية، وكسب رهانات التحديث الديمقراطي، والرفع من مستوى التنمية البشرية، والإنتاج الاقتصادي، والنهوض بالاجتهاد الفكري، والإبداع الفني"²⁵.

كما أنها ستظل ملحمة مستمرة مع الأجيال الحالية واللاحقة، ومناسبة للإعلان عن العديد من مشاريع التنمية الهادفة إلى خدمة المواطن المغربي، وهو ما أكدّه الخطاب الملكي السامي بمناسبة الذكرى الثانية والستين لثورة الملك والشعب: "فسواء تعلق الأمر بنجاح الجهوية، أو بالحفاظ على الأمن والاستقرار، فإن القاسم المشترك، هو خدمة المواطن المغربي.

وهي أمانة ومسؤولية تاريخية، علينا جميعاً النهوض بها، لمواصلة حمل مشعل الثورة المتجددة للملك والشعب، من أجل مغرب الوحدة والتضامن، والأمن والتقدم. وفي ذلك خير وفاء لأرواح أبطال هذه الملحمة التاريخية، وفي مقدمتهم جدنا المقدس، جلالة الملك محمد الخامس، ووالدنا المنعم، جلالة الملك الحسن الثاني، أكرم الله مثواهما، وكافة شهداء الوطن الأبرار"²⁶.

24 - انبعثت أمة، محمد الخامس، ملك المغرب: مطبوعات القصر الملكي، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، 1977م. ص 58.

25 - من الخطاب السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، مساء يوم الخميس 20 غشت 2015م، إلى الأمة بمناسبة الذكرى الثانية والستين لثورة الملك والشعب.

26 - من الخطاب السامي الذي وجهه صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، مساء يوم الخميس 20 غشت 2015م، إلى الأمة بمناسبة الذكرى الثانية والستين لثورة الملك والشعب.

فراڈلہ فہ کتاب

قراءة في كتاب "الشعر العربي في الصحراء المغربية: (جذوره التاريخية - ظواهره وقضاياها)" للدكتور أحمد مفدي

ذ. عبد الله الغواسلي المراكشي

لقد أمدت الطبيعة الصحراوية خيال العربي بالمادة التي صنع منها صوره وأخيلته ومعانيه في جميع أغراض شعره، فأعارته الواقعية وطبعت فيه الصراحة والوضوح والصفاء والقوة والجمال وحب الأرض، وملأت جوانب ومسارح خياله وسمعه وفؤاده وبصره فكرا ودهاء وعبقورية فذة؛ فحياة الصحراء اتسمت بعدد من السمات التي ميزتها عن حياة الحضر، فالبينة الصحراوية كان لها أثرها ولونها بل أثرت في حياة الناس وتناولوها في أشعارهم معبرة عن مواقفهم وحياتهم وسلوكياتهم وتطلعاتهم وخيالهم وأحلامهم، يصف الأعشى جزئية من صورة الصحراء بقوله:

وبلدة يرهب الجواب دلجتها ❁ حتى تراه عليها يبتغي الشيعة
لا يسمع المرء فيها ما يؤنسه ❁ بالليل إلا نثيم البوم والضوعا
كلفتم مجهولها نفسي وشايعني ❁ همي عليها إذا ما آلهامعا

فالصحراء، كما ذكرنا، ملأت على البدوي قلبه ونفسه وكيانه وتفكيره وعاطفته وخياله، فكان ثمرة ذلك أشعاره التي بين أيدينا، وأعطته حضور البديهة والذكاء اللامح، ولذا جاء أدبه أدب السليقة والبديهة ينزع إلى الوضوح والإيجاز في المعنى، فانطلق الشعر يملأ آفاق الصحراء فكأن هذه البينة الصحراوية منحتة سرا من أسرارها.

وللصحراء أثر واضح في الشعر العربي، ولا سيما الشعر الذي قيل على أديمها، والشعر الذي تأثر به في العصور الأولى، وبخاصة شعر عصر صدر الإسلام، والدولة الأموية، والعصر العباسي الأول والثاني. ونلمس هذا التأثير في مختلف جوانب الشعر: الشكل والمضمون والموضوعات. والشعر العربي ليس نصوصا إبداعية فقط، ولكنه - إلى جانب ذلك - يمثل بيئته، ويعبر عن حياة

العرب الاجتماعية، وما تحفل به من نشاط متنوع، وهو بهذا المقياس شعر له رسالة وهدف، وهذا ما دفع بعض الدارسين أن يستوحوا حياة العرب من شعرهم حين قصر التاريخ عن استيعاب ذلك والإلمام به، بل إن مصادر التاريخ كسيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، وابن الأثير، وابن خلدون، تضمنت نصوصا شعرية كثيرة أسهمت في تدوين أحداث التاريخ.

والصحراوات أو الصحاري في قارات العالم كثيرة، من أشهرها صحراء العرب التي أشرنا إليها، وصحراء شمال إفريقية المعروفة بالصحراء الكبرى، ومنها الصحراء المغربية، وهي فضاء جميل واسع ممتد. ويعتبر الشعر بنوعيه الفصيح والشعبي، أهم الأجناس الأدبية التي عرفها هذا الفضاء المترامي الأطراف، وذلك على أيدي شعراء كبار جاشت قرائحهم بروائع سارت بها الركبان ضمنوها تمسكهم بدينهم، وتشبثهم بمغريبتهم، ودفاعهم عن وطنهم، لقد كانت هاته الصحراء التي طالما جثا عليها الاستعمار البغيض بكلكله، وضرب حولها ستارا من حديد، مكانا وموطنا وعاطفة جياشة شفت قلوب الشعراء بمواردها ذات الطبيعة الحية منها والجامدة، فخلبت فكرهم واستمدوا منها ضوءها ومعانيها وأثرت فيهم، فوردوا حياضها الدافئة منها والباردة، فكونت هذا الصرح الشامخ والرصيد الأدبي المهم. وما أكثر الأسر الصحراوية العاملة، وما أعظم ما خلفوه من آثار مكتوبة ومحفوظة في الصدور.

ولما كان الشعر ديوان العرب، وسجل مآثرهم ومفاخرهم، فإن الشاعر المغربي الصحراوي لم يخرج عن هذه القاعدة، حيث ظل مرتبطا بقضايا الوطن، فاستطاع أن يكون في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه، فأصبحت قضية الصحراء المغربية شاغلا له، ومادة لإبداعه وخلقه، تلهمه قصائد وطنية مملوءة حماسة وانفعالا ومشاعر إنسانية، وتشبثا بمبادئ الحرية والعدالة في ظل الوحدة الوطنية التامة.

وقد استطاع الأستاذ الدكتور أحمد مفدي بمهارة العالم الناقد، وموهبة الفنان الشاعر أن يقدم صورة متكاملة وواضحة عن هذا الموروث الشعري في هذه الربوع العزيزة على قلوب المغاربة، وذلك في مؤلفه: "الشعر العربي في الصحراء المغربية (جذوره التاريخية - ظواهره وقضاياها)". والكتاب في ثلاثة أجزاء من منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، بمراجعة وتصحيح الدكتورين عبد الكريم الرحيوي ومصطفى بوخبزة.

يتكون هذا الكتاب من مقدمة ومدخل وأربعة أبواب، كل باب يتضمن فصولا وكل فصل يتضمن مباحث. وقد راعى الباحث في هذا التقسيم مجموعة من الاعتبارات، والتبريرات

الموضوعية، التي ترتبط في الأساس بصلب الموضوع، وخاصة أن مفهوم الشعر الصحراوي، يخضع لمقاييس الشعر العربي القديم، ولذلك كان التبويب منسجما مع مفهوم الشعر في الصحراء موضوعا وشكلا.

المقدمة: حاول الباحث الأستاذ الدكتور أحمد مفدي في هذه المقدمة أن يحدد الخطوط العريضة الخاصة بهذا الكتاب، كما حاول أن يكشف عن الظواهر الأدبية التي نبتت في الصحراء، ولم يكن البحث في هذا الموضوع البكر سهلا وميسورا. ذلك أن الشعر الصحراوي دائرة تكاد تكون مغلقة على نفسها، لم يقتحمها إلا قلة من الباحثين حتى أن المؤلف شبه نفسه وهو يخوض هذه المغامرة بملاح مغامر، يسبح في بحر من الرمال، وليس له خريت يدلّه على المسالك. غير أن عزمه وشدة إحساسه بضرورة الكشف عن مجاهل معرفية ظلت مغمورة من جهة، وحبه لوطنه وإصراره على إسداء خدمة جلييلة لهذا الوطن الأبي، من جهة ثانية، كل ذلك وجهه للصحراء المغربية الغالية للتنقيب عن أسرارها التراثية، وإجلاء مآثره من نبوغ شعري، يرقى إلى مصاف الشعر العربي في أزهى عصوره، يحتاج - بعد أن امتدت يد البلى إليه - إلى البعث والإحياء. خاصة مع انصراف مؤرخي الأدب في شمال المغرب وفي المشرق، على السواء عن تناول الظاهرة الشعرية في الصحراء.

وهكذا لخص المؤلف في هذه المقدمة أهم الأسباب التي دفعته للبحث في الشعر العربي في الصحراء المغربية وهي أربعة، أولها : أن شعر الصحراء في المغرب لم ينشأ في خلاء محمل، وإنما وجد من النماذج التي اتكأ عليها ما ارتقى به إلى معارضة الأعشى وعنترة، والشماخ بن ضرار، وامرئ القيس، وغيرهم. ثانيا : ازدهار الشعر في الصحراء مقارنة مع الألوان الثقافية الأخرى، وذلك على أيدي شعراء كبار أمثال: أبد بن محمد العلوي، والتيجاني العلوي، والهادي العلوي واجدود، والعم العلويين، وابن رازكة، والمختار بن البكني، وابن سقامي، وعشرات اليعقوبيين والمجلسيين، والياداليين، والغلاويين وغيرهم، إذ لا نكاد نحدد قبيلة إلا ونصف أعلامها شعراء. ثالثها : أهمية الصحراء سياسيا، فمنها تهب رياح التجديد على الأقاليم الشمالية بكل خير، وفيها تنشأ الرباطات، كلما دعت الضرورة إلى مجاهدة الطامعين. رابعها : أن الشعراء الصحراويين مالم يكون سنيون وحدويون متشبثون بوطنهم، معترفون ببيعتهم للموكة. وهذا التواصل السياسي والفكري، يجعل دراسة التجربة الشعرية في الصحراء - باعتبارها ظاهرة ثقافية - ضرورة لا استخلاص النتائج التي انبنى عليها هذا الترابط الموصول بالأمشاج، لارتباط الشعر بأحداث الأمة وتاريخها.

وقد أكد المؤلف في هذه المقدمة أيضا أنه قد مال ببحثه هذا عن الهزل، نحو الجدل اعتبارا لطبيعة المجتمع الصحراوي شبه المنغلق على نفسه، كما أكد أنه قد أخضع بحثه لإجراءات علمية، ترمي إلى تحليل الظاهرة الشعرية تحليلا هادفا. وأشار الباحث إلى بعض الصعوبات التي واجهته في هذا العمل، ومنها الصعاب والأهوال التي مرت بها الصحراء المغربية عبر مراحل تاريخها الثقافي، واندراس مراكز العلم، واندثار المحاضر التي كانت تمثل جامعات المعرفة في الصحراء. مع تصدع في الوحدة السياسية، وهو ما أدى إلى ضياع ونهب شعر كثير، بتشجيع ومباركة السلطات الاستعمارية الفرنسية والإسبانية خاصة، التي كانت تهدف إلى طمس هوية وثقافة هذه الربوع العزيزة على المغاربة جميعا، ولعل أبشع صورة على ذلك ما أقدمت عليه إسبانيا حينما أحرقت مكتبة الشيخ ماء العينين في السمارة. وهنا تكمن أهمية هذا الكتاب الذي استطاع صاحبه - بتوفيق من الله تعالى - أن يصل إلى جزء مهم من هذا الموروث الشعري النفيس الذي نجا من عوادي الدهر، وجادت به بعض المكتبات الخاصة والعامة.

ولما كان هدف المؤلف هو الوصول إلى جزء مهم من هذا الشعر عبر الاتصال المباشر ببعض الأعلام من شعراء الصحراء، الذين هم في الأصل أبناء، أو حفدة الشعراء المؤسسين للمدرسة الشعرية بهذه المنطقة، أو ببعض المكتبات الخاصة في الصحراء، انطلاقا من ترزيت، وتارودانت، وسيدي إفني، إلى العيون، والداخلة، والسمارة، وضبط هذا الشعر وتحقيقه وتصنيفه، ثم إعادة قراءته قراءة معمقة، تستنطق الجانب الحضاري، والفني، فقد وجد أن المنهج التحليلي مناسب لهذا البحث، ومنسجم مع مكونات طبيعة الشعر الصحراوي، نظرا لتعدد الملابس التي واكبته، ولتنوع أغراضه، وشمولية ما تناول من قضايا وظواهر، ولانتصابه شاهدا على عصره، واحتوائه تجارب السابقين. فالمنهج التحليلي - حسب الباحث - يعطي الظاهرة الأدبية قيمتها الإنسانية، ويخرجها من الطابع الفردي إلى الطابع الجماعي.

غير أن الأخذ بهذا المنهج التحليلي، لم يمنع المؤلف من الاستفادة من بعض المناهج الأخرى كالمنهج التاريخي في دراسة المدخل، والمنهج الفني في تحليل النصوص الشعرية لمحاولة تلمس الذوق الجماعي، الذي تصب فيه أذواق الشعراء.

المدخل: يتميز المدخل الذي وضعه الكاتب لمؤلفه، وقسمه إلى قسمين، بأهمية كبيرة بالنسبة لموضوع الكتاب، ذلك أنه طرق فيه مجموعة من المسائل التي كان لابد من الرجوع إليها قبل الخوض في إشكالية الشعر العربي في الصحراء المغربية، ويمكن تلخيص ما جاء في قسمه الأول، فيما سماه بتميز

الزمن المغربي بمميزات طبعت اتجاهه الفكري، عبر مسيرته التاريخية، وميزته عن أزمنة الفكر العربي في المشرق. ويبرز هذا التميز أكثر في أن المشرق عرف تعددية مذهبية خطيرة، أما الفكر المغربي، فقد حافظ على نسقه الوحدوي المتد، دون تفريط أو إفراط. فهو فكر يقوم على الوسطية والاعتدال، ووحدته المذهب مع تصوف أو صوفية تطهر النفس، وتصلق الروح باعتبارها تعبدا سنيا.

كما حدد المؤلف في المدخل الزمان الذي يود رصد إبداعه الشعري، وحصره في النصف الثاني، والنصف الأول من القرنين الثالث عشر، والرابع عشر الهجريين، نتيجة ما لهذه الحقبة من أثر قوي في الشعر الصحراوي، حيث إن صحراء المغرب لم تعرف نهضة ثقافية جماعية مثل ما عرفته في هذه الفترة، مع الاسترفاد بما رشح من أعلام الشعر في القرن السابق. وهو الزمن الذي سماه المؤلف بزمن التلاحم بين المغربين الأقصى، والأوسط: الأوسط بقيادة المجاهد عبد القادر بن محيي الدين الحسني الجزائري، والأقصى بقيادة عاهله السلطان المولى عبد الرحمن. كما حدد المؤلف أيضا الحدود الجغرافية للصحراء المغربية التي يؤكد أنها تشبه في كثير من تقاسيمها ما درجت عليه الصحراء العربية في الجزيرة، فهي الأرض الواقعة غرب الصحراء الكبرى، ويحدها شمالا جبال الزاق، وجنوبا قاع بن هيب حتى بلاد أندر نهر السنغال، وغربا المحيط الأطلسي، فهذه الصحراء تاريخيا هي الحوض، والساقية، والوادي، أو بلاد تيرس، وشنقيط، وأدرار، وغيرها.

غير أن الرائع في هذا الزمن، أن ينهض شعراء الصحراء المغربية - كما يؤكد المؤلف - برسالة الجهاد، والدفاع عن الوحدة الوطنية، ومجاهدة الغزاة، مهما كان كلكلهم ثقيلًا، واجتياحهم رهيبًا، ولعل طائفة الشاعر الأمين بن اليدال الديباني خير معبر عن نماء هذا الوعي الوطني عند أهل الصحراء، ووضوح رؤيتهم السياسية. يقول فيها:

فدى لأمير المؤمنين نفوسنا ❁ وأموالنا أولادنا والأسابط
أعالي الذرى أتوك من كل سنة ❁ قبائل عز ما هن أخالط

ومنها أيضا قوله :

وفي القلب منى عقدة لا يحلها ❁ على العهد منكم ما يحل الروابط
وإني لمحتاج بدلوي مع الدلا ❁ إليك وغصنا من سماحك خابط
لعلي أحظى من نداك بنفحة ❁ فيجبر كسري بالذي هو فارط

وفي هذه القصيدة يحدد لنا الشاعر الديباني الصحراء المغربية، بوفود القبائل التي جاءت تجدد البيعة لسلطان البلاد المولى عبد الحفيظ، وسائلة النجدة، يقول :

أعالي الذرى آتوك من كل أمة ❁ قبائل عز ما لهن أخالط
وما ليط بالسبطين من علوية ❁ ومن آل بو حسين ركبا أراهمط
وكالوفد من آل الأشج وناقص ❁ وأبناء شمس الدين حيث المراسط
ومن آل عبد الله محمود والذي ❁ من أحد من دامن في العقد واسط
وللجكنى الوفد من خير فتية ❁ ومنا بنى ديمان في الركب فارط
وحاصيها صاديا ومسومها ❁ ولتونها أغلالها والزوافط

أما القسم الثاني من هذا المدخل المعنون بـ "البيئة الصحراوية، وأثرها في تشكيل الرؤية الشعرية"، فقد تحدث فيه المؤلف عن علاقة الصحراء بالشعر، حيث ظل هذا الفضاء الشاسع الجميل قدر الشاعر الذي يلاحقه، يحمله في قلبه أنى حل، ويتمثلها صورا صادقة فيما تفرزه أمامهم من مفاتن ومخاوف. مؤكداً أن الشعر العربي في الصحراء - أيا كانت صحراؤه، ومتى كان زمانه، عمل فني أسهمت فيه الجماعة، حيث حرصت على ازدهار أغراضه، وحفظ عيونه، كاشفاً عن حجم المعاناة القاسية والأليمة التي كابدها الشعراء الصعاليك عندما عزلتهم الجماعة، التي هي - في مفهوم الحياة الاجتماعية الصحراوية - حياة وانتصار على الموت، والفرقة موت، وهو أعظم تصور لحياة الناس. كما أشار الأستاذ الباحث إلى انبهار الشاعر العربي بصفة عامة، والشاعر المغربي الصحراوي بصفة خاصة بمظاهر الطبيعة من أنواء ورياح، وأمطار وعواصف هوجاء، وموقفه من مكونات الحياة الاجتماعية من راحلة ومطية أو ناقية، مقدما نماذج شعرية جميلة ومعبرة من الموروث الشعري العربي (امرؤ القيس، لبيد، الأعشى، الشماخ بن ضرار، عمرو بن كلثوم، النابغة الذبياني، أبونواس، إلخ)، وأخرى من الموروث الشعري الصحراوي المغربي، كالشاعر المغربي أحمد الهيبه بن الشيخ ماء العينين الذي رقت نفسه وفاضت عذوبة، فرأى في البرق جمالا متناهيا، يقتبسه صورة لمن أحب. يقول :

أبدر لاح أم برق تلالا ❁ أعقد التبر يشتعل اشتعالا

والشاعر محمد بن الطلبة اليعقوبي الذي يتحدث في أبيات جميلة عن ناقته وما لقيته من مشاق وعناء، قبل أن تصل به إلى ممدوحه، وكل ذلك ليجب عليه حق القصد، وذمام القاصد، ويستحق المكافأة. يقول :

نجائب يحدوها سرى وتهجر ❁ يباري بها الدو النعام المخزما
 نجائب لا يعظم من المهول كلما ❁ تغول مجهول التناثف معظما
 تخيرت منها لاهتمامى عرندسا ❁ يخال على الترحال والحل مقرما
 بويزل عمام كالمصاد عذافر ❁ كأن عليه خدر حـدج خيما

فالشاعر في الصحراء المغربية - كما يؤكد المؤلف - يرى في المطية ما يراه الشاعر الجاهلي فيها، من بريق أمل لامع، وأصل كريم مانع من كل شر، وهذه الظاهرة، في نظره، ليست تقفي حذو القدماء، إعجابا بهم، أو بما نظموا من عيون الشعر، وإنما هو استجابة لما تصفو به النفس من ميراث حضاري مصقول، وتشبث بكل رائق أصيل.

والواقع أن الصحراء والبادية ظلت على العموم هاجس الشاعر العربي، أنى كانت إقامته، ومتى كان زمانه، دون أن يتأثر برغد العيش، وترف الحياة في شعره، إلا بالقدر الذي يعبر فيه عن واقعه. وقد ظل هذا حاضرا حتى عند شعراء العصر الحديث والمعاصر أمثال الشاعر أحمد شوقي، وزعيم الشعر العربي المعاصر بدر شاكر السياب الذي رأى في الطلل - كما رأى فيه القدماء - كائنا يتحرك، ويدرك، ليخلص المؤلف إلى نتيجة مفادها أن التقاليد الشعرية التي توارثها الجاهليون، ونسجوا شعرهم على منوالها، هي التي تسلمها الشعراء العرب، وبنوا فنون القول عندهم على غرارها عبر كل العصور. وهكذا تبقى الصحراء ذات طابع مؤثر تأخذ بتلايب الشعراء، لينبغوا مما توحى به، وهي لا توحى إلا بما تكس في الوجدان.

هذا، ويناقش المؤلف في هذا المدخل آراء بعض النقاد في مسألة الاستفادة من الماضي والنهل من معينه، ومن هؤلاء أدونيس الذي يرفض المكرور من القول لدى الشعراء المعاصرين، ويرفض إعادة النسخ والنسخ، والدكتور نجيب البهيتي الذي يذهب إلى أن الشاعر العربي لا يفتأ يتوسد الموروث، يستمد منه ما يدعم تجربته. والدكتور محمد مندور الذي يرى أن استلهام الماضي، لا يحول بين الشاعر والتجديد، بل يسعفه بعالم يتهيأ لغيره المنفصل عن القديم. فالعودة إلى استلهام القديم - كما يؤكد الدكتور أحمد مفدي - دلالة على نضج التجربة، واختبار في البكاء على الديار، أو بكاء العصر المنهار، أو بكاء النفس المأزومة، دلالة على السموق الفني، المنعطف إلى الورا، لتزداد نظرته إلى المستقبل جلاء ووضوحا.

إن هذا الاتجاه الفكري الذي تزعمه الشعراء الجاهليون الذين كانوا في بكائهم على الطلل ينشدون البديل المشع لواقع كئيب، هو الاتجاه نفسه - يؤكد الباحث - الذي سارت عليه المدرسة الشعرية في الصحراء المغربية، وما يزال بكل إحياءاته وزخه الحضاري مطلبها الفني حتى اليوم.

ثم انتقل الباحث في هذا المدخل الغني والمهم، إلى الحديث عن الظروف والملابسات التي سادت الصحراء وأثرهما الكبير على حركة الشعر، ملخصا هذه الظروف في كون الصحراء المغربية، لم تكن في سالف عهدها قاحلة جرداء، فقد كان للعلايين - قبل توطنهم - آبير - وشنقيط بتباللت، أسواق كثيرة، وعيون جارية. غير أن دواهي الزمن، وظاهرة التصحرهي التي جعلت المكان قفرا. كما أشار إلى أن الصحراء المغربية، كنظيرتها العربية، لم تنج من حروب قبلية طاحنة، رغم تدخل السلطة المركزية لإخماد الفتن، كما فعل السلطان المولى إسماعيل الذي عقد لواء المحلة لعل شذوره، حيث عاقب بها أبناء رازك الذين عاثوا في الأرض فسادا. إضافة إلى ظاهرة الثار التي استفحلت بين القبائل الصحراوية، مساعدة على تأريث الحروب القبلية، حتى أصبح من الصعب استئصالها. ومن أخطر الحروب التي عرفتھا الصحراء المغربية حرب كتنة وإد ولحاج، التي دامت مدة من الزمن فاقت حرب البسوس . وقد أشار المؤلف بالمناسبة إلى العديد من هذه الحروب وأيامها مثل :يوم كنديكه، ويوم أين كربه، ويوم لمويرات، ويوم شبك، ويوم يرتلاش، ويوم شنقيط، ويوم بدر الكبرى، مؤكدا على الأثر الذي خلفته هذه الحروب في نفوس الشعراء الذين انقسموا إلى مؤيد لها يذكي بواعثها، وينفخ في نارها، ومعارض لها محذر من عواقبها الوخيمة على البلاد والعباد.

ومن القضايا التي أججت القبلية في الصحراء المغربية أيضا، ظاهرة الكيد الصليبي للأمة المغربية في عقيدتها ووحدتها، ذلك أن الحرب الصليبية - كما يرى المؤلف - لم تنته بسقوط الأندلس، أو بانكسار الصليبيين في معركة وادي المخازن. وقد كان لفرنسا يد طويلة في ذلك. فإذا أضفنا إلى هذا كله بروز ظاهرة الصعاليك، والإيمان بالخوارق والخرافات، إلى غير ذلك من الاضطرابات الجسيمة التي أثقلت كاهل الدولة، كل ذلك جعل زعماء الشعراء من الصحراء المغربية وعلمائها، يحسون بارتقاء الحبل، وسريان الدس، والكيد، فحاولوا شد الحبل، وربط أطرافه بيد سلطة شرعية قوية.

ولأن التأسيس الفعلي للحركة الإبداعية، يتطلب وجود من يحرك الطفرة ويرعاها، فقد انتقل الدكتور أحمد مفدي للحديث - في الباب الأول من هذه الدراسة الذي عنوانه بـ "التأسيس والتععيد" - عن الرواد الأوائل الذين حملوا المشعل وقادوا الحركة الشعرية في الصحراء المغربية، أمثال الشاعر عبد الله العلوي (ابن رازكة) مؤسس المدرسة الشعرية، ومحمد بن الطلبة اليعقوبي

الذي قعدها فانطبعت بطابعه البدوي، والشيخ ماء العينين الذي ورث ذلك كله، فوظفه في بعث الحياة الفكرية في الصحراء، مستعينا بالشعر على الجهاد، وإثراء الحس الوطني. إن هؤلاء الأعلام الثلاثة الذين يمثلون الوجوه المشعة التي تمثلت القديم، هم من قادوا حركة التأسيس، وعرفوا كيف يرعون البذرة الأولى التي أسسوها، وكيف يقودونها إلى الإحياء حتى أتت أكلها في الصحراء، فأصبحت المدرسة الشعرية الصحراوية متميزة، لها من الشموخ الفني ما يميزها.

وقد خصص المؤلف حيزا مهما للحديث عن هؤلاء الرواد الأوائل، فتحدث عن مولدهم ونشأتهم، وقبائلهم، وانتمائهم الاجتماعي، كما تحدث عن أشعارهم، مشيرا إلى الأغراض الشعرية التي خاضوا فيها، من مدح وفخر وغزل ورناء، وشكوى. غير أن حديثه عن دور الشيخ ماء العينين في بعث الحس الوطني لدى الشعراء كان متميزا، فهذا الشاعر الواسع المعرفة، العالي المهمة، كان هاجسه الأول هو لم الشمل، وجمع الشتات، تحت راية الوطن، والحفاظ على الحدود التاريخية للمملكة المغربية، ومنع التسرب الاستعماري، وذلك بإقناع رؤساء القبائل وزعمائها، مبينا لهم وجه المصلحة في ذلك. من أجل ذلك احتفى الملوك العلويون به، ودعموه دعما ينم عن احترام فائق، وثقة وطيدة، وتقدير متزايد لوطنيته.

وهكذا تحدث الدكتور أحمد مفدي عن رحلة هذا الشاعر المغربي الصحراوي المفتون بحب وطنه، إلى الشرق، مشيرا إلى رحلاته بين قبائل الصحراء، واتصاله بالملوك العلويين، خاصة المولى الحسن الأول، والمولى عبد العزيز، وقد سار الشيخ الشاعر بذلك على سنن أسلافه في علاقتهم مع هؤلاء الملوك الأشراف. كما أشار المؤلف إلى المكانة العظيمة التي حظي بها هذا الشاعر في النفوس، مبينا أن مكانته الروحية والفكرية كانت أعظم من مكانته السياسية.

وليس غريبا أن يمتلك الناس شعور بمحبة الشيخ واحترامه. فهو كما قال الشاعر محمد بن الطالب أحمد:

مؤلف أشات الفضائل كلها ❀ وجامع أشات الورى بالتكرم
هو الغوث ماء العينين قدوتنا الذي ❀ له نسبة المجد الصميم المعمم
تقي نقي أريحي مهذب ❀ صفى ذكي وابن طه المكرم
قبيلته خير القبائل كلها ❀ ضياغم في الهيجاء من آل زمزم
هو الليث يوم البأس مهما رأيته ❀ ترى بطلا طراد جيش عرمرم

لقد كان للشيخ ماء العينين، إذن خصوصية روحية في نفوس عامة أهل المغرب، وخاصتهم، وشفوفية صوفية في - نفوس رجال المخزن، وأعوان الدولة الكبار.

لقد كان الشيخ ماء العينين - حسب المؤلف - منارة المجاهدين في الجنوب، به يستضيئون، وبنهجه يقتفون، وعلى يديه اتحدت كلمة المجاهدين الذين قرعهم على مجاهدة النصارى تحت لواء السلطة الشرعية. فالبينة للسلطان باقية، لا تتأثر بضغوط المستعمر، والحل والعقد بيد صاحب العرش. فهو وحده الذي يفاوض في أمر المغرب من نهر السنغال إلى طنجة.

وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب القيم، تطرق الأستاذ الدكتور أحمد مفدي للمدرسة الإحيائية في الصحراء المغربية، وعلاقتها بنظيرتها في المشرق العربي، موضحاً أن حركة الإحياء الصحراوية في جنوب المغرب سابقة على حركة الإحياء في المشرق، حيث ظلت حركة الشعر نشيطة نشاطاً لا يفتّر، يرفدها التواصل الثقافي بين الشمال والجنوب، وانتشار المحاضر العلمية والزوايا الدينية، وكثرة المكتبات العائلية التي كانت الأسر الكبيرة تفخر بامتلاكها. كما أن الجو النفسي والاجتماعي وطبيعة الحياة في الصحراء، ساعد شعراء الصحراء على إحياء روح الشعر القديم. وفي الوقت الذي صعب فيه على شعراء المشرق أن يتصلوا بالشعر الجاهلي والأموي لما يطرحه هذا الشعر من مفارقة في اللغة والوسط، فإن شعراء الصحراء المغربية، لم يجدوا ما يحول بينهم وبين اتصالهم بذلك. لأن ثقافتهم اللغوية متينة، يستمدونها من المتون والمعاجم والأشعار الجاهلية. وهي اللغة التي تنسجم مع حياتهم دون تكلف. وقد قاد حركة الإحياء في الصحراء شعراء رواد أمثال : عبد الله العلوي ابن رازكة الذي يعتبر عند شعراء الصحراء بمثابة امرئ القيس عند الجاهليين. وأمثال محمد بن سعيد الديماني وابن الطلبة اليعقوبي والمختار بن بون الجكني، وغيرهم. يقول ابن رازكة مباحياً بما هو عليه من نزوع صحراوي ونفس جاهلي:

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا ❁ وسمها بحورا لآل تسبحها سبحا
ولاترعها إلا الذميل فطالما ❁ رعت ناضر القيصوم والشيخ والطلحا

فالشاعر الصحراوي إذن لا يقارع الوهم المهيمن على مشاعره - حسب المؤلف - كما أنه لا يمتح من سراب صعب المنال، ولكنه ينحت من شعر صحراوي سامق دوحه في الصحراء. ومما وقف عنده المؤلف في الفرق بين المدرستين الإحيائيتين المشرقية والمغربية، ظاهرة الوقوف على الأطلال، التي تعتبر عند الشاعر المغربي حقيقة قائمة، نشأت عما يعتور الصحراء من الهدم والإحمال،

في حين لم يعيش الشاعر المشرقي هذه التجربة، وإن حملها في نفسه. ومن هنا خلص الباحث إلى أن الشاعر الصحراوي حين يعارض أو يبدع، إنما يخلق جوا فنيا، معبرا عن حياته وواقعه، وينشد ما ينسجم مع بيئته، أما شاعر البعث في المشرق، فلا يعدو عمله أن يكون نقلا للأجواء يستعير منها الظلال والرموز من طعائن، وأطلال، ورواحل، وكثبان رمال، وغيرها.

واعتبارا لكون شعراء الصحراء المغربية كانوا مرتبطين بربروع المملكة من أقصاها إلى أقصاها، فطبيعي أن يتفاعلوا - تأثيرا أو تأثرا - مع نظرائهم في هذه المناطق، من أجل ذلك تحدث المؤلف عن المدرسة الصحراوية وأثرها في شعراء الوطن، خاصة شعراء سوس، نظرا للاتصال القوي الذي ربط - عبر التاريخ - ما بين سوس والصحراء، فالمدرسة السوسية أقرب المدارس حيوية ونشاطا إلى المدرسة الصحراوية، وهو ما أدى إلى ازدهار حركة الشعر التي اعتبرت مدا حضاريا، وأصيلا ما بين وشائج الأخوة. ويظهر هذا التأثير في بائية الإفراي التي يمدح فيها الشيخ ماء العينين:

هذي مرابع ليلي فاقض ما وجبا ❁ وانثر من سر ماء العينين ما احتجبا
واربع على الربع واذكر جيرة رحلوا ❁ وخلفوا الوجد والأشواق والكربا

إن الشاعر السوسي يرى في الشيخ ماء العينين، كما يراه الشعراء الصحراويون، الصفو بلا كدر، والنفع بلا ضرر، والأمن بلا حذر، والفيض الذي لا ينضب. ويتجسد هذا الإعجاب والتقدير في بائية الشاعر الطاهر الإفراي التي رثى فيها الشيخ ماء العينين والتي مطلعها:

المجد يعول والسيادة تندب ❁ والعلم ما عينه حزنا يسكب
قال العواذل ماله فأجبتهم ❁ والحزن يخرس والمدامع تعرب
لما ثوى شيخ الشيوخ وعالم الإسـ ❁ لام ماء العينين ناح المغرب
وفيهما يقول :

مات الإمام المستضاء بنوره ❁ مهما دجاليل الضلال المكرب
مات الذي أمواله وعلومه ❁ لذوي الخصاصة والجهالة توهب

وإلى جانب شعراء سوس الذين أثرت المدرسة الشعرية في الصحراء المغربية فيهم، نجد شعراء الشمال في مدن كفاس وسلا ومراكش وطنجة وتطوان وغيرها، يقرضون كتبه، ويتصلون

بشعره، ويطلعون على الجديد من أفكاره. فالعديد من الشعراء الصحراويين درسوا بفاس، أو درسوا فيها، وتحلق حولهم على الطلبة الذين لمعوا في المعرفة الإسلامية، وبرزوا في الإفتاء. من أجل ذلك فإن شعراء الشمال لم يكونوا أقل تأثيرا من السوسيين بالمدرسة الشعرية الصحراوية. ونجد صدى هذا التأثير نفسا وبنية وموضوعا في أشعار اليملاحي، والبلغيتي، والبوعزاوي، والسكيرج، وعبد الواحد الفهري الفاسي، والسلطان مولاي عبد الحفيظ، وعبد الرحمن الكبير بن السلطان الحسن الأول، وعبد الرحمن بن زيدان، وعبد الرحمن بن جعفر الكتاني وغيرهم كثير. وقد ظل الشعراء المغاربة في الشمال، يتتبعون حركة الشيخ ماء العينين وما يواكبها من ثورة فكرية، لاعهد لهم بها في عصر انحسر فيه الميل عن الاجتهاد إلى الحواشي، وضعفت القيم. يقول الشاعر أحمد الزعيمي:

لبانة مزجت في الحب ألباني ❁ عهدي بها عندكم يا جيرة الباني
فيا عريب الحمى لي فيكم رشاء ❁ فهل تراءى لكم ببعض أفنان؟

ويصل بهذه المقدمة إلى إظهار ما للشيخ ماء العينين من أثر فكري حرك أهل الشمال للأخذ به، والنسج على منواله، كقوله:

فإنه نزهة الأحداق روضة إشرا ❁ ق وتنوير آماقي لخلان
وقوله:

بحر العلوم إمام الخافقين ومن ❁ له العوارف قد دنت بإذعان
ركن الشريعة محيي الدين ضابطه ❁ جاني العوارف من بستان عرفان

ويقول عندما حل الشيخ ضيفا على السلطان المولى عبد العزيز سنة 1319هـ، وقد صادف يوم مجيئه نزول غيث كريم:

غيثان قد هطلا بآن واحد ❁ غيث السحاب وغيث ماء الواحد
هطل السحاب على الربى فتزينت ❁ بحلى الأزاهر، كالفتاة الناهد

وفيها يقول عن الشيخ ماء العينين:

وبه منار الدين يسمو في العلا ❁ فيزيل كل غواية ومفاسد
ويذود عنه بنفسه وبماله ❁ إذ غيره لولاه ليس بذائد
يانخبة الكبراء، يا بحر الندى ❁ يا غوث أهل مدارس ومعاهد
هذي مواسم ملتقى شيخ الـورى ❁ فاهناً بها، فالفضل ليس بنافذ

وقد أكد الأستاذ الدكتور أحمد مفدي من خلال استقراءه لشعراء الشمال، أنهم قد ترسموا اللون الشعري لمدرسة الجنوب، يأخذون منها نظام الجمل القصيرة، ولون الإيقاع الداخلي، وتلوين القوافي داخل البيت الواحد.

وبعد أن تحدث المؤلف عن قضية الإحياء في الشعر المغربي الصحراوي، وأثر هذه المدرسة في شعراء المملكة، سواء في سوس أو في الشمال، انتقل إلى رصد الخصائص الشكلية لشعر الصحراء المغربية، ولخصها في الميل إلى الغريب، الذي لم يكن عند كبار الشعراء المغاربة مدعاة تفاخر أجوف يقود إلى حشد ركam لغوي معزول عن الحياة، وإنما كان صدى لما اختزلته نفوسهم من ظلال عصر مضى، لكن هذا العصر الذي مضى، ما تزال ظلاله وارفة في ذاكرتهم، غامرة بيئتهم بألوان الحياة المستجدة، وليس لهم من ألوان التعبير وأدواته عن واقعهم غيرها، لذلك جاشت نفوسهم بما تملأت به وفاضت مشاعرهم شعرا يصور الأطلال وكثبان الرمال المتقلبة، ومعاناة الرحلة ووصف الراحلة، فالبيئة واحدة، والظرف متشابه، والأخذ بالغريب أدعى إلى الصدق، وأقرب إلى الواقع. يقول ابن رازكة:

سقى دمن الحي المتفائض ❁ وفي وجهه برق من البرق وامض
يصب عليهن المياه كأنه ❁ لمادنس العصران منهن راحض
معاهد آرام الأنيس فأصبحت ❁ وفيها لأرام الفضاء مرابض

فابن رازكة - مثل غيره من شعراء الصحراء المغربية- لم يصطنع لغة غير التي ألفها قومه، ودرجوا عليها. وليس في اختيار الغريب - كما يؤكد الدكتور أحمد مفدي- ما يشين الذوق العام، إذا كان هذا المنحى هو وحده القادر على نقل ما في خاطر. ولعل معرفة هذا الشاعر بالشعر القديم، واتصاله به كانا وراء هذا الميل الجامح إلى غريب اللغة.

وقد أكد المؤلف أن الشعراء المغاربة في الصحراء، يأنفون من الميل إلى مراجعة قصائدهم وتنقيحها، ولعل تشبثهم بالطبع في الشعر، وميلهم إلى الجريان مع فيضه الغدق الصافي ناجمان عما فرضته البيئة عليهم من حياة بسيطة وعزوف عن التعميق، وتعلق بالبداوة التي لم تعكر صفوها المدنية الجديدة. وهذا لا يعني عدم وجود شعراء أخذوا بالبديع، وتميز شعرهم بالإيغال أحيانا في الصنعة، والكلف بالبديع. ومن زعماء هذا الاتجاه الشاعر محمد بن سعيد اليدالي الديباني، ومحمد العلوي، واشبهن ابن الشيخ ماء العينين، وغيرهم. ويقدم مؤلف الكتاب قصيدة لابن سعيد الديباني نموذجا على ذلك. وفيها يقول مادحا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

طود الجلالة بادي البسالة ❁ نجم الرسالة بدر التمام
سهل السجيا جم المزايا ❁ بين البرايا وسط النظام
مبدي العجائب مهدي الرغائب ❁ له كتائب أسد اللطام
سود الوقائع خضر المربع ❁ بيض الشرائع حمى السهام
وجهه جميل طرف كحيل ❁ ظل ظليل على الأنعام

وقد خلص المؤلف بعد أن عرض نماذج عديدة لهذا النوع من الشعر الذي يأخذ بالبديع إلى نتيجة مفادها أن جريان الشعراء في الصحراء المغربية مع طباعهم كان أصدق دلالة، وأقوى جزالة. أما البديع، فلم يكن عندهم إلا وسيلة تعبيرية فقط عن أشياء أخرى غير شعرية، وأن الدافع إليها لم يكن جزءا من دواعي القول عند الشعراء.

وبعد ذلك انتقل مؤلف الكتاب الدكتور أحمد مفدي إلى الحديث عن الحركة النقدية التي قامت حول شعر الصحراء المغربية، ومن ذلك على الخصوص تتبع النقاد لبعض مظاهر الضعف في البناء الشعري عند هؤلاء الشعراء؛ فعلماء الصحراء لم يتساهلوا مع الشعراء، حتى ولو وقعوا فيما وقع فيه الشعراء القدماء، أو كان من ضرورات الشعر. ذلك أن المدرسة اللغوية في الصحراء كانت مزدهرة، وازدهارها - حسب المؤلف - يجعلها تشدد في اللغة، وتلزم الشعراء الأخذ بالفصيح، ولا تقبل أعذارهم، وترفض مسوغات الضرورة الشعرية.

ولأسلوب الأداء عند الشعراء الصحراويين نصيب في الكتاب؛ حيث خصص المؤلف الفصل الثاني من الباب الرابع للحديث عن هذا الموضوع؛ فتحدث عن الوزن والإيقاع في هذا الشعر، مؤكدا أن جل الشعراء الصحراويين الكبار اعتمدوا البحر الطويل وزنا وإيقاعا لقصائدهم، ولم يشذ

عن ذلك أحد منهم. مبينا أن الشاعر الصحراوي كان على بينة من الأنماط الموسيقية التي يوفرها الإيقاع الشعري، ولا سيما أن الحياة الصحراوية أدعى إلى خلق متنفس تهدأ فيه النفس وترتاح من كد العمل وعناء الحر، إلى النغم المزجي.

أما المقدمة الغزلية في الشعر الصحراوي، فهي - حسب المؤلف - رمز تعبيري، فالشاعر في كثير من الأحيان، لا يعني حين يتغزل أنه دنف محب أو أنه متهالك في حب التي ظعنت عنه، وإنما يتخذ من كل ذلك رمزا يرمز به إلى الغرض الذي يقصده أي يرقى به من تعبير مجازي ينطبق عليه وحده أو على من سار مسراه.

أما أهم الخصائص الموضوعية التي تميز الشعر المغربي في الصحراء، فقد حددها الدكتور أحمد مفدي في الواقعية، حيث فرضت الحياة الصحراوية على الشاعر أن يتعلق بالواقع.

فالشاعر الصحراوي ضمير قومه، وسجل واقعهم ووقائعهم، ينفعل بأحداثهم، وتؤثر فيه مظاهر بيئتهم، فينقلها نقلا فيه كثير من الصدق. وهو اتجاه - كما يؤكد المؤلف - تميز به الشعر الصحراوي عن غيره. وقد قدم الباحث نماذج شعرية عديدة لتأكيد ذلك.

ومن الخصائص الموضوعية لشعر الصحراء المغربية التي رصدتها المؤلف، النزوع الصوفي في هذا الشعر؛ حيث أكد الدكتور مفدي أن الشاعر المغربي في الصحراء قد تملأت روحه بالإسلام، ونفذ إلى العمق، فنشأ نشأة دينية صميمة. لذلك نجد مسحة الدين تلامس الشعر الصحراوي، ونجد النفحة الصوفية تبرز قريضة، لأنها تهيمن على الجو الذي يتنفس فيه. وبالجملية يمكن القول إن النفس الديني يبقى السمة البارزة في الشعر الصحراوي.

وهذا ما جعل شعراء الصحراء - في رأي المؤلف - شديدي الإحساس بالجمال، متعلقين بالقيم الخالدة والجميلة، من حلم وورع ومروءة وكرم وسماحة وإيثار، فلا نكاد نجد شاعرا منهم إلا وله وقفة تمل، وتأمل فيما توارثه قومه من القيم. ولم يختلف شاعر من شعراء الصحراء عن التغني بهذه القيم الخالدة، ولم يتوان في نشر فضائلها.

وقد ذيل الأستاذ الدكتور أحمد مفدي كتابه القيم بخاتمة ضمنها أبرز الخلاصات التي وصل إليها من خلال بحثه في الشعر العربي في الصحراء المغربية؛ ولعل أبرز نتائج هذا العمل: التأكيد على أن المدرسة الشعرية بالصحراء المغربية، قد حافظت على التواصل الثقافي بين الشمال والجنوب، مما انعكس على الحياة السياسية والاجتماعية التي ظلت قوية النسيج، يستند بها الفكر، ويدعم لحمتها

الشعر بما ينشره من مزايا الوحدة. وقد رعت الدولة العلوية الشريفة هذا النشاط الشعري والإبداعي واحتفت به، وأمرت خلفاءها وولايتها كالأمير محمد العالم، والسلطان المولى عبد الرحمن، والسلطان سيدي محمد بن عبد الله، باحتضان العلماء والشعراء أمثال ابن رازكة، وحفيده محمد العلوي، والشيخ سيدي بن المختار بن الهيب الإيبري وغيرهم. فكانت قصورهم في مراكش وفاس تعج بهم، ويكفي أن نذكر هنا أن الأمير محمد العالم قد خص ابن رازكة بتجلة خاصة، وهي المكانة نفسها التي حظي بها حفيده محمد العلوي عند السلطان المولى عبد الرحمن. مما يدل على أن ارتباط شعراء الصحراء وعلمائها بالعرش العلوي المجيد قد توارثته الأجيال جيلا بعد جيل، ولم تزد الحقب والسنون إلا قوة وصلابة. وقد أسهمت القبائل العربية التي استوطنت الصحراء، دون استثناء، في إثراء الحياة الثقافية وإغناء حركة التأليف. ويعتبر الشيخ ماء العينين، الذي تميز بزخمه المعرفي ونزوعه الإصلاحية، من أهم علماء المغرب في الجنوب، ومناضليه الوطنيين الغيورين. وقد وجد - هو وغيره من شعراء الصحراء - في الشعر باعتباره أقوى الأجناس الإبداعية حضورا في الصحراء المغربية، وسيلة سخرها لخدمة قضية وطنه والذب عن حريته وترسيخ وحدته.

بقي أن نشير في الأخير إلى أن الأستاذ الدكتور أحمد مفدي - حفظه الله - بمؤلفه القيم: "الشعر العربي في الصحراء المغربية: جذوره التاريخية - ظواهره وقضاياها"، قد أسدى للثقافة المغربية عموما والصحراوية بشكل خاص خدمة جليلة؛ إذ قدم الرجل بحنكة ومهارة كبيرة صورة واضحة عن هذا الشعر الذي استطاع أن يجمع منه مادة مهمة، في ظل ضياع جزء مهم منه في المكتبات الخاصة، أو عند بعض الأسر التي أخفتها عن الأعين، وجعلت وصول الدارسين والباحثين إليه أمرا صعبا أو مستحيلا.

التعريف بمخطوطة أجوبة محمد بن عبد السلام الفاسي في القراءات والرسم القرآني

ذ. الحسن بوقسي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

مما سارت به الركبان وعلمه بنو الإنسان منذ غابر الأزمان أن الدرس والإتقان لكلام الواحد المنان يعلي الجاه والشان ويورث الخلد والأمان في أعالي الجنان.

فلا عجب أن يرتقي المتخصص في دراسة القرآن المجيد درجة الفهم والاستيعاب والنهل من مختلف المنهجيات التي عالج بها كتاب الله شتى الموضوعات والإشكالات الفردية والجماعية والمؤسسية، العلمية منها والعملية؛ فنجد مصقول البصر والبصيرة، منور السر والسريرة، متصفا بنبل الصفات، متحليا بعلياء القيم من اعتدال الطبع والسجية، وعمق التحليل والتعليل، وسعة الصدر والفكر، وصفاء القلب والذهن، وإخلاص النية والسريرة.

فكتاب الله كلي الكليات ومرجع العقديات والشرعيات والأخلاقيات؛ قال الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في كتابه الموافقات¹:

"إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة وآية الرسالة ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها واللاحق بأهلها أن يتخذ سميته وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرا وعملا لا اقتصارا على أحدهما، فيوشك أن يفوز بالبغيه وأن يظفر

1 - الموافقات في أصول الشريعة، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، (ت 790هـ)، 346/3، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة بيروت.

بالطلبة ويجد نفسه من السابقين وفي الرعيل الأول، فإن كان قادرا على ذلك، ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب، وإلا فكلام الأئمة السابقين والسلف المتقدمين آخذ بيده في هذا المقصد الشريف والمرتبة المنيفة".

هذا وإن عقل الأمور رهين بضبط اللسان العربي ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾². إذ اللسان ترجمان المعاني والأفكار ووسيلة التواصل والاتصال، فمن كان مبتدئا في علوم اللغة كان مبتدئا في عقل الأمور واستيعابها، ومن كان منتهيا في علوم العربية كان منتهيا في الإدراك والاستيعاب.

وعلم اللغة - دلالة معجمية وتركيبا نحويا ومقصدا بلاغيا - وسيلة أساس للفهم عن الله كلامه، وإن اللسان العربي نال بفضل الكتاب العزيز مكانة لا تدانيها الثريا، فأفاض علماءنا في مختلف مباحث العربية درسا وفحصا وسبرا، شكلا ومضمونا؛ خدمة للقرآن ليتسنى للمسلمين استنباط الأحكام واستخلاص الحكم، والتعايش مع الآخر في مختلف الأزمنة والأمكنة.

لذا كان الاهتمام برسم القرآن في علم القراءات القرآنية منطلقا ضروريا لضبط اللسان العربي؛ إذ الشكل بريد للمضمون والمبنى سبيل للمعنى والجسد وعاء للروح، ويستحيل الاستغناء بأحدهما عن الآخر.

أولا: شيخ المقرئين وإمام المجتهدين في القراءات القرآنية:

وجدت ضمن منشورات مركز الإمام أبي عمرو الداني للدراسات والبحوث القرائية المتخصصة، التابع للرابطة المحمدية للعلماء، في قسم "تراجم مغربية" ترجمة مركزة مفيدة لشيخنا العلم سيدي محمد بن عبد السلام الفاسي من إعداد الأستاذ يوسف شهاب هي كالتالي:

"تنبيه الغافل وتذكير الناسي بالتعريف بسيدي محمد بن عبد السلام الفاسي (1214هـ)

من له الكعب العالي والمقام الرفيع، والقدم الراسخة وإتقان الصنيع، لا يستغرب إطباق كلمة المترجمين في مدحهم، ولا كثرة المعرفين بقدرهم، ولا إطناب أهل العلم في حقهم، فحق لسيدي محمد بن عبد السلام الفاسي أن يكتب لنفسه اسما بالذهب، مرصعا منقوشا في أفئدة أهل العلم وصدور أهل القرآن، فميز شخصه واسمه وإمامته

2 - سورة يوسف، الآية: 2.

فاشتهر صاحبنا وسطع نجمه فما أفل إلى اليوم؛ وذلك لما أسال من يراعه القرائي، فعرف بالقراءات وعرفت القراءات به، ولعلي من خلال هذا الجمع والتنسيق أكون قد ساهمت بسهمي في بيان الفضل المكنون ونصرة الحق المغبون من القريب قبل البعيد، وكم يجب لابن عبد السلام وأقرانه علينا من الحقوق!.

أبو عبد الله: محمد بن عبد السلام بن محمد بن عبد السلام بن العربي بن يوسف بن محمد بن محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفاسي لقبا ودارا ومنشأ.

شيخ المقرئين وخاتمة المحققين وأضبط المتقين، إليه رئاسة الإقراء، وهو الخريت بخلاف الأصول والفروع حين الأداء، الحجة عند الاستدلال والمرجع عند الاستشكال.

وحيث نعرف أصوله وفروعه: شيوخه الأعلام النحارير وتلامذته المشاهير، وحيث لا يسعنا من مهابة الكل إلا ذكر جزئه، ومن جلالة القدر إلا توصيف بعضه، آنذاك تستبعد تهم المغالاة والمجازفة، فتلكم أوصاف - وغيرها يأتي - هي أقل ما يقال في هذا الطود الشامخ والوتد الراسخ.

وحيث نأتي على ذكر مآثره، تعدادا وتوصيفا، وتأريخا وتصنيفا، ينكشف لأهل الفن تراث قائم بذاته، ومدرسة مشيدة الأركان، غير أنه لا من يطالب بموروثه فيعتز به ويشرف - ومعلوم سبيل العزة والشرف في هذا الميدان: إنما هو الخدمة وإفناء العمر في نشره - ، ولا من يدرس فيدرس في مدرسة ابن عبد السلام. والله المستعان وإليه المشتكى.

ولمن شاء أن يطلع على تفصيل ما قيل في الرجل من لدن أهل التراجم والسير قديما وحديثا، فليتبّع هذه اللائحة:

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، لأبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات لعبد الحی بن عبد الكبير الكتاني.
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخیر الدین الزرکلی.

- معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين لعبد الرحمن ابن زيدان.
- معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية لعمر رضا كحالة.
- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية لمحمد الأخضر.
- موسوعة الأعلام المغاربة تنسيق وتحقيق محمد حجي:
- تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين لعبد الكبير الفاسي.
- إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع لعبد السلام بن عبد القادر ابن سودة.

- عناية أولي المجد في ذكر آل الفاسي الجد لأبي الربيع السلطان سليمان بن محمد العلوي.
 - القراءات والقراء بالمغرب لسعيد أعراب.
- نشأته:

نشأ في بيت علم ولقي من الرعاية والحض والحث على حفظ القرآن ومتون العلوم المنتشرة في زمانه، ما أهله في وقت مبكر إلى التشوف إلى التخصص ومزيد الإتقان، ولا أنسب من قول معاصره وتلميذه - وهو يترجم له - السلطان أبي الربيع سليمان العلوي: "وبفاس نشأ في بيت أبيه أبي محمد عبد السلام على أحسن إنبات وأجل الصفات، فقرأ القرآن في أسرع مدة، وحفظه وجوده، ثم شرع في مقدمات العلم بالأخذ في مبادئه، حفظاً للمتون المتداولة بحسب كل فن، وقراءتها على مشيخة الوقت قراءة إتقان، مشمرا عن ساعد الجد بقدر الإمكان والفتح الرباني يسير به في الفهم مسيرة شهر في يوم".

لا عجب أن يلقي ابن عبد السلام رعاية من آل بيته تسير به إلى مصاف العلماء المشاهير على رجاء أن يكون من النحارير، وهو سليل أسرة عرفت بالفضل والمجد منذ قرون مضت، أعلام بعضهم من بعض، كأبي المحاسن الذي إليه يرجع نسبه كما سبق بيانه.

وقد أورد أحمد عبد الكريم نجيب محقق القول الوجيز كلمة على لسان سيدي محمد بن عبد السلام تؤرخ لمرحلة مهمة من مراحل نشأته إذ يقول: "رحم الله أمهاتنا وجزاهن عنا خيرا، فإنهن ما وقفن بنا حتى علمننا التوحيد الصرف، توحيد العجائز الذي لا يقبل التشكيك، والله الحمد، وما وقفن بنا حتى علمننا صورة الضوء وصورة الصلاة".

رحلاته:

ذكر المترجمون لصاحبنا العديد من الخرجات والجولات في تحصيل العلم والاستزادة من الإتقان والضبط والاطلاع على مختلف طرق المغاربة المختلفة في الأداء خاصة على مستوى القراءة بالإرداف - ، أذكرها ههنا مطمئنا لعددها وترتيبها:

- خروجه إلى لمطة:

جعلتها أولى رحلاته، وإن كان قد قال العلامة احميتو: "فالتحق أولا بقبائل الشمال"، ذلكم أن المجمع عليه أخذه عن الشيخ الجليل أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي - وقد كان مسك ختامه - ولا شك أن هذه المشافهة وهذا اللقاء كان قبل سنة 1175 هـ سنة وفاة شيخه المذكور، والذي يؤرخ به ما يأتي من رحلات وعود إلى فاس هو ما بعد هذا السنة، فهذه واحدة تكفي.

ثم إن العلامة احميتو نفسه ذكر قبيل مبحث "جولاته العلمية وتصدره" هذا اللقاء، كما توقف مرارا عند إشادة ابن عبد السلام وغيره بما لأهل لمطة من فضل في أداء التجويد على أكمل صفة، خاصة في تحقيق المدود خلافا لما شاع - مذموما - بين أغلب أهل القرآن من تساهل في الباب ومثله من أبواب الأداء الحسن، قال: "وقد توج الشيخ ابن عبد السلام أخذه للقراءة بالتلقي عن مشيخة بلاد لمطة على طريقتهم بإتقان التجويد والعناية التامة بمخارج الحروف والصفات، وذلك حين رحل إليها فأخذ عن الشيخ العلامة الجليل أبي العباس...".

- التحاقه بقبائل الشمال:

حيث كانت علوم الروايات مزدهرة على طريقة أهل جباله في ذلك، فما زال يستقصيهم في كل قبيلة وعمارة، ما بين سواحل الهبط وغمارة، حتى حصل على ما عندهم من العلم بالقراءات السبع، على ما للمغاربة فيها من طريقة للجمع، وبقي هناك سنتين يقرأ ويقرئ حتى صار يحلق في مباحثهم ويفري..

- رجوعه إلى فاس:

عاد من شمال المغرب إلى "حضرة فاس مملوء الوطوب بالنصوص والقياس، وتدارك من أمر المشاركة ما فات عساه أن يكون السابق في كل الغايات، فانحشر إليه في طلب العلم الناس، فعقد مجالس يدرس فيها القراءة، وأخرى يدرس فيها العلوم، مما استوجب له التصدير بين أولي التحقيق والتحرير، مشاركاً لأشياخه في أكثر تلامذتهم، مزاحماً لأعيانهم في مضايق معارضتهم، قوي المعارضة، كثير التحصيل، باحثاً نظاراً قادراً على الاستنباط، بصيراً في كل فن بمواقع الأغلاط،

يضرب بعض الفنون ببعض ليقرب أقصاها، فصيح اللسان، ثاقب الجنان، يستفيد السامع من فيه أكثر مما يكفيه، يقول لا أدري في ما لا يستحضره من مسائل العلم".

- خروجه إلى سوس:

مكث بـ -آيت صواب- طالبا مطلوباً؛ ذلك أنه "خرج نحو الجنوب وتجول بقبائل سوس يلقي مشيخة أهل العلم بها، ويتعرف على نمط أهل سوس في جمع القراءات، وكانت لهم طريقة خاصة في الجمع والإرداف تختلف عن طريقة أهل الشمال، فتلقى هذه الطريقة وتمرس بها، ثم نزل بمدرسة القراءات بآيت صواب وتصدر بها لإفادة الطلاب، فالتف عليه أبناء المنطقة واجتمعوا على النهل من علومه المختلفة، يتلقون عليه القراءات محققة محررة مسندة عن أكابر المشيخة المتصلة الحلقات برجال مدرسة ابن غازي في المغرب، وكبار المشيخة المعتمدة في المشرق من طريق شيخه وعمدته أبي زيد".

وعن هذا المكث في أرض سوس يقول أعراب: "قضى زمنا ليس بالقصير ما بين تعليم وقراءة ونسخ وتأليف وتوجد بمكتبات سوس إلى حد الآن مؤلفات انتسخها بيده كالجعبري وغيره".

- دخوله الصويرة في طريق رجوعه من سوس إلى فاس:

وبها كان اللقاء الأول بتلميذه النجيب الذي نال خصيصة التنويه والمدح من ابن عبد السلام أبي العباس أحمد بن عبد الله الهشتوكي، قال سعيد أعراب: "وعرج في طريقه على الصويرة، فأقام بها مدة، أخذ عنه خلالها طائفة من طلابها، من بينهم: أبو العباس أحمد بن عبد الله الهشتوكي، قرأ عليه سبع ختمات بالسبع".

وقد كان هذا الدخول بانتداب من السلطان سيدي محمد بن عبد الله له إليها في حدود سنة 1195هـ، وهي آنذاك حديثة عهد بتأسيس، فلقي بالصويرة حينها من لقي واستكمل طريق عودته من سوس إلى فاس.

هذا وقد أثبت هذا اللقاء وهذا الأخذ، بنص كلامه إذ يقول عن تلميذه المذكور: "لأنه قرأ علي القرآن العظيم بمضمونه عرضا باستظهار في عدة ختمات، فختمه على ست ختمات متوالية في حدود سنة خمس وتسعين -بتقديم المثناة- لما كنت حالا بالثغر المذكور".

- دخوله الثاني إلى الصويرة سنة 1202هـ:

"ولما عاد إليها سنة 1202هـ قرأ أبو العباس الهشتوكي على ابن عبد السلام - سبع ختمات أخرى، وبنوه الشيخ بالاستعداد الذي وجدته في هذا الطالب القروي ومدى سعة حفظه وإتقانه".
كذا يؤكد نص كلام ابن عبد السلام هذه الزيارة الثانية إذ يقول: "ثم لما عدت إليه في حدود العام الثاني بعد المائتين وألف وجدته هناك، فجدد قراءته علي فختمه أيضا سبع ختمات آخر متوالية عرضا باستظهار بمضمن الكتاب المذكور للسبعة المشهورين أئمة الأمصار رحمهم الله تعالى".
شيوخه:

حيث كان سيدي محمد بن عبد السلام حافظا جامعا راسخا الملكة في أكثر الفنون كالنحو والتصريف واللغة والحساب والعروض والتاريخ وأنساب العرب وأيامهم والبيان والمنطق والكلام والأصليين والفقه والحديث والتفسير وعلوم القراءات وأحكام الروايات، فإنه يصعب حصر من تتلمذ عليهم في كل فن وباب، ولا عجب من كثرتهم، ولا يسع المعرف به إلا الاقتصار على أبلغهم أثرا فيه:

- أبو زيد، عبد الرحمن بن إدريس بن محمد المنجرة الإدريسي الحسني.
- أبو حفص، عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف المالكي الفاسي.
- أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي السجلماي.
- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بناني الفاسي.
- أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس الفاسي.
- أبو السعد عبد المجيد بن علي المنالي الزيادي - أو الزبادي - الإدريسي الحسني.

تلامذته:

ينحسرون في أربعة أصناف، ولكنهم لا يحصون عددا، قال محمد الكتاني في سلوة الأنفاس:
"والناس في الأخذ عنه أربعة أصناف:

1. صنف أخذوا عنه قراءة القرآن بمجرد المدارس والسماع فقط.

2. وصنف أخذوا عنه بالروايات مع تحقيق أحكامها في مجالس الدرس، وهؤلاء لا ينحصرون بالعد ولا يوقف لهم على حد.

3. وصنف أخذوا عنه ما سوى القراءات وأحكامها من أنواع العلوم ك:

- الشيخ سيدي عبد القادر بن شقرون،
- والشيخ سيدي محمد بن أحمد بنيس،
- والشيخ سيدي علي بن أويس الحصني،
- والأخوين سيدي العربي وسيدي عبد السلام، ابني الولي الصالح سيدي المعطي بن الصالح الشرقي العمري.

4. وصنف أخذوا عنه كلا من القراءة وأحكامها وغير ذلك من العلوم وهم كثيرون، ومنهم:

- السلطان مولانا سليمان بن محمد العلوي
- وسيدي محمد بن قاسم العيدوني
- وسيدي محمد بن علي اللجائي، وغيرهم".

ولعلي إذ أذكر أسماء كالبذور والنجوم في علوم القراءات، هم أشهر من نار على علم بين أهل الرواية والدراية، يعرف لشيخهم الفضل الكبير والجهد المثمر النضير، فإذا كان قدر من أذكر على العلية الوضاحة، وسيرهم باقية بالمسك والإذفر فياحة - وهم من فروع سيدي محمد بن عبد السلام - فحينها يعرف أن الأصل أطيب وأطهر، وأرفع وأزهر، وأن الشيخ أعلم وأكبر، وأضبط وأخبر، وهم من الصنف الثاني باعتبار تصنيف الكتاني:

- أبو علي الحسن بن محمد بوزيد الخمسي: (كان حيا سنة 1221هـ).
- أبو العلاء إدريس بن عبد الله الودغيري البكراوي: (ت 1257هـ).
- محمد بن عبد الرحمن، ابن البصري المكناسي: (كان حيا سنة 1206هـ).
- أبو عبد الله محمد التهامي بن محمد بن مبارك بن مسعود الحمري الأوبيري (1246هـ).
- أبو العباس، أحمد بن عبد الله الهشتوكي الباهي (كان حيا سنة 1202هـ).

آثاره:

له في القراءات:

1. في الشروح الكبيرة لأمّهات النصوص والمراجع:

- المحاذي وهو المسمى أيضا إتحاف الأخ الأود المتداني بمحاذي حرز الأمانى ووجه التهاني.
- شذى البخور العنبري وبعض عزائم الطالب العبقري، إعانة على فتح كنز العلامة أبي إسحق إبراهيم بن عمر الجعبري.

2. في باب الوقف على الهمزة لهشام وحمزة:

- أرجوزة في أحكام الهمز عند الوقف.
- بيان حكم الوقف على الهمزة لهشام وحمزة.
- القطوف الدانية في شرح الدالية.

3. في الخلاف الجائر:

- إبراز الضمير من أسرار التصدير.
- ملحق إبراز الضمير من أسرار التصدير.
- جواب منظوم في بعض أوجه القراءات اختلف فيها قراء سوس.
- 4. في الفهارس والإسناد:

- فهرس شيوخ محمد بن عبد السلام: برنامج الشيوخ.
- منظومة في فهرست شيوخ محمد بن عبد السلام.
- تقييد لبعض الأسانيد.
- تأليف في إثبات صحبة شمهروش الجنى.

5. في التراجم:

- طبقات المقرئين.
- تقييد في العائلة الفاسية الفهرية.

6. في الوقف والابتداء:

- رسالة في الوقف الانتظاري أو الاضطرابي.

- رسالة في موضوع الابتداء بما بعد حرف المد إذا كان همزا.
- الأقرط والشنوف في معرفة الابتداء والوقوف.
- 7. في التجويد:
 - تقييد في شرح ثلاثة أبيات من عقود الجمان في تجويد القرآن.
 - رسالة في ما خالف فيه معلمو الصبيان قواعد الأداء وشروط التجويد.
 - تقييد في التجويد.
 - تسهيل المعارج إلى تحقيق المخارج.
 - رسالة في المد الطبيعي.
 - الفوائد السنهورية في شرح الجزرية
- 8. في الجمع والإرداف:
 - الركن الأول من الأقرط والشنوف في معرفة الابتداء والوقوف.
 - تأليف في بيان كيفية جمع الرواية والقراءة.
- 9. في الأجوبة :
 - القول الوجيز في قمع الزاري على حملة كتاب الله العزيز.
 - أجوبة في القراءات: أحصيت سبع عشرة نسخة، تحتاج إلى الجمع فالتقسيم، وعظيم الاعتناء والتكريم، عبر المقابلة والتدقيق والتنسيق والتحقيق؛ وذلك لاختلاف مواضيعها.
 - وله في غير القراءات:
 - المناهل الصافية لأبواب الشافية.
 - إرشاد السالك إلى لامية ابن مالك.
 - تقييدات على ألفية ابن مالك.
 - حاشية على شرح الجاربردي لشفافية ابن الحاجب.
 - شرح الصلاة المشيشية.

وفاته وكلمات في الثناء عليه:

بعد طول تطوافه وكثرة رحلاته بين شمال المغرب وجنوبه، ومكوته بين قبائل الشمال ولمطة وسوس والشياطمة، وما تخلل ذلك من تلبية نداء حنينه إلى مكة الغرب قراراه وأستقرت أوبته بها ليقضي ما تبقى من حياته في التدريس والتأليف والإفادة إلى أن توفي بمرض الاستسقاء بفاس يوم الأربعاء ثاني عشر رجب الفرد الحرام عام أربعة عشر ومائتين وألف عن نحو خمس وثمانين سنة، ودفن في جوار جده أبي المحاسن داخل القبة عند رأس ضريحه. وكان مما ثبت عن أحواله وصروف الدهر به ذهاب إحدى عينيه فصبر، وعد ذلك من جملة نعم الله عليه فشكر.

بعد استشعار بعض من علو قدر هذا العلم الإمام، الباحث النظار الهمام، صاحب الأسانيد العالية والتصانيف الغالية، يعلم علم اليقين أن ما قيل فيه من باب التكريم والتنويه والتوصيف والتشريف - هو من الإجلال المستحق والثناء الحسن الحق، من غير غلو ولا بخس:

قال صاحب السلوّة:

"الشيخ الفقيه العلامة، الأستاذ المحقق المجود الفهامة، المنفرد بتحقيق الأحكام القرآنية، وصاحب الملكة التي ليست لأشياخه فضلا عمن دونهم في العلوم العربية"

"وكان قوي العارضة نافذ البصيرة كثير التحصيل باحثا نظارا، قادرا على الاستنباط بصيرا في كل فن، ظاهر الزهد والورع قانع الفتن والبدع، يلبس الخشن ويمشي في الأسواق ويقول الحق من غير تصنع ولا نفاق"

"وكانت له القدم الراسخة في العبادة من صلاة وصوم وتعليم ومطالعة وتلاوة، وفي محبة آل البيت وحفظ أنسابهم".

قال عبد الكبير الفاسي في تذكرة المحسنين:

"الشيخ الأستاذ المقرئ المشارك العلامة المطلع، آخر من أتقن القراءات علما وعملا حتى صار شيخ الجماعة فيه".

"علامة الزمان ومجود الأوان، خاتمة المجتهدين في القراءات، وعين أعيان بحور الفقهاء والمحدثين والنحاة" تذكرة المحسنين.

- قال عبد الحي الكتاني في فهرس الفهارس:

خاتمة المنفردين بتحقيق توجيه القراءات بالمغرب، العالم النحوي التصريفي الجليل³.

ثانيا: مخطوطة أجوبة محمد بن عبد السلام الفاسي في القراءات والرسم القرآني

الصفحتان: الأولى والأخيرة للمخطوطة



وصف المخطوطة

أتوفر على نسخة من أجوبة محمد بن عبد السلام الفاسي في القراءات والرسم القرآني، أهدانيها أحد المحبين في العلم باعتباري مهتمها بالدراسات القرآنية.

تقع المخطوطة في ست عشرة لوحة (ست وثلاثون صفحة)، بخط مغربي بدوي لا بأس به، مقاسها: 22 سم / 17 سم ، تبتدئ بقول المؤلف:

3 - الموقع الإلكتروني الرسمي للرابطة المحمدية للعلماء، منشورات مركز الإمام أبي عمرو الداني للدراسات والبحوث القرآنية المتخصصة، قسم "تراجم مغربية".

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على من لا نبي بعده، الحمد لله، يقول عبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به بمنه، ورحمه ووالديه وأشياخه وجميع المسلمين: رفعت إلي بطاقة تضمنت اثنين وعشرين سؤالاً...⁴."

وتنتهي بقوله: "...والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، انتهى بحمد الله وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً"⁵.

خطها: مغربي لا بأس به، ذو حروف من الحجم العادي حيث يشمل السطر الواحد منها ما بين عشر وست عشرة كلمة.

هذا وقد التزم المؤلف في كتابته للآيات القرآنية بالرسم العثماني.

ونسخة المخطوطة هاته مقابلة مصححة على الأصل؛ بحيث يثبت الناسخ عبارة "صح" في استدراكاته المثبتة في هوامشها مثل ما ورد في هامش صفحة 9 و10 و24، وعبارة "أصل" مثل ما في هامش صفحة 12 و35. ولا توجد استدراكات تصحيحية كثيرة عليها.

ولا يوجد اسم ناسخ هذه المخطوطة، ولكن يوجد نظم في التوحيد على بحر الرجز في صفحتين، بعد نهاية أجوبة الشيخ محمد بن عبد السلام الفاسي، مطلعته:

"الحمد للفرد القديم في الأزل ❀ له البقاء في الوجود لم يزل
الصمد المهيمن القدير ❀ ليس له في ملكه نظير

وآخره:

نظمه العبد الملقب بالبليم ❀ الصالح المعروف من نسل سليم
الأوجلي نسبا والدار ❀ يرجو مفاز مبعث القرار
والله أرجو ذو الجلال والإكرام ❀ والخير والنعمة والفضل الأعم
يختتم أعماله متى ألقاه ❀ بـقول لا إله إلا الله"⁶.

4 - ص 1.

5 - ص 36.

6 - ص 37 و38. والمخطوطة ينتهي موضوعها المخصص لها في صفحة 36، لتستغرق الصفحتان 37 و38 منظومة في التوحيد على بحر الرجز، ولتخصص الصفحة 39 لفائدتين مشتملتين على آيات وأدعية، أولاهما "عسر النفاس"، وأخرى "للشقيقة وغيرها".

نسبتها لمؤلفها:

سبق قبل قليل إيراد ما بدأ به المؤلف أجوبته من ذكر اسمه في قوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على من لا نبي بعده، الحمد لله، يقول عبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به بمنه، ورحمه ووالديه وأشياخه وجميع المسلمين: رفعت إلي بطاقة تضمنت اثنين وعشرين سؤالاً...⁷."

كما نصت كتب التراجم على تأليفه لأجوبة في القراءات مختلفة المواضيع. بالإضافة إلى أن منهجيته ونفسه الحجاجي والاستدلالي في أجوبته وباقي مؤلفاته.

موضوعها:

ألف صاحب المخطوطة أجوبته في علم القراءات القرآنية وما يتعلق بالرسم القرآني بناء على طلب رفع إليه عبر عنه بقوله:

"الحمد لله، يقول عبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسي لطف الله به بمنه، ورحمه ووالديه وأشياخه وجميع المسلمين:

رفعت إلي بطاقة تضمنت اثنين وعشرين سؤالاً، بعضها يتعلق بالقراءات، وبعضها يتعلق بالرسم، وبعضها يتعلق بغيرهما، وطلب مني صاحبها أن أجيبه عنها بما لدي في معناها، فاعتذرت له بلزوم مرض لبدي مانع لي عن الأخذ في مثل ذلك، مع طول السؤال والاحتياج فيه إلى كثير بيان. فلم يقبل عذري، وجعل لي فسحة ترجى فيها القدرة على كتب الجواب مع القناعة بيسير فيه. فلم يكن بد من إسعافه إلى طلبته بقدر الإمكان، باستعانة مولانا ذي الفضل والإحسان، فأقول مستعينا بالله...⁸."

هذا وموضوع المخطوطة ينجلي من خلال سرد مباحثها التي هي عبارة عن مضامين الأسئلة الاثنتين والعشرين، وقد تتبعتها فوجدتها كالاتي:

السؤال الأول: في ترتيب السور على ما في المصحف

السؤال الثاني: هل يجوز الابتداء بما بعد حرف المعنى الإفرادي أو لا؟

7 - ص 1

8 - ص 1

السؤال الثالث: هل السكت بين السورتين كالوصل أو هو كالوقف...؟

السؤال الرابع: في كيفية كتابة الهمزة

السؤال الخامس: في ترك بياض يسع سطر بسملة "براءة"

السؤال السادس: في كتب علامة بموضع السجدة

السؤال السابع: في الوقف على لام (فما لهؤلاء)

السؤال الثامن: في تخفيف الهمز المضموم بعد كسر والمكسور بعد ضم

السؤال التاسع: في تخفيف الهمز الواقع بعد ساكن

السؤال العاشر: في إبدال الهمزة

السؤال الحادي عشر: في دارة المزيد

السؤال الثاني عشر: في جرة الوصل والنقل

السؤال الثالث عشر: في الحركة المماله، مركبة من حركتين

السؤال الرابع عشر: هل يجوز وجه الإشباع مع الإشمام؟

السؤال الخامس عشر: في الوقف أو الوصل بسبب التقاء مثلين أو متقاربين

السؤال السادس عشر: في الوقف على "رءوس"

السؤال السابع عشر: في إعادة البسملة عند رؤوس السور

السؤال الثامن عشر: في الوقف على رؤوس الآي الخمس بسورة "المؤمنون"

السؤال التاسع عشر: في علامة الوقف

السؤال العشرون: في التركيب -أو الخلط- في القراءة

السؤال الحادي والعشرون: في الوقف على الهمزة المتطرفة إثر ألف

السؤال الثاني والعشرون: في التساهل في أحكام الوقف والسكت.

أهميتها:

التمكن من ناصية العلم بضبط اللسان العربي عبر المسائل والمضامين التفصيلية التالية المبثوثة في المخطوطة:

- ترتيب السور والآيات
- قواعد الخط العربي وأصوله
- أحكام الوقف والابتداء القرآني
- المذاهب القرائية
- الخلافاً العالي في القراءات القرآنية
- خلاف الفروع في الأداء القرائي
- آداب التلاوة وضبط قواعد التجويد
- الفرش اللغوي للفهم عن الله مراده
- تصحيح فن الأداء في تلاوة الكتاب العزيز
- ضبط المصطلحات والاختيارات القرائية
- ضبط مناهج التلقي عن الشيوخ والتلقين للتلامذة
- من مراجعه فيها:

- "وقد وضع الناس كتباً في تناسب الآي والسور كالبقاعي" كما في جوابه عن السؤال الأول⁹.
- "ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف: فالجمهور على أنه اجتهدني منهم مالك والقاضي أبو بكر الباقلاني وابن فارس وغيرهم" كما في جوابه عن السؤال الأول أيضاً.
- الجعبري والسخاوي والداني وصاحب النشر والكسائي والدوري والسوسي والجمهور من المغاربة والمصريين والشاميين والعراقيين كالداني وابن الفحام وأبي العز وسبط الخياط وأبي سوار والشاطبي والحافظ أبي العلاء وابن فارس وابن شريح وأبي معشر كما في جوابه عن السؤال السابع¹⁰.

9 - ص 3.

10 - ص 18 وما بعدها.

- "عن الأخفش وسيبويه"، "سيبويه في كتابه وذكره ابن الحاجب في شافيته وابن مالك في تسهيله" كما في جوابه عن السؤال الثامن¹¹.

- "الداني والشاطبي وابن شريح وغيرهم" في جوابه عن السؤال السادس عشر¹².

- ابن القاضي والرضي السوسي كما في جوابه عن السؤال السابع عشر في جوابه عن السؤال السادس عشر¹³.

من منهجه فيها:

يمكننا الاقتراب من منهج الشيخ محمد بن عبد السلام الإجمالي من خلال نموذج من نماذج فتاويه القرائية، وأسوق هنا السؤال السادس عشر وجوابه عنه:

"كلمة (رءوس) إذا وقف عليها بهمزة: هل يجوز له حذف الهمزة متابعة للرسم؟ وهل تحمل العين في هذا الحذف على اللام كما في (تطئون)؟ وهل لكم أخذ بذلك؟

والجواب والله أعلم أن الأخذ عندنا بمتابعة الرسم حيث يوافق قياسا كما هو مذهب الداني والشاطبي وابن شريح وغيرهم، فإن لم يوافقه فلا أخذ لي به، وقد كان الطلبة يقرأون به على شيخنا رحمه الله فلا يرده عليهم، لكنني ما أخذت أنا عنه بشيء من ذلك؛ وحمل العين على اللام في ذلك لا يجوز والله أعلم"¹⁴.

يستفاد من هذا النموذج معالم منهجه التالية:

- تمكن الشيخ من ناصية علم القراءات القرآنية

- إحالته على مختلف المذاهب القرائية

- أمانته العلمية في سرد رأي المخالف بكل نزاهة وتجرد

- التركيز في استدلالاته العلمية على اتباع الرسم العثماني، وأي اجتهاد غير موافق له لا يمكنه

الأخذ به.

11 - ص 20 وما بعدها.

12 - ص 28.

13 - ص 29.

14 - ص 28.

- قوته في التمهيص والتعليل والسبر والتحليل

- قوة ترجيحه بين متعدد الآراء والاختيارات القرائية

- تفرده باجتهاداته واختياراته القرائية الخاصة به

- قوة شخصيته المتمثلة في إعلان اجتهاداته واختياراته ولو كانت مخالفة لمذهب شيخه، بل لا يتواني أحيانا في تعليل رجوع شيخه عما ذهب إليه مثله في قوله في آخر جوابه عن السؤال الثامن: "وأما إبدال ضمة المضموم كسرة وكسرة المكسور ضمة ليتأتى النطق بالوجه المعضل فليس بصحيح، وقد كان شيخنا يرى ذلك تبعا لوالده رحمهما الله من غير اطلاع على ما لأبي شامة، فلما طولع به وأوقف عليه رجع عما كان يرى في ذلك في أواخر عمره رحمه الله تعالى والله تعالى أعلم بالصواب"¹⁵.

- تمثله لحر الفكر ومطلق الاجتهاد المستند إلى قوي الدليل وساطع البرهان

- ضبطه لمختلف المناهج التي تنوول بها علم القراءات القرآنية بالدرس والتحليل والتربية والتعليم بين الطلاب وشيوخهم وانتقادها

- تصحيحه لمناهج بعضهم في تدريس الطلاب المبتدئين في موضوع القراءات كما حصل له فيما يتوهم نسبته للشيخ الهبطي في السكت والوصل كما في جوابه عن السؤال التاسع عشر حيث قال: "وقد سمعت من أقوام يحفظون السبع وضع تلك العلامة [أي علامة الوقف "صه"]، وتلقفوا ذلك من أشياخهم ولقنوه هم لتلامذتهم، لا يقال: إن الهبطي ذكره في كتابه بالوقف؛ لما يقال: إن الهبطي وضع كتابه على مقرا نافع، فأما قالون فهو مبسمل، وأما ورش فلعل الهبطي كان يقرأ له بوجه البسملة الثابت عنه. وهب أنه كان يقرأ له بالسكت فإنه اعتمد في كتابه بيان اللفظ الصالح للوقف عليه تماما أو كفاية، ومن تلك الألفاظ آخر السورة إذ هو أتم التمام، لكنه إذا وقف عليه تعينت البسملة بعده وجها واحدا؛ ففي وضعه للمبتدئ تلبس عليه وتغريب؛ فالواجب تركه والله أعلم"¹⁶؛ وقد سبق في سرد آثاره تأليفه لـ: "رسالة في ما خالف فيه معلمو الصبيان قواعد الأداء وشروط التجويد".

15 - ص 21.

16 - ص 30.

- هذا مع تنبيهه على ما يجب أدائيا على قارئ القرآن المغربي من الالتزام به تجاه وقف الإمام الهبطي؛ حيث قال في أوائل جوابه عن السؤال الثاني والعشرين: "والواجب بالوجوب الأدائي على قارئ القرآن أن يقف في أماكن الوقف الذي يتلو عليه -كالوقف المنسوب للهبطي الذي عليه يقرأ قراء زماننا- وقفاً يرجع القارئ النفس الحار ويجلب النفس البارد، وبذلك يندفع عنه التعب والخرج وتقع له الاستراحة الراعية للوقف، ثم يستأنف القراءة..."¹⁷.

- تنصيصه على مقاصد الالتزام بالواجب الأدائي قرائيا كما سبق في مسألة تبين وقف الإمام الهبطي من دفع التعب والخرج وجلب الاستراحة.

- تداخل مختلف العلوم في مسألة واحدة؛ ذلك أنه لا يخفى ما يشتمل عليه التعليل بـ"جلب النفس البارد" من وصف علمي بيولوجي متخصص.

خاتمة:

تتميز علومنا العقدية والشرعية والأخلاقية المنبثقة من كتاب ربنا بتجاوز المنحى التنظيري إلى الإجرائي العملي، وبديهي أن يتميز علم القراءات القرآنية بهذا؛ إذ يجمع بين الأصل والفرش، والجانب الأدائي (الفرش) محوري فيها هو المقصود أصالة من التقعيد والتنظير، وقد أفردته علماؤنا بالدرس والتصنيف في مختلف أصنافه وشتى ألوانه.

ومما لا شك فيه -ونحن بصدد ختم الكلام عمن انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمغرب سيدي محمد بن عبد السلام الفاسي- أن إعادة بعث تراثنا الحضاري يفيد في مجالات شتى:

- من بينها تصحيح فهم كثير من الناس مما ظنوا أنه الحق المطلق فخطأوا وضللوا غيرهم غير مدركين للأوجه المتعددة التي يمكن حمل اجتهاد علمائنا الأفاضل عليه، ونستحضر هنا مسائل الوقف والابتداء التي أسالت كثيرا من مداد العلماء والمهتمين مشرقا ومغربا.

ففي مقال نشر بمجلة دعوة الحق الغراء¹⁸، بعنوان "أبو عبد الله الهبطي واضع وقف القرآن بالمغرب" ورد فيه ما يلي:

"ومن الذين أيدوه ودافعوا عنه- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي، فقد تتبع في كتابه "الوقف والابتداء"¹⁹ مواضع وقف الهبطي، وخصوصا الذي انفرد به، وأرجع أكثره على الوقف

17 - ص 34.

18 - عدد 110.

19 - يوجد مخطوطا بالخزانة الملكية تحت رقم: 1953.

الكافي؛ والوقف عنده ثمانية مراتب: تام وأتم، وكاف وأكفى، وحسن وأحسن، وصالح وأصلح، ويعبر عنه بالجائز. وفي هذا الصدد يقول: "... فأردت بعون الله أن أتبع كل موضع عينه للوقف بالنص على أنه تام، أو كاف، أو حسن، إن ظفرت بذلك فيما نص عليه الحافظ، مقتصرًا على ذلك، غير متعرض لوجه مبناه، من حيث المعنى والإعراب، تقليدًا له وتيسيرًا على نفسي، وسترا على لصعوبة المحل، فإن لم أجده عنده فإني أبين -بحول الله وقوته- ما أراه صالحًا لأن يكون اعتمده الهبطي في ذلك حسب الاستطاعة، على إزجاء البضاعة. لكنني أتشبت بذيلهم، وإن لم أطمع في الحصول على نيلهم، رغبة في الدخول في خدمة كتاب الله العزيز، وطمعًا في العثور على معنى غامض عزيز، يتبين به وجه ما اعتمده، وينفي عنه به الوهم فيما قصده؛ على أن أقتصر فيما كان غير خاف بقولي: كاف؛ إذ معنى التمام، يعز إلا على البصير الأعلم".

هذا بعدما أورد المقال -الجزء 1- في المجلة نفسها²⁰ ما يلي: "وقد وجهت إليه انتقادات، وأثيرت حوله ادعاءات، وارتفعت أصوات هنا وهناك؛ ولكن أبا عبد الله الهبطي وقف كالطود الشامخ، لا تؤثر فيه الزوابع، ولا تنال منه العواصف، وظل ينافح عن مذهبه ويناضل عنه بالحجة والبرهان؛ حتى رست قواعده وطبقت مناهجه في الحواضر والبلد، وفي كل مكان وناد، وأصبح المذهب المعمول به في سائر جهات المغرب، بل وفي إفريقيا كلها، بيد أننا نجهل الدواعي التي دفعت الهبطي إلى وضع وقفه، وحمل الناس على اتباعه؛ وقد تزعم بأن الذي حمله على ذلك ما كان عليه الناس من انحراف في التلاوة وخطأ في الأداء، يقفون على غير ما ينبغي الوقوف عليه، ويصلون ما لا يجوز وصله، وربما وصلوا آية الرحمة بآية العذاب وبالعكس، فيفسد المعنى ويضيع الغرض الذي نزل من أجله هذا الكتاب الأقدس.

وقد يضطر أحدهم إلى الوقف، فلا يدري كيف يقف؟ ولا أين؟ سيما وقد اشتهرت بين الناس في هذا العصر -وقبله لأزمان- صناعة الأرداف في القراءات، فيقفون وقوف اختلاس ويجرون الوصل مجرى الوقف، حتى إن أحدهم ليسقط سقوط المصروع بالجانب؛ فرأى أبو عبد الله الهبطي أن يضع لهم هذا الوقف كمراحل ينزل المسافر بها، ويتجدد نشاطه من أجلها، فحدد المواضع التي يقف فيها القارئ".

- ومن بينها رصد مختلف أوجه المقاصد النبيلة التي تقصد إلى خير الإنسان بتيسير الله القرآن له للتلاوة والذكر لإنقاذ نفسه دنيا وأخرى.

ديوان العدد

الله أكرم بالملك بلادنا

الشاعر: محمد البلغمي

قف هاهنا.. في أرض فاس وأنشد
 واذكر بها الشرفاء من قد أسسوا
 واهتف بفاطمة التي قد شرفت
 وتألقت آثارها مجلوة
 وارفع ولاءك وامتنانك صادقا
 ملك سما قدرا بما قد حاز من
 هو تاج مغربنا وعاهلنا الذي
 أعطى لهذا الشعب أحسن قدوة
 فبلادنا عم الهناء ربوعها
 ما قد رأت عيني كمثله عاهلا
 يسعى لإسعاد الجميع بعطفه
 وتراه في تجواله متفقدا
 حتى السجين غدا بعطف مليكنا
 يا أهل فاس كم لكم من نعمة
 واستقبلته بها الضيوف.. وأهلها
 هم نخبة من أرض إفريقيا أتوا
 من ذا رآه وقد توسط جمعهم
 فأمدهم بمعارف ونصائح

شعرا يشيد بحسنها المتفرد
 عرش الحمى.. من فاتح ومشيد
 أعمالها كل النساء الخرد
 في الجامع القروي أعظم مسجد
 للسادس الملك الهمام محمد
 شرف رفيع في البلاد ومحتد
 يزهبه تاريخ عرش جيد
 في حبه وعطائه المتعدد
 بمحمد نجل العلى والسؤدد
 متواضعا في طيبة وتودد
 ويقدم النجيدات دون تردد
 حال الفقير، ومسعفا للمقعد
 يرنو بكل تفاؤل نحو الغد
 في زورة الملك العطوف الأجود
 في فرحة كبرى وأجمل مشهد
 للقاء سيدنا بأقدم معهد
 كالبدور في إشراقه المتوقد
 تنأى بهم عن فرقة.. وتشدد

ورأوه أجدر من ينال رئاسة * للمجلس الأعلى.. وأحسن مرشد
 لم لا وعاهلنا سليل إمارة * للمؤمنين، وسيد من سيد
 أحيى المساجد من بلى، وأعادها * بالفن ناطقة، وحسن تجدد
 وأحل دين الله خير مكانة * ويود لو يرقى به للأبعد
 يا سيدي.. عهدا لكم من شعبنا * لنصون وحدتنا بكل تجند
 نمضي وراءك للنضال جميعنا * متلاحمين لرد كيد المعتدي
 ولسوف ينصرنا الإلاه، ونصرنا * حتما سندركه بأقرب موعد
 يامن قضاوا بين الخيام حياتهم * في عيشة بؤسى، وليل أسود
 هذا حبيب الشعب يدعو جمعكم * ويقول في حب لكم: هذي يدي
 فلتسمعوا هذا النداء.. ولترجعوا * لبلادكم من بعد طول تشرد
 والله أكرم بالملك بلادنا * ولعرشه المنصور خير مؤيد
 والصفح والغفران شيمته، فكن * للصفح أهلا من ملك منجد
 لا تعجبوا إن هممت في مدح العلى * فالطير لا يحيى إذا لم ينشد
 حبي لهذا العرش إرث صنته * من عهد مولاي الشريف الأمجد
 فاسلم لشعبك يا محمد رافلا * في نعمة كبرى وعيش أرغد
 وعناية الرحمن تصحب خطوكم * وعلى الأمان لنا تروح وتغتدي
 وليحفظ الحسن الحبيب إلهنا * بهدى الكتاب، وجاء جده أحمد
 وتراه يرقى في المعارف بالغيا * في ظلكم أسمى وأشرف مقصد
 ولتحى للعرش المنيف مؤازرا * بولي عهدك والرشيد الأسعد

وطن التحدي بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب

الشاعر: محمد الإدريسي

- | | | |
|---------------------------------|---|--------------------------------|
| تفيض الليالي بالمحامد ما بدت | ✽ | بهانا صبات العز تنشر ظلها |
| فتحكي عن الأحرار كل جليلة | ✽ | وتنجب أبكارا تحصن نسلها |
| وترصد مجدا حيثما هل نجمه | ✽ | فتلبسه نسجا يمجد غزلها |
| كتلك الغواصي من معابر دهرنا | ✽ | تحدث دوما بالمفاخر ليلها |
| وقد مريوم، هاجرتنا به المنى | ✽ | وعين التغاضي يخنق القهر حولها |
| سبتنا قيود البغي وهي شديدة | ✽ | فثارت رياح النصر تكسر قفلها |
| رياح، أثار الماكرون عجاجها | ✽ | فأرست بأبصار المثيرين رملها |
| أرادوا فصال الروح عن جسده | ✽ | بها عهد ذكرى، ينكر الدهر فصلها |
| رباط تدانينا وصائل حممة | ✽ | فما لليالي أن تصاحب مثلها |
| رباط لاستار المحبة نسجه | ✽ | تظل به عبر القوافل أهلها |
| بيوم تصدى الظلم للحق، معلنا | ✽ | بأن فرنسا تشهر اليوم غلها |
| وتحرم ملكا تاجه، بعدما بدت | ✽ | به شعلة الأنصار تحرق غلها |
| تفجر فينا ما حسباه ملجما | ✽ | ونادت بنا الآمال تعرض بذها |
| فسرنا وراء العرش حيث تجمعت | ✽ | مواكب أحلام تعانق سؤلها |
| رجال أقالوا الموت من منصب الفنا | ✽ | وأعيوا حداة يستحثون رحلها |
| وأجروا ينابيع الخلود بربعنا | ✽ | فتبنا لأخيار المناهل سيلها |

نسينا عنا الأجساد لما تمثلت ❁ بأرواحنا شمس لتعلن وصلها
 وأوفت، فأفتى السعد أن قد صبرتم ❁ إليكم بمرعى يحرس الجهد رسلها
 وحل بعرش اليمن تاجه فازدهت ❁ حقول التلاقي، يزرع الوجد فسلها
 وعمت بلادي فرحة ترقص المنى ❁ وتشهد دهرا أن تحالص قولها
 رفعنا شعار السبق في كل مذهب ❁ وإن أبدت الأيام في الود بخلها
 ومدت ليالي المجد للحظ كفها ❁ تبارك للأسفار في السبق فعلها
 وتحمد للعرش المجيد رواده ❁ وقد حفظوا للأرض في الدهر أصلها
 تناسلت الأفضال منهم، فأصبحوا ❁ يوم التنادي للمناقب رسلها
 فاكرم بيوم السير من حسن الفدى ❁ وقد ألبستنا رحلة الشوق شملها
 فنلنا - بأمر الله - فضل مسيرة ❁ وكنا - جميعا - للمفاخر رجلها
 تباهت بها عند المحافل أمة ❁ فصارت لها بين المكارم نزلها
 نساء يفى الحاجات في كل لحظة ❁ وكف تباري في الحداقة عقلها
 نساء يصد العجز عن كل كاهل ❁ ويسعد طفلا في البلاد وكهلها
 ويهدي إلى نبع الحياة عطاشنا ❁ فتلقي الصوادي للمنابع جبلها
 كذا نحن في ظل الأماني تقودنا ❁ عزائم بذل تمنح البر حملها
 نجاري دهورا تحت عرش براءة ❁ ونحمي ظهورا كسر الضيم نصلها
 ونجعل من ذكرى الملاحم زرعة ❁ ومن جهدنا عزا يؤبر نخلها
 هنيئالنا، فالعرش والشعب وحدة ❁ يصون التصافي في المحبة وصلها

فهرس العدد:

افتاحية 7

مقالات العدد:

- أحداث شارع الرباط بمدينة سيدي قاسم (غشت 1954) نموذج بارز من ثورة الملك والشعب
 11 ذ. عبد العزيز بلبركي
- صفحات خالدة في تشبث الجهة الشرقية بالملك الشرعي للبلاد سيدي محمد بن يوسف:
 أحداث 16 و 17 غشت 1953 م
 19 ذ. محمد حربي
- العلماء والملكية: جدلية بناء المغرب المقاوم
 31 ذ. سمير بوزويطة
- ردود فعل المغاربة على إبعاد السلطان ابن يوسف والسير نحو إنهاء نظام الحماية بالمغرب
 51 ذ. محمد نعائم
- تصديات الشيخ ماء العينين للتسربات الاستعمارية وبعثات الاستطلاع الأوربية في السواحل
 المغربية وأثر ذلك في الحفاظ على الوحدة الوطنية،
 63 ذ. الحسين أكروم
- الإصلاح الديني في فكر النخب المغربية في فترة الحماية
 87 ذ. أنس الفيلاي

دور أعلام الأطلس المتوسط في مقاومة الاستعمار: أحمد الحنصالي أنموذجا

103 ذة. سعاد رجاد

ثورة الملك والشعب ملحمة وطنية متميزة

115 ذ. محمد زين العابدين الحسيني

قراءة في كتاب:

قراءة في كتاب "الشعر العربي في الصحراء المغربية: جذوره التاريخية - ظواهره وقضاياها"
للدكتور أحمد مفدي

131 ذ. عبد الله الغواسلي المراكشي

التعريف بمخطوطة أجوبة محمد بن عبد السلام الفاسي في القراءات والرسم القرآني

147 ذ. الحسن بوقسيامي

ديوان العدد

الله أكرم بالملك بلادنا

169 الشاعر محمد البلغمي

وطن التحدي

171 الشاعر أحمد الإدريسي

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة:

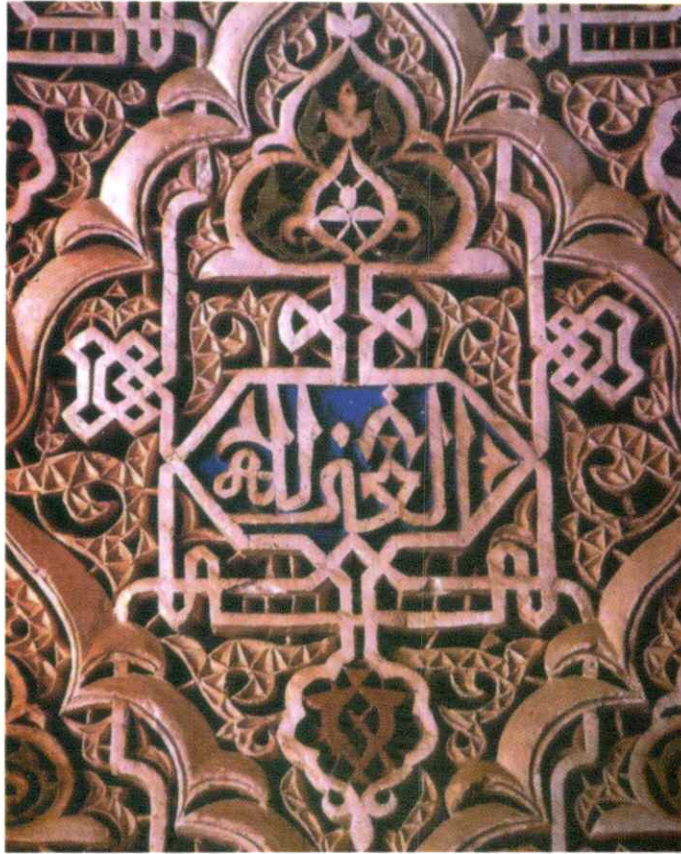
تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. جهود المغرب في تكوين القيمين الدينيين

2. القيم الإنسانية في الإسلام

3. الأدب المغربي: معالم وأعلام





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والبعث
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية